

التفسير الوسيط
للقرآن الكريم

تفسير سورة هود

عليه السلام

لفضيله
الدكتور محمد السيد طنطاوى
الأستاذ بكلية أصول الدين
جامعة الأزهر

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤ م

﴿ ربنا تقبل منا ، إنك أنت السميع العليم ﴾

[الجزء الثاني عشر]

تعريف بسورة هود - عليه السلام -

١ - سورة هود - عليه السلام - هي السورة الحادية عشرة في ترتيب الأصحف ، فقد سبقتها في هذا الترتيب سورة الفاتحة ، والبقرة ، وآل عمران والنساء ، والمائدة ، والأنعام ، والأعراف ، والأنفال ، والتوبة ، ويونس . أما ترتيبها في النزول ، فهي السورة الثانية والخمسون ، وكان نزولها بعد سورة يونس (١) .

٢ - وعدد آياتها : ثلاث وعشرون ومائة آية .

٣ - وقد سماها النبي - صلى الله عليه وسلم - بسورة هود ، فقد روى الترمذي وابن عباس قال : قال أبو بكر : يا رسول الله قد شئت أن قال : « شيتو هود » ، و « الواقعة » ، « المرسلات » ، و « عم يتساءلون » ، و « إذا الشمس كورت » ،

وفي رواية : شيتي هود وأخوانها .

قال القرطبي بعد أن ساق بعض الأحاديث في فضل هذه السورة : « ففي تلاوة هذه السور ما يكشف لقلوب العارفين سلطانه وبطشه فتذهل منه النفوس وتشيب منه الروس » (٢) .

٤ - متى نزلت سورة هود ؟

جمهور العلماء على أن سورة هود جميعها مكية ، وقيل هي مكية إلا ثلاث آيات منها : وهي قوله - تعالى - « فاعلمك تارك بعض ما يوحى إليك : وضائق به صدرك ... » الآية ١٢ .

(١) راجع كتاب « البرهان في علوم القرآن » للإمام الزركشي ج ١ ص ٩٢ طبعة عيسى الحلبي تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم .

(٢) تفسير القرطبي ج ٩ ص ٢ طبعة دار الكتاب العربي بالقاهرة

وقوله — تعالى — « أفن كان على بينة من ربه ويتلوه شاهد منه » الآية ١٧
وقوله تعالى : — « أقم الصلاة طرفي النهار وزلفا من الليل » الآية ١١٤

والذي نرجحه أن السورة كلها مكية ، وسنرى عند تفسيرنا لهذه الآيات
لنى قيل بأنها مدنية ، ما يشهد لصحة ما ذهبنا إليه .
كذلك نرجح أن هذه السورة الكريمة ، كان نزولها في الفترة التي أعقبت
حادث الإسراء والمعراج ، ذلك لأن نزولها — كما سبق أن أشرنا — كان بعد
سورة يونس ، وسورة يونس كان نزولها بعد سورة الإسراء ، التي افتتحت
بالحديث عنه .

وهذه الفترة التي كانت قبيل حادث الإسراء والمعراج والتي أعقبته، تعتبر
من أشق الفترات وأحرجها وأصعبها في تاريخ الدعوة الإسلامية .

ففي هذه الفترة مات أبو طالب عم النبي — صلى الله عليه وسلم — والمدافع
عنه ، ومات كذلك السيدة خديجة — رضى الله عنها — التي كانت نعم المواسي
له عما يصيبه من أذى ... ففقد الرسول — صلى الله عليه وسلم — بموتهما
نصيرين عزيزين ، كانت لهما مكانتهما العظيمة في نفسه ، وتعرض — صلى الله
عليه وسلم — في هذه الفترة لألوان من الأذى والاضطهاد فاقت كل ما سبقها
وبلغت الحرب المعلنة من المشركين عليه وعلى دعوته ، أقصى وأقصى مداها . .

قال ابن إسحاق خلال حديثه عن هذه الفترة : ثم إن خديجة بنت خويلد
وأبو طالب هلكا في عام واحد ، فتتابعت على رسول الله — صلى الله عليه وسلم —
المصائب بهلك خديجة — وكانت له أوزير صدق على الإسلام يشكوا إليها —
وبهلك عمه أبو طالب — وكان له عضدا وحرزا في أمره ، ومنعة وناصر على
أمره . ، وذلك قبل مهاجرة إلى المدينة بثلاث سنين .

فلما هلك أبو طالب قالت قريش من رسول الله — صلى الله عليه وسلم — من
الأذى ، ما لم تكن تطمع فيه في حياة أبي طالب ، حتى اعترضه سفيه من
سفهاء قريش ، فشر على رأسه ترابا . .

ثم قال ابن إسحاق : فحدثني هشام بن عروة ، عن أبيه عروة بن الزبير قال لما نثر ذلك السفينة على رأس رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ذلك التراب دخل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بيته ، والتراب على رأسه ، فقامت عليه إحدى بناته ، فجعلت تغسل عنه التراب ، وهي تبكي ، ورسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول لها : « لا تبكي يا بنية ، فإن الله مانع أباك » .

قال : ويقول بين ذلك : « ما نالت مني قريش شيئا أكرهه حتى مات أبو طالب » (١) .

ومضى عند استعراضنا للسورة الكريمة ، أنها صورت هذه الفترة أكل تصوير .

٥ - مناسبة السورة يونس - عليه السلام - :

قال الآلوسی - رحمه الله - « ووجه اتصالها بسورة يونس ، أنه ذكر في سورة يونس قصة نوح - عليه السلام - مختصرة جدا وبجملة ، فشرحت في هذه السورة ، وبسطت فيها ما لم تبسط في غيرها من السور ... ، ثم ان مطلعها شديد الارتباط بمطلع تلك ، فان قوله - تعالى - هذا الر . كتاب أحكمت آياته ... ، فظير قوله - سبحانه - هناك الر . تلك آيات الكتاب الحكيم ... ، بل بين مطلع هذه وختام تلك شدة ارتباط - أيضا - ، حيث ختمت بنسفي الشرك ، واتباع الوحي ، وافتتحت هذه ببيان الوحي والتحذير من الشرك » (٢)

٦ - عرض إجمالي للسورة الكريمة :

عندما فطالع سورة هود بتدبر وتأمل ، نراها في الربع الأول (٣) منها - قد افتتحت بالتنويه بشأن القرآن الكريم . وبدعوة الناس إلى إخلاص العبادة

(١) السيرة النبوية لابن هشام ج ٢ ص ١٤٥ .

(٢) تفسير الآلوسی ج ١١ ص ١٧٨ الطبعة المنيرية .

(٣) الآيات من ١ - ٢٤ .

قال - تعالى - وحده، وإلى التوجه إليه بالاستغفار والتوبة الصادقة، حتى يقالوا السعادة في دنياهم وآخرتهم .

قال - تعالى - : « أَلَمْ يَكُنْ لَهُ الْبَاقِيَ إِذَا شَاءَ فَتَكُونُ » . كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير .
أَلَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ . وَأَنْ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا
إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ، وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ ، وَلَنْ تُولُوا
فِيَّ أَنْفَاقًا عَلَيْكُمْ عَذَابٌ يَوْمَ كَبِيرٍ . إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ .

ثم وضحت السورة جانباً من مسالك الكافرين ، تلك المسالك التي تدل على
جهالاتهم بعلم الله التام ، وبقدرته النافذة ، وفصلت مظاهر هذه القدرة ، وشمل
هذا العلم ...

قال - تعالى - : « أَلَا إِنَّهُمْ يَمُنُّونَ بِمَا هُمْ غَيْرُ مَعْلُومِينَ » ، ألا حين
يستخشرون نبيهم ، يعلم ما يسرون وما يعلنون ، إنه عليم بذات الصدور ،
ثم بينت أحوال الإنسان في حالة منحه النعمة ، وفي حالة سلبها عنه ،
وساقت للرسول - صلى الله عليه وسلم - من الآيات ما يسليه عما أصابه من
كفار مكة ، وتحذتهم أن يأتوا بعشر سور من مثل القرآن الكريم ، وأنذرهم
بسوء عاقبة المعرضين عن دعوة الله ، الصادقين عن سبيله ، الكافرين بالآخرة
وما فيها من ثواب وعقاب ، وبشرت المؤمنين بحسن العاقبة ، وضربت المثل
المناسب لكل من فريق الكافرين والمؤمنين .

استمع إلى السورة السكرية وهي تصور كل ذلك بأملوها البليغ المؤثر
فتقول :

« وَلَنْ أَذِقَنَّهُ نِعْمًا إِلَّا نَسِيتَ نِعْمَتِي إِذْ أَنْقَذْتَهُ مِنَ الْيَأْسِ » . وَلَنْ
أَذِقَنَّهُ نِعْمًا إِلَّا نَسِيتَ نِعْمَتِي إِذْ أَنْقَذْتَهُ مِنَ الْيَأْسِ » . وَلَنْ
أَذِقَنَّهُ نِعْمًا إِلَّا نَسِيتَ نِعْمَتِي إِذْ أَنْقَذْتَهُ مِنَ الْيَأْسِ » .
الذين صبروا وعملوا الصالحات أولئك لهم مغفرة وأجر كبير

إلى أن تقول بعد حديث مفصل عن الكافرين وسوء عاقبتهم : « إِنَّ الَّذِينَ
آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ ، أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ

هم فيها خالدون . مثل الفريقين كالأعمى والأصم والبصير والسميع هل يستويان مثلا ، أفلا تذكرون . .

فإذا ما وصلنا إلى الربع (١) الثاني من سورة هود ، وجدناها تسوق لنا بأسلوب مفصل ، قصة نوح — عليه السلام — مع قومه ، فتحكى أمره لهم بمبادأة الله وحده ، كما تحكى الرد القبيح الذى رد به عليه زعمائهم ، وكيف أنه — عليه السلام — لم يقابل سفاهتهم بمثلها ، بل خاطبهم بلفظ «يا قوم» الدال على أنه واحد منهم ، يسره ما يسرهم ، ويؤلمه ما يؤلمهم ، ومع هذا فقد لجوا فى طغيانهم وقالوا له — كما حكى القرآن عنهم — «يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا ، فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين . . .»

فكان رده عليهم «إنما يأتىكم به الله إن شاء وما أنتم بمعجزين . . .» . . .
وقد أتاكم الله — تعالى — بالعذاب الذى استعجلوه ، فأغرقهم بالطوفان الذى غشيمهم من فوقهم ومن تحت أرجلهم ، والذى قطع دابرهم .

ثم نراها بعد ذلك فى الربع (٢) الثالث ، تقص علينا مشهدا مؤثرا ، مشهد نوح — عليه السلام — وهو ينادى ابنه الذى استحب الكفر على الإيمان فيقول له بشفقة وحرص : «يا بنى أركب معنا ولا تكن مع الكافرين . .»

ولكن الابن العاق لا يستمع إلى نصيحة أبيه العطوف بل يقول له :
«سأوى إلى جبل يعصمنى من الماء . .»

ويجيبه الأب بحزن وحسم «لأعاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم ،
وحال بينهما الموج فكان من المغرقين . .»

(١) الآيات من ٢٥ - ٤٠

(٢) الآيات من ٤١ - ٦٠

ويتضرع الأب الحزين إلى ربه فيقول : « رب إن ابني من أهلي وإن وعدك الحق وأنت أحكم الحاكمين » .

ويأتيه الجواب من الله - تعالى - : « يا نوح إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح ، فلا تسألن ما ليس لك به علم ، إني أعظك أن تكون من الجاهلين » .

ويلجأ نوح - عليه السلام - إلى خالقه ، مستعيذاً به من غضبه فيقول : رب إني أعوذ بك أن أسألك ما ليس لي به علم ، وإلا تغفر لي وترحمني أكن من الخاسرين » .

فيقبل الله - تعالى - ضراعتَه فيقول : « يا نوح اهبط بسلام منا وبركات عليك ، وعلى أمم من معك ، وأمم سئمتمهم ثم يمسمهم منا عذاب ألیم » .

ثم يختم الله - تعالى - قصة نوح ، بتسليمه النبي - صلى الله عليه وسلم - ، وبما يدل على أن هذا القرآن من عند الله ، فيقول : « تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا فاصبر ، إن العاقبة للمتقين » .

ثم تسوق السورة بعد ذلك قصة هود - عليه السلام - مع قومه ، فتحكي دعوته لهم إلى عبادة الله - تعالى - ، ومصارحته بإيham بأنه لا يريد منهم أجراً على دعوته ؛ وإرشادهم إلى ما يزيدهم غنى على غناهم ؛ وقوة على قوتهم ، ولكنهم قابلوا تلك النصائح الغالية بالتكذيب والسفاهة ، فقالوا له - كما حكى السورة عنهم - « يا هود ما جئتنا ببينة ، وما نحن بتاركي آلِهتنا عن قولك ، وما نحن لك بمؤمنين . إن نقول إلا اعتراك بعض آلِهتنا بسوء ... »

فيرد عليهم هود بقوله : « إني أشهد الله ، وأشهدوا أني بريء مما تشركون . من دونه فكيدوني جميعاً ثم لا تنظرون . إني توكلت على الله ربي وربكم ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها ... »

ثم كانت النتيجة بعد هذه المحاورات ، أن نجى الله هودا ، والذين آمنوا معه ، أما الكافرون بدعوته ، فقد نزل بهم العذاب الغليظ ، الذى تركهم صرعى ، كأنهم أعجاز نخل خاوية ...

وفى الربع (١) الرابع منها تسوق لنا السورة الكريمة ، مادار بين صالح وقومه ، حيث أمرهم بعبادة الله ، وذكركم بنعمه عليهم ، وحذرهم من الاعتداء على النافق التى هى لهم آية ... ولاكنهم استخفوا بتذكيره وبتهذيبه فكانت النتيجة لإهلاكهم ...

قال - تعالى - فلما جاء أمرنا نجحنا صالحا والذين آمنوا منه معه بركة منا ، ومن خزي يومئذ ، إن ربك هو القوى العزيز . وأخذ الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا فى ديارهم جاثمين . كأن لم يغنوا فيها ، ألا إن ثمود كفروا ربهم ألا بعدا لثمود .

ثم قصت علينا السورة الكريمة ، ما فعله إبراهيم - عليه السلام - عندما جاءه رسل الله بالبشرى ، وكيف أنهم قالوا له عندما أنكرهم وأوجس منهم خيفة : لا تخف إنا أرسلنا إلى قوم لوط ...

ثم وضحت حال لوط - عليه السلام - عندما جاءه هؤلاء الرسل ، وحكت مادار بينه وبين قومه الذين جاءوا بهرعون إليه عندما رأوا الرسل ، فقال لهم : يا قوم هؤلاء بناتى هن أطهر لكم ، فاتقوا الله ولا تخزون فى ضيقى ، أليس منكم رجل رشيد ...

فيقولون له فى صفاقة وانحراف عن الفطرة السليمة : لقد علمت ما لنا فى بناتك من حق ، وإنك لتعلم ما نريد ...

وأسقط فى يد لوط - عليه السلام - ، وأحس بضعفه أمام هؤلاء

المنحرفين المندفعين إلى ارتكاب الفاحشة ، اندفاع المجنون إلى حتفه ، فقال
بأسى وحزن : « لو أن لي بكم قوة أو آوى إلى ركن شديد » .
وهنا كشف له الرسل عن طبيعتهم ، وأخبروه بمهمتهم ؛ وطلبوا منه أن
يفادر هو ومن آمن معه مكان إقامتهم ، فإن العذاب نازل بهؤلاء المجرمين بعد
وقت قصير .

« قالوا يا لوط إنا رسل ربك ، فأمر بأهلك بقطع من الليل ولا يلتفت
منكم أحد إلا أمرأتك ، إنه يصيبها ما أصابهم ، إن موعدكم الصبح ، أليس
الصبح بقريب . فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليهم حجارة من
سجيل منضود مسومة عند ربك وما هي من الظالمين ببيعد » .
ثم تتابع السورة الكريمة في الربع الخامس (١) ، حديثها عن جانب من
قصص بعض الأنبياء مع أقوامهم ، فتحدثنا عن قصة شعيب - عليه السلام -
مع قومه ، وكيف أنه قال لهم مقالة كل رسول أقومه « يا قوم اعبدوا الله
ما لكم من إله غيره » .

ثم نهام بأسلوب رصين حكيم ، عن ارتكاب الفواحش التي كانت منتشرة
فيهم ، وهي إغراق السكيل والميزان ، وبخس الناس أشياءهم . . .
والكنهم - كعادة السفهاء الطغاة - قابلو نصائحهم بالتهكم والاستخفاف
والوعيد . . . فكانت النتيجة أن حل بهم عذاب الله الذي أهلكهم ، كما
أهلك أمثالهم .

قال - تعالى - « ولما جاء أمرنا نجينا شعيبا والذين آمنوا معه برحمة منا ،
وأخذت الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا في ديارهم جائعين . كأن لم يغنوا فيها ،
ألا بعد المدين كما بعدت ثمود » .

ثم تشوق السورة بعد ذلك بإيجاز ، جانباً من قصة موسى مع فرعون
وملئه ، الذين اتبعوا أمر فرعون ، وما أمر فرعون برشيد .

ثم تعقب على كل تلك القصص السابقة ، بتمقيب يدل على أن هذا القرآن من عند الله ، وأنه - سبحانه - لا يظلم الناس شيئاً ولسكن الناس أنفسهم يظلمون . . . قال - تعالى - : « ذلك من أبناء القرى تقصه عليك منها قائم وحصيد . وما ظلمناهم ولكن ظلوا أنفسهم ، فما أغنت عنهم آلهم التي يدعون من دون الله من شيء لما جاء أمر ربك ، وما زادهم غير تقديب . . . »

أما في الربع السادس^(١) والآخر منها ، فنراها تبين بأسلوب قوى منذر ، أن الناس سيأتون يوم القيامة ، منهم الشقي ومنهم السعيد ، وأنه - سبحانه - سيوفي كل فريق منهم جزاءه غير منقوص .

ثم ترشد إلى ما يوصل إلى السعادة ، فتدعو إلى الاستقامة على أمر الله ، وإلى عدم الركون إلى الظالمين ، وإلى إقامة الصلاة طرفي النهار وزلفاً من الليل ، وإلى الصبر الجميل .

قال - تعالى - : « فاستقم كما أمرت ومن تاب معك ولا تطغوا ، إنه بما تعملون بصير . ولا تركنوا إلى الذين ظلوا فتمسكم النار ، وما لكم من دون الله من أولياء ثم لا تنصرون . وأقم الصلاة طرفي النهار وزلفاً من الليل ، إن الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين . واصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين ، »

ثم ختمت السورة الكريمة ببيان أن من أهم مقاصد ذكر قصص الأنبياء في القرآن الكريم ، تثبيت فؤاد النبي - صلى الله عليه وسلم - وتقوية قلبه ، وتسليته عما أصابه ، وتبشيريه بأن العاقبة له ولأتباعه .

قال - تعالى - : « وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك ، وجاءك في هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين . وقيل للذين لا يؤمنون اعملوا على مكانتكم إنا عاملون وانتظروا إنا منتظرون . والله غيب السموات

والأرض وإليه يرجع الأمر كله ، فاعبده وتوكل عليه ، وما ربك بغافل عما تعملون .

٧ - أم الموضوعات التي عنيت السورة الكريمة بالحديث عنها :

من استحضنا لسورة هود ، ومن معرفه الفترة التي نزلت فيها ، نستطيع أن نقول : إن السورة الكريمة قد عنيت بالحديث عن موضوعات متنوعة من أهمها ما يأتي :

(١) ترغيب الناس في طاعة الله ، وتحذيرهم من معصيته ، وهذا المعنى نراه في كثير من آيات سورة هود ، ومن ذلك :

قوله - تعالى - : « ألا تعبدوا إلا الله إني لكم نذير وبشير . . . »

وقوله - تعالى - حكاية عن هود - عليه السلام - : « يا قوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يرسل السماء عليكم مدرارا ، ويزدكم قوة إلى قوتكم ولا تتولوا مجرمين . . . »

وقوله - تعالى - حكاية عن شعيب - عليه السلام - : « يا قوم أوفوا المكيال والميزان بالقسط ، ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا في الأرض مفسدين . بقية الله خير لكم إن كنتم مؤمنين ، وما أنا عليكم بحفيظ . . . »

(ب) تسلية الرسول - صلى الله عليه وسلم - عما أصابه من قومه ، ومن مظاهر هذه التسلية ، أن السورة الكريمة قد اشتملت في معظم آياتها على قصص بعض الأنبياء مع أقوامهم . فقد ذكرت نواحي متنوعة من قصة نوح مع قومه ، ومن قصة هود مع قومه ، ومن قصة صالح مع قومه ، ومن قصة شعيب مع قومه ، ومن قصة لوط مع قومه . . . »

وقد تحدثت خلال كل قصة عن المسالك الخبيثة ، والمجادلات الباطلة ، التي اتبعها الطغاة مع أنبيائهم الذين جاءوا لسعادتهم وهدايتهم .

كما ختمت كل قصة من هذه القصص ، ببيان حسن عاقبة المؤمنين ، وسوء عاقبة المكذبين ..

وفي ذلك ما فيه من التسلية للرسول الكريم - صلى الله عليه وسلم - عما لحقه من أذى ، وما أصابه من اضطهاد ، وما تعرض له من اعتداء عليه وعلى أصحابه . وكان ماورد في هذه السورة من قصص طويل متنوع ، يقول للرسول - صلى الله عليه وسلم - : إن ما أصابك من قومك يا محمد ، قد أصاب الأنبياء السابقين من أقوامهم ، فاصبر كما صبروا ، فإنه ما يقال لك إلا ما قد قيل للرسول من قبلك ، .

(ح) إقامة الأدلة على أن هذا القرآن من عند الله ، وليس من كلام البشر .. فقد تحداهم هنا أن يأتوا بعشر سور من مثله فعجزوا ، ثم تحداهم في موطن آخر أن يأتوا بسورة من مثله فما استطاعوا ، وساق لهم - على لسان الرسول - صلى الله عليه وسلم - الكثير من أخبار الأولين ، ومن قصص الأنبياء مع أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - لم يكن معاصرا ل هؤلاء السابقين ، ولم يكن قارئاً لأخبارهم ، فدل ذلك على أن هذا القرآن من عند الله ، وعلى أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - صادق فيما يبلغه عن ربه .

قال - تعالى - : « أم يقولون افتراه ، قل فأتوا بعشر سور مثله مفتربات ، وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين . فإن لم يستجيبوا لكم فاعلموا أنما أنزل بعلم الله وأن لا إله إلا هو فهل أنتم مسلمون » .

وقال - تعالى - : « تلك من أبناء الغيب نوحىها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا فاصبر ، إن العاقبة للمتقين » .

(د) بيان سنة من سنن الله التي لا تتخلف ، وهي أنه - سبحانه - لا يظلم الناس شيئا ، ولكن الناس هم الذين يظلمون أنفسهم ؛ بإعراضهم عن الحق ، واتباعهم للهوى ، واستحقاقهم للعقوبة التي هي جزاء عادل لكل ظالم .

وهذا البيان نراه في مواضع متعددة من السورة ، ومن ذلك قوله - تعالى -
في ختام الحديث عن قصص بعض الأنبياء مع أقوامهم .

ذلك من أنباء القرى نقصه عليك منها قائم وحصيد . وما ظلمناهم ولكن
ظلموا أنفسهم ، فما أغنت عنهم آلهم التي يدعون من دون الله من شيء ، لما
جاء أمر ربك وما زادهم غير تنبيي . وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي
ظالمة ، إن أخذه أليم شديد . إن في ذلك لآية لمن خاف عذاب الآخرة ، ذلك
يوم مجموع له الناس ، وذلك يوم مشهود . وما تؤخره إلا لأجل معدود . يوم
يأت لا تسكأ نفس إلا بإذنه فمنهم شقي وسعيد

وبعد : فهذه تعريفات عن سورة هود ، رأينا أن نذكرها قبل البدء في
تفسيرها ، وأرجو أن يكون في ذكرها ما يعطى القارئ صورة واضحة عن
هذه السورة الكريمة .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

محمد السيد طنطاوى

المدينة المنورة في ٢١ من صفر

سنة ١٤٠١ هـ / ١٢ / ١٩٨٠ م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

التفسير

« الرَّ كِتَابٌ أَحْكَمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ (١)
 أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ ، إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ (٢) وَأَنْ اسْتَغْفِرُوا
 رَبَّكُمْ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ يُغْفِرْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ
 ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ ، وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ (٣)
 إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَقْدِيرٌ (٤) أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ
 لَبَسَتْ خُفُوفًا مِنْهُ ، أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ
 إِنَّهُمْ عِلْمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٥) .

سورة هود - عليه السلام - من السور التي افتتحت ببعض حروف التهجى :
 وقد سبق أن تسكلمنا بشيء من التفصيل عند تفسيرنا لسور : البقرة
 وآل عمران ، والأعراف ، ويونس ، عن آراء العلماء في المراد بهذه الحروف
 المقطعة التي افتتحت بها بعض السور ...

ورجحنا أن هذه الحروف المقطعة ، قد وردت في افتتاح بعض سور
 القرآن ، على سبيل الإيقاظ والتنبيه للذين تحذاهم القرآن .
 فكان الله - تعالى - يقول لأولئك المعارضين في أن القرآن من عند الله
 - تعالى - : هاكم القرآن تروونه مؤلفا من كلام هو من جنس ما تقولون به
 كلامكم ، ومنظوما من حروف هي من جنس الحروف المجائية التي تنظمونها
 منها حروفكم ، فإن كنتم في شك من كونه مزلّا من عند الله فهاؤوا مثله

وادعوا من شتمتم من الخلق لكني يعاونكم في ذلك ، أو هاتوا عشر سور من مثله ، أو هاتوا سورة واحدة

فلما عجزوا - وهم أهل الفصاحة والبيان - ثبت أن غيرهم أعجز ، وأن هذا القرآن من عند الله ، ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا . . وقوله : « أحكمت آياته » من الإحكام - بكسر الهمزة - وهذه المادة تستعمل في اللغة لمعان متعددة ، ترجع إلى شيء واحد هو المنع . يقال : أحكم الأمر . أى : ألقنه ومنعه من الفساد . أى : منع نفسه ومنع الناس عما لا يليق : ويقال أحكم الفرس ، إذا جعل له حكمة تمنعه من الجروح والاضطراب .

وقوله : « ثم فصلت » من التفصيل ، بمعنى التوضيح والشرح للحقائق والمسائل المراد بيانها ، بحيث لا يبقى فيها اشتباه أو لبس .

والمعنى : هذا الكتاب الذي أنزلناه إليك يا محمد ، هو كتاب عظيم الشأن ، جليل القدر ، فقد أحكم الله آياته إحكاما بديعا ، وأتقنها إتقاناً معجزاً ، بحيث لا يتطرق إليها خلل أو فساد . ثم فصل - سبحانه - هذه الآيات تفصيلاً حكيماً ، بأن أنزلها نجوماً ، وجعلها سورا سورا ، مشتملة على ما يسهل الناس في دنياهم وآخرتهم ، من شئون العقائد ، والعبادات ، والمعاملات ، والآداب ، والأحكام

قال صاحب الكشف مالمحصة : « أحكمت آياته » أى : نظمت نظاماً رصيناً محكماً ، بحيث لا يقع فيه نقض ولا خلل ، كالبناء المحكم المرصف ... وقيل : منعت من الفساد ، من قولهم : أحكمت الدابة ، إذا وضعت عليها الحكمة لتمنعها من الجراح . قال جرير :

أبني حنييفة أحكموا سفهاءكم
إني أخاف عليكم أن أغضبها

« ثم فصلت » كما تفصل القلائد بالفرائد ، ومن دلائل التوحيد والأحكام والمواعظ والقصاص ، أو جعلت فصولاً سورة سورة ، وآية آية ، أو فرقته في التنزيل ولم تنزل جملة واحدة ... ، (١) .

و د ثم ، في قوله - سبحانه - ، ثم فصلت ، للتراخي في الرتبة كما هو شأنها في عطف الجمل ، لما في التفصيل من الاهتمام لدى النفوس ، لأن القول ترتاح إلى التفصيل بعد الإجمال ، والتوضيح بعد الإيجاز . . .

وجملة : من لدن حكيم خبير ، صفة أخرى للكتاب ، وصف بها ، لإظهار شرفه من حيث مصدره ، بعد أن وصف بإحكام آياته وتفصيلها الدالين على علو مرتبته من حيث الذات أي : هذا الكتاب الذي أنقشت آياته إقانا بديعا ، وفصلت تفصيلا رصينا ، ليس هو من عند أحد من الخلق ، وإنما هو من عند الخالق الحكيم في كل أقواله وأفعاله ، الخبير بظواهر الأمور وبواطنها .

قال الشوكاني : وفي قوله ، من لدن حكيم خبير ، لف ونشر ، لأن المعنى : أحكمها حكيم ، وفصلها خبير ، عالم بمواقع الأمور ، (١) .

وقوله : د ألا تعبدوا إلا الله ، جملة تعليمية ، أي : أنه - سبحانه - فعل ما فعل من إحكام الكتاب وتفصيله وتزييله من لدن حكيم خبير ، لكي تخلصوا له العبادة والطاعة ، وتركوا عبادة غيره ؛ لأن من أنزل هذا الكتاب المعجز ، من حقه أن يفرد بالخشوع والاستعانة .

وقوله : د إني إني إني إني ، بيان لوظيفة الرسول - صلى الله عليه وسلم - .

والضمير المجرور في د منه ، يعود على الله - تعالى - .

أي : عليكم - أيها الناس - أن تخلصوا لله - تعالى - العبادة والطاعة ، فإنه - سبحانه - قد أرسلني إليكم لكي أُنذر الذين فسقوا عن أمره بسوء العاقبة ، وأبشر الذين استجابوا لدعوته بحسن المثوبة .

وقدم - سبحانه - الإنذار على التبشير ؛ لأن الخطاب موجه إلى الكافرين ، الذين أشركوا مع الله آلهة أخرى .

(١) تفسير فتح القدير ج ٢ ص ٤٨٠ .

قال بعضهم : « والجمع بين النذارة والبشارة ، لمقابلة ما تضمنته الجملة الأولى من طلب ترك عبادة غير الله . بطريق النهى ، وطلب عبادة الله بطريق الاستثناء ، فالنذارة ترجع إلى الجزء الأول ، والبشارة ترجع إلى الجزء الثانى ، (١) .

ثم بين - سبحانه - ما يترتب على طاعته من خيرات فقال : « وأن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يمتعكم متاعا حسنا إلى أجل مسمى ، ويؤت كل ذى فضل فضله » .

والاستغفار طلب المغفرة والرحمة من الله - تعالى - .

والتوبة : الإقلاع عن كل مانع ، الله ، مع التصميم على عدم العودة إلى ذلك فى المستقبل .

ويعتكم : من الإمتاع ، وأصل الإمتاع الإطالة ، ومنه : أمتعنا الله بك .
أى : أطال لنا بقاءك .

والآية السكرية معطوفة على قوله - سبحانه - قبل ذلك : « ألا تعبدوا إلا الله » .

والمعنى : وعليكم - أيها الناس - بعد أن فبذتم كل عبادة لغير الله ، أن تديموا طلب مغفرته ورحمته ، وأن تتوبوا إليه توبة نصوحا ، فإنكم إن فعلتم ذلك - يمتعكم ، الله - تعالى - « متاعا حسنا ، بأن يبدل خوفكم أمنا ، وفقركم غنى ، وشقاءكم سعادة ... » .

وقوله : « إلى أجل مسمى ، أى : إلى نهاية حياتكم التى قدرها الله لكم فى هذه الدنيا .

وقوله : « ويؤت كل ذى فضل فضله ، أى : ويعطى كل صاحب عمل صالح جزاء عمله .

(١) تفسير التحرير والتنوير للشيخ محمد الطاهر بن عاشور ج ١ ص ٣١٥ .

فالمراد بالفضل الأول : العمل الصالح . والمراد بالفضل الثاني الثواب الجزيل من الله - تعالى - .

فالجملـة الكريمة ، وعد كريم من الله - تعالى - لكل من آمن وعمل صالحا . وجملـة : ثم توبوا إليه ، معطوفة على استغفروا . و : ثم ، هنا على بابها من التراخي ، لأن الإنسان يستغفر أولا ربه من الذنوب ، ثم يتوب إليه التوبة الصادقة النصوح التي لا رجعة معها إلى ارتكاب الذنوب مرة أخرى .

ووصف المتاع بالحسن ، ليدل على أنه عطاء ليس مشوبا بالمكدرات والمنغصات التي تقلق الإنسان في دنياه ، وإنما هو عطاء يجعل المؤمن يتمتع بنعم الله التي أسبغها عليه ، مع المداومة على شكره - سبحانه - على هذه النعم . قال - تعالى - : « من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن ، فلنحيينه حياة طيبة ، ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون » .

ثم حذر - سبحانه - من الإعراض عن طاعته فقال : « وإن تولوا فإني أخاف عليكم عذاب يوم كبير » .

أي : ذكرهم أيها الرسول الكريم بأن في إخلاصهم العبادة لله ، وفي طاعتهم له ، سعادتهم الدنيوية والآخروية ، وفي إعراضهم عن ذلك شقاؤهم وحلول العذاب بهم .

أي : إن تتولوا - أيها الناس - عن الحق الذي جئتكم به ، فإني أخاف عليكم عذاب يوم القيامة ، الذي هو عذاب كبير هوله ، عظيم وقعه ، كما أخاف عليكم عذاب الدنيا .

فتذكروا يوم ، للتحويل والتعميم ، حتى يشمل عذاب الدنيا وعذاب الآخرة ، حيث إنهم كانوا ينكرون البعث والحساب ، فتخويفهم بالعذابين أجز لنفوسهم القاسية ، وقلوبهم العاتية .

وفي وصفه بالكبر ، زيادة - أيضا - في تهويله وشدته ، حتى يشوبوا إلى وشمهم ، ويقلموا عن غيرهم وعنادهم .

وقوله - سبحانه - (إلى الله مرجعكم وهو على كل شيء قدير) تحذير آخر لهم ، إثر التحذير من الإعراض عما جاءهم به نبيهم - صلى الله عليه وسلم - .
والمرجع : مصدر ميمي بمعنى الرجوع الذي لا انفكك لهم منه ، ولا محيد لهم عنه .

أى : إلى الله - تعالى - وحدود رجوعكم مهما طالت حياتكم ، ليحاسبكم على أعمالكم ، ويجازيكم عليها بما تستحقونه من جزاء ، وهو - سبحانه - على كل شيء قدير ، لا يعجزه أمر ، ولا يحول بينه وبين نفاذ إرادته حائل :
وما دام الأمر كذلك ، فأخلصوا لله العبادة ، واستغفروه ثم قوبوا إليه لتغفروا بالسعادة العاجلة والآجلة .

ثم حكى - سبحانه - جانباً من جهالات المنحرفين عن الحق ، ومن أوهامهم الباطلة ، فقال - تعالى - :

« ألا إنهم يثنون صدورهم ليستخفوا منه ، ألا حين يستغشون ثيابهم يعلم ما يسرون وما يعلنون ، إنه عليم بذات الصدور » .
وقوله : « يثنون » من الثنى بمعنى الطى والستر . يقال : ثنيت الثوب إذا طويته على ما فيه من الأشياء المستورة .

وثنى الصدور : إمالتها وطأطأتها وحنفها بحيث تسكن القامة غير مستقيمة .
والاستخفاء : محاولة الاختفاء عن الآخرين ، ومنه قوله - تعالى - يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله وهو معهم (١)

وقوله : « يستغشون ثيابهم » ، أى : يتدثرون ويتغطون بها ، مبالغة في الاستخفاء عن الآخرين . فالسين والتاء فيه للتأكيد ، كما فى قوله - تعالى - واستغشوا ثيابهم أى : جعلوها كالغشاء عليهم .

وقد ذكر بعض المفسرين في سبب نزول هذه الآية روايات منها: أنه كان الرجل من الكفار يدخل بيته ، ويرخي ستره ، ويحني ظهره ، ويتغشى بثوبه ثم يقول : هل يعلم الله بما في قلبي فنزلت هذه الآية .

وقيل : نزلت في المنافقين ، كان أحدهم إذا مر بالنبي - صلى الله عليه وسلم - ثنى صدره . وتغشى بثوبه لئلا يراه ،

وقيل نزلت في الأخنس بن شريق ، وكان رجلا حلو المنطق ، حسن السياق للحديث ، يظهر لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - المحبة ، ويضممر في قلبه ما يضادها ... (١)

وعلى أية حال فإن الآية الكريمة تصور تصويرا بديها جهالات بعض الضالين بعلم الله - تعالى - المحيط بكل شيء ، كما تصور تصويرا دقيقة أوضاعهم الحسية حين يأتون إلى فراشهم ، وحين يلتقون بالنبي - صلى الله عليه وسلم - والضمير المجرور في قوله : منه ، يعود إلى الله - تعالى - وعليه يكون المعنى ألا إن هؤلاء المشركين يلوون صدورهم عن الحق الذي جاءهم به نبيهم - صلى الله عليه وسلم - توهمًا متهم أن فعلهم هذا يخفى على الله - تعالى - ومنهم من يرى أن الضمير في قوله : منه ، يعود إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - وعليه يسكون المعنى :

ألا إن هؤلاء المشركين يعرضون عن لقاء انبيى - صلى الله عليه وسلم - ويغطون رؤوسهم عن رؤيته ، ليستخفوا منه ، حتى لا يؤثر فيهم بسحرياته ومع أن كلا القولين له وجاهته وله من مسبب النزول ما يؤيده ، إلا أننا نميل إلى كون الضمير يعود على الله - تعالى - لأن قوله - تعالى - بعد ذلك ويعلم ما يسرون وما يعلنون ، يؤيد عودة الضمير إليه - سبحانه - إذ علم السر والعلن مرده إليه وحده .

وافتشحت الآية الكريمة بحرف التنبيه ، ألا ، وجيء به مرة أخرى في قوله ، ألا حين يستغشون ثيابهم . . . ، للاهتمام بمضمون الكلام ، وللفت أنظار السامعين إلى ما بلغه هؤلاء الضالون من جهل وانطماس بصيرة .

ثم بين - سبحانه - أنه لا يخفى عليه شيء من أحوالهم فقال : ألا حين يستغشون ثيابهم ، يعلم ما يسرون وما يعلنون إنه عليم بذات الصدور ،

أى : ألا يعلم هؤلاء الجاهلون أنهم حين يأوون إلى فراشهم ، ويتدثرون بلباسهم ، يعلم الله - تعالى - ما يسرونه في قلوبهم من أفكار ، وما يعلنونه بأفواههم من أقوال ، لأنه - سبحانه - محيط بما تضره النفوس من خفايا ، وما يدور بها من أسرار .

وجملة ، إنه عليم بذات الصدور ، تعليلية لتأكيد ما قبلها من علمه - سبحانه - بالسر والعلن . والمراد بذات الصدور : الأسرار المستكنة فيها .

هذا ، وقد ذكر ابن كثير رواية أخرى في سبب نزول هذه الآية فقال : قال ابن عباس :

كانوا يكرهون أن يستقبلوا السماء بفروجهم وحال وقاعهم ، فأنزل الله هذه الآية رواه البخارى من حديث ابن جريج . . .

وفى لفظ آخر له قال ابن عباس : أفاس كانوا يستحيون أن يتخلوا فيفضوا إلى السماء ، وأن يجامعوا نساءهم فيفضوا إلى السماء ، فنزل ذلك فيهم . . . (١)

وظاهر من هذا الكلام المنقول عن ابن عباس أنها نزلت في شأن جماعة من المسلمين هذا شأنهم ، ولعل مراده أن الآية تنطبق على صنيعهم وليس فعلهم هو سبب نزولها ، لأن الآية مسوقة للتوبيخ والذم ، والذين يستحقون ذلك هم أولئك المشركون وأشباههم الذين أعرضوا عن الحق ، وجعلوا صفات الله

- تعالى - قال الجمل بعد أن ذكر قول ابن عباس : وتنزيل الآية على هذا القول بعيد جدا ، لأن الاستحياء من الجماع وقضاء الحاجة في حال كشف العورة إلى جهة السماء ، أمر مستحسن شرعا ، فكيف يلام عليه فاعله ويندم بمقتضى سياق الآية ، (١)

وإذا فالذي يستدعيه السياق ويقتضيه ربط الآيات ، كون الآية في ذم المشركين ومن على شاكلتهم من المنحرفين عن الطريق المستقيم
ثم ساقه - سبحانه - ما يدل على كمال قدرته ، وسابغ فضله ، وشمول عليه فقال - تعالى - :

« وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا ، وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ، كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ (٦) وهو الذي خالق السموات والأرض في ستة أيام ، وكان مرشده على الماء ليلوكم أيكم أحسن عملا ، ولئن قلنا إنكم مبعوثون من بعد الموت ، ليقولن الذين كفروا ، إن هذا إلا سحر مبين (٧) .

قال الألوسي مملخصه : الدابة اسم لكل حيوان ذي روح ، ذكر أو أنثى ، عاقلا أو غيره ، مأخوذ من الدبيب وهو في الأصل المشى الخفيف ... واختصت في العرف بذوات القوائم الأربع .

والمراد بها هنا المعنى اللغوي باتفاق المفسرين ... ، (٢)

قال - تعالى - « والله خلق كل دابة من ماء ، فمنهم من يمشى على بطنه ،

(١) حاشية الجمل على الجلالين ٢ > ٢٨٠

(٢) تفسير الألوسي ١٢ > ٢

ومنهم من يمشى على رجلين ، ومنهم من يمشى على أربع ، يخلق الله ما يشاء ،
إن الله على كل شيء قدير (١)

والمراد برزقها : طعامها وغذاؤها الذي به قوام حياتها .

والمعنى : وما من حيوان يدب على الأرض ، إلا على الله - تعالى - غذاؤه
ومعاشه ، فضلا منه - سبحانه - وكرما على مخلوقاته .

وقدم - سبحانه - الجار والمجرور ، على الله ، على متعلقة وهو رزقها ،
لإفاده القصر . أى على الله وحده لا على غيره رزقها ومعاشها .

وكون رزقها ومعاشها على الله - تعالى - لا ينافى الأخذ بالأسباب ، والسعى
فى سبيل الحصول على وسائل العيش ، لأنه - سبحانه - وإن كان قد تكفل
بأرزاق خلقه ، إلا أنه أمرهم بالاجتهاد فى استعمال كافة الوسائل المشروعة
من أجل الحصول على ما يفتنيهم ويسد حاجتهم .

قال - تعالى - : هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا ، فامشوا فى مناكبها ،
وكلوا من رزقه وإليه النشور ، (٢)

وجملة : ويعلم مستقرها ومستودعها ، بيان لشمول علمه - سبحانه - لكل
شئ فى هذا الكون .

والمستقر والمستودع : إسماء مكان محل الاستقرار والإيداع للدابة فى هذا
الكون ، سواء أكان ذلك فى الأضلاب أم فى الأرحام أم فى القبور أم فى غيرها

قال الشوكانى : أخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم
وأبو الشيخ ، عن ابن عباس فى قوله : ويعلم مستقرها ، قال : حيث تأوى .
و مستودعها ، قال : حيث تموت .

(١) سورة النور الآية ٤٥

(٢) سورة الملك الآية ١٥

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر والحاكم وصححه عن ابن مسعود قال : مستقرها في الأرحام ومستودعها حيث تموت .

قال : ويؤيد هذا التفسير الذي ذنب إليه ابن مسعود ما أخرجه الترمذي الحكيم في نوادر الأصول والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في الشعب عن ابن مسعود عن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال : إذا كان أجل أحدكم بأرض ، أتيجت له إليها حاجة ، حتى إذا بلغ أقصى أثره منها فيقبض . فتقول الأرض يوم القيامة : هذا ما استودعني ، (٢)

وقوله : « كل في كتاب مبين » ، تذييل قصد به بيان دقة علمه - سبحانه - .
يمد بيان شمل هذا العلم وإحاطته بكل شيء .

والتنوين في « كل » ، هو تنوين العوض . أي : كل ما يتعلق برزق هذه الدواب ومستقرها ومستودعها مسجل في كتب مبين ، أي : في كتاب واضح جلي ظاهر في علم الله - تعالى - ، بحيث لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ، وهذا الكتاب هو اللوح المحفوظ .

ثم ساق - سبحانه - ما يشهد بعظيم قوته فقال - تعالى - : « وهو الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام » ، . . .
والأيام جمع يوم ، والمراد به هنا مطلق الوقت الذي لا يعلم مقداره إلا الله - تعالى - .

أي : وهو - سبحانه - الذي أنشأ السموات والأرض وما بينهما ، على غير مثال سابق ، في ستة أيام من أيامه - تعالى - ، التي لا يعلم مقدار زمانها إلا هو .

وقيل : أنشأهن في مقدار ستة أيام من أيام الدنيا .

قال سعيد بن جبير - رضي الله عنه - : كان قادرا على خلق السموات

والأرض وما بينهما في لحظة . خلقهن في ستة أيام ، تعظيما لعباده الثابت
والثاني في الأمور .

وقد جاءت آيات تدل على أنه - سبحانه - خلق الأرض في يومين ، وخلق
السموات في يومين ، وخلق ما بينهما في يومين ، وهذه الآيات هي قوله - تعالى - :
« قل أنتم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين وتجعلون له أندادا ، ذلك
رب العالمين . وجعل فيها رواسي من فوقها ، وبارك فيها ، وقدر فيها أقواتها
في أربعة أيام سواء للسائلين

ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها ،
قالتا أتينا طائعين . فقضاهن سبع سموات في يومين ، وأوحى في كل سماء
أمرها ... » (١)

وجملة ، وكان عرشه على الماء ، اعتراضية بين قوله « خلق السموات والأرض » ،
وبين « ليجلوكم أيكم أحسن عملا » ، ويجوز أن تكون حالة من فاعل خلق
وهو الله - تعالى - وعرش الله - تعالى - من الألفاظ التي لا يعلمها البشر إلا
بالاسم . وقد جاء ذكر العرش في القرآن الكريم إحدى وعشرين مرة .

ونحو مكلفون بأن تؤمن بأن له - سبحانه - عرشا ، أما كيفية فمفوض
عليها إليه - تعالى - .

والمعنى : أن الله - تعالى - خلق السموات والأرض في ستة أيام ، وكان
عرشه قبل خلقهما ليس تحته شيء سوى الماء .

قالوا : وفي ذلك دليل على أن العرش والماء كانا موجودين قبل وجود
السموات والأرض .

قال القرطبي : قوله : « وكان عرشه على الماء » ، بين - سبحانه - أن خلق
العرش والماء ، كان قبل خلق الأرض والسماء

ثم قال : وروى البخارى عن عمران بن حصين قال كنت عند النبی - صلى الله عليه وسلم - إذ جاءه قوم من بنى تميم فقال : « اقبلوا البشرى يا بنى تميم » قالوا : بشرتنا فأعطنا . فدخل ناس من أهل اليمن فقال : اقبلوا البشرى يا أهل اليمن إذ لم يقبلها بنو تميم ، قالوا : قبلنا . جئنا لننتفقه فى الدين ، ولنسألك عن هذا الدين ونسألك عن أول هذا الأمر .

قال : « كان الله ولم يكن شيء غيره ، وكان عرشه على الماء . ثم خلق السموات والأرض ، وكتب فى الذكر كل شيء » (١)

وقال ابن كثير بعد أن ذكر هذا الحديث وغيره : وفى صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « إن الله قدر مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة ، وكان عرشه على الماء . »

وروى الإمام أحمد عن أبيه عن عمار العقيلي قال : قلت يا رسول الله ، أين كان ربنا قبل أن يخلق خلقه ؟ قال : كان فى عما ، ماتحته هواء ، وما فوقه هواء ، ثم خلق العرش بعد ذلك (٢) والعما : السحاب الرقيق ، أى فوق سحاب مدبراله ، وعاليا عليه . والسحاب ليس تحته سوى الهواء ، وليس فوقه سوى الهواء . والمراد أنه ليس مع الله - تعالى - شيء آخر .

وقوله - سبحانه - « ليعلمكم أيكم أحسن عملا » جملة تعليلية . ولعلكم من الابتلاء بمعنى الاختبار والامتحان .

أى : خالق ما خلق من السموات والأرض وما فىهما من كائنات ، ورب فىهما جميع ما تحتاجون إليه من أسباب معاشكم ، ليعاملكم معاملة من يختبر غيره ، ليميز المحسن من المسىء ، والمطيع من العاصى ، فيجازى المحسنين والطائعين بما يستحقون من ثواب ، ويعاقب المسيئين والعاصين بما هم أهله من عقاب .

(١) تفسير القرطبي ج ١٢ ص ٨

(٢) راجع تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٢٤٠ طبعة الشعب .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : كيف قيل : « أيكم أحسن عملا ، وأعمال المؤمنين هي التي تتفاوت إلى حسن وأحسن ، فأما أعمال المؤمنين والكافرين فتفاوتها إلى حسن وقبيح ؟ قلت : الذين هم أحسن عملا هم المتقون وهم الذين استبقوا إلى تحصيل ما هو مقصود الله - تعالى - من عباده ، نخصهم بالذكر . واضرح ذكر من وراءهم ، تشيرفا لهم ؛ وتنبيهها على مكانهم منه ، وليكون ذلك لطفًا للسامعين ، وترغيبا في حيازة فضلهم » (١) .

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة ببيان موقف الكافرين من البعث والحساب فقال : « ولئن قلت إنكم مبعوثون من بعد الموت ليقولن الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين » .

أى ، ولئن قلت يا محمد لهؤلاء الكافرين الذين أرسلك الله لإخراجهم من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان ، لئن قلت لهم : إنكم مبعوثون ، يوم القيامة من بعد الموت ، الذى سيذكركم في هذه الدنيا عند نهاية آجالكم ليقولن : لك هؤلاء الكافرون على سبيل الإنكار والتهكم ما هذا الذى تقوله يا محمد إلا سحر مبين ، أى : إلا سحر واضح جلى ظاهر لا لبس فيه ولا غموض .

وقرأ حمزة والكسائى وخلف « إلا ساحر مبين » ، فتكون الإشارة بقوله « هذا » إلى الرسول - صلى الله عليه وسلم - أى : أنه فى زعمهم يقول كلاما ليسحرم به ، وليصرفهم عما كان عليه آباؤهم وأجدادهم .

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك لونا من ألوان غرور المشركين ، كما بين أحوال بعض الناس فى حالتى السراء والضراء فقال - تعالى - :

« وَاتَّخَذُوا أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ يُبْتَغُونَ رِجَالًا مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ كِتَابَ اللَّهِ وَيُخَوِّفُونَ بِهِ الْمَوْتِ » (٢)

ولئن أذقنا الإنسان منا رحمةً ثم نرعاها منه ، إنه ليؤوس^(٩) كفور^(٩)
ولئن أذقناه نعماء بعد ضراء مسته ليقولن ذهب السيئات عني ، إنه
فرح^(١٠) فخور^(١٠) إلا الذين صبروا وعملوا الصالحات أولئك لهم
مغفرة وأجر كبير^(١١) .

قال القرطبي ماملاخصه : الأمة : اسم مشترك يقال على ثمانية أوجه : فالأمة
تكون الجماعة ، كقوله - تعالى - : « وجد عليه أمة من الناس ... » ، والأمة :
أيضا أتباع الأنبياء عليهم السلام ، والأمة : الرجل الجامع للخير الذي يقتدى
به ، كقوله - تعالى - : « إن إبراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا ، والأمة : الدين
والملة ، كقوله - تعالى - : « لنا وجدفا آباءنا على أمة ، والأمة : الحين والزمان
كقوله - تعالى - : « وادكر بعد أمة » ، والأمة : القامة ، وهو طول الإنسان
وارتفاعه ، يقال من ذلك : فلان حسن الأمة ، أي القامة والأمة : الرجل
المفرد بدينه وحده ، لا يشركه فيه أحد . قال - صلى الله عليه وسلم : يبعث
زيد بن عمرو بن نفيل أمة وحده ، والأمة : الام ، يقال : هذه أمة زيد ، أي
أم زيد ...^(١) والمراد بالأمة هنا : الحين والزمان والمدة .

والمعنى : ولئن أخرنا - بفضائنا وكرمنا - عن هؤلاء المشركين العذاب ،
المقتضى لوجودهم لآياتنا ، وتكذيبهم لرسلنا إلى أمة معدودة ، أي : إلى
وقت معين من الزمان على حسب إرادتنا وحكمتنا ؛ « ليقولن » على سبيل
التهمك والاستهزاء ، واستعجال العذاب ، « ما يحبس » أي : ما الذي جعل هذا
العذاب الذي حذرنا منه محمد - صلى الله عليه وسلم - محبوسا عنا ، وغير
نازل بنا ...

ولا شك أن قولهم هذا ، يدل على بلوغهم أقصى درجات الجهالة والطغيان ،

حيث قابلوا رحمة الله - تعالى - المتمثلة هنا في تأخير العذاب عنهم ، بالاستهزاء والاستعجال ، ولذا رد الله - تعالى - عليهم بقوله : « ألا يوم يأتيهم ليس مصروفا عنهم ، وحق بهم ما كانوا به يستهزئون ، أرى : ألا إن ذلك العذاب الذى استعجلوه واستخفوا به ، يوم ينزل بهم ، لن يصرفه عنهم صارف ، ولن يدفعه عنهم دافع ، بل سيحيط بهم من كل جانب ، بسبب استهزائهم به ولم عراضهم عن حذرهم منه .

واللام فى قوله « ولئن أخرنا عنهم العذاب ، موطئة للقسم ، وجواب القسم قوله « ليقولن ما يحبسهم » .

والأقرب إلى سياق الآية أن يكون المراد بالعذاب هنا : عذاب الاستئصال الدنيوى ، إذ هو الذى استعجلوا نزوله ، أما عذاب الآخرة فقد كانوا منكرين له أصلا ، كما حكى عنهم - سبحانه - فى الآية السابقة فى قوله : « ولئن قلنا لمفكم مبعوثون من بعد الموت ليقولن الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين » .

قال الآلوسى : والظاهر أن المراد "العذاب الشامل للكفرة ، ويؤيد ذلك ما أخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة قال : لما نزل « اقرب للناس حسابهم » ، قال ناس : إن الساعة قد اقتربت فتناهوا ، فتناهى القوم قليلا ، ثم عادوا إلى أعمالهم السوء ، فأنزل الله - تعالى - : « أنى أمر الله فلا تستعجلوه » ، فقال أناس من أهل الضلالة : هذا أمر الله - تعالى - قد أتى ، فتناهى القوم ثم عادوا إلى مكرهم مكر السوء ، فأنزل الله هذه الآية « (١) » .

وفى قوله - سبحانه - « إلى أمة معدودة » إيماء إلى أن تأخير العذاب عنهم ليس لمدة طويلة ، لأن ما يحصره العدد : جرت العادة فى أساليب العرب أن يكون قليلا ، ويؤيد ذلك أنه بعد فترة قليلة من الزمان نزل بهم فى غزوة بدر القتل الذى أهلك صناديدهم ، والأسر الذى أذل كبريائهم .

وافتح تحت جملة « ألا يوم يأتيهم ليس مصروفا عنهم » بأداة الاستفتاح « ألا » ، للاهتمام بمضمون الخبر ، وللإشارة إلى تحقيقه ، وإدخال الروح في قلوبهم .

وعبر بالماضي « حاق » مع أنه لم ينزل بهم بعد ، للإشارة ، إلى أنه آت لا ريب فيه ، عندما يأذن الله . - تعالى - بذلك .

ثم بين - سبحانه - جانبا من طبيعة بنى آدم إلا من عصم الله فقال - تعالى - « ولئن أذقنا الإنسان منا رحمة ثم نزعناها منه إنه ليؤوس كفور... » والمراد بالإنسان هنا الجنس على أرجح الأقوال ، فيشمل المسلم وغيره ، بدليل الاستثناء الآتي بعد ذلك في قوله ، إلا الذين صبروا وعملوا الصالحات . قال الفخر الرازي مامنا خصه : المراد بالإنسان هنا مطلق الإنسان ويدل عليه وجوه :

الأول : أنه - تعالى - استثنى منه قوله « إلا الذين صبروا وعملوا الصالحات » والاستثناء يخرج من الكلام ما لولاه لدخل ، فثبت أن الإنسان المذكور في هذه الآية داخل فيه المؤمن والكافر .

الثاني : أن هذه الآية موافقة على هذا التفسير لقوله - سبحانه - : والعصر إن الإنسان لفي خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ...

الثالث : أن مزاج الإنسان مجبور على الضعف والجزر . قال ابن جريج في تفسير هذه الآية : يأن آدم إذا نزلت بك نعمة من الله فأنت كفور ، فإذا نعت منك فيؤوس قنوط ، (١) .

وقيل المراد بالإنسان هنا جنس الكفار فقط ، لأن هذه الأوصاف تناسبهم وحدهم .

والمراد بالرحمة هنا : رحمة الدنيا ، وأطلقت على أثرها ودر النعمة كالصحة والغنى والأمان وما يشبه ذلك من ألوان النعم .

واليؤوس والكفور : صيغتا مبالغة للشخص الكثير اليأس والقنوط ، الشديد الجحود لنعم الله - تعالى - يقال : ينس من الشيء ييأس ، إذا قنط منه . والمعنى : ولئن منحنا الإنسان - بفضلهنا وكرمنا - بعض نعمنا ، كالصحة والغنى والسلطان والأمان « ثم نزعناها منه » أو : ثم سلبناها منه ، لأن حكمتنا تقتضى ذلك .

« إنه » فى هذه الحالة « ليؤوس كفور » أى : لشديد اليأس والقنوط من أن يرجع إليه ما سلب منه أو مثله ، والكثير الكفران والجحود لما سبق أن تقلب فيه من نعم ومن .

قال الشوكانى : وفى التعبير بالدوق ما يدل على أنه يكون منه ذلك عند سلب أدنى نعمة ينعم الله بها عليه ؛ لأن الإذاقة والدوق أقل ما يوجد به الطعم (١) .

وفى قوله « ثم نزعناها منه » إشارة إلى شدة تعلقه بهذه النعم ، وحرصه على بقائها معه .

وجملة « إنه ليؤوس كفور » - جواب القسم ، وأكدت بأن وباللام ، لقصد تحقيق مضمونها ، وأنه حقيقة ثابتة .

وهى تصوير بليغ صادق لما يعتري نفس هذا الإنسان عندما تسلب منه النعمة بعد أن ذاقها ، فهو - لقلته لإيمانه وضعف ثقته بربه - قد فقد كل أمل فى عودة هذه النعمة إليه ، ولا كأن هذه النعمة التى سلبت منه لم يرها قبل ذلك .

ثم بين - سبحانه - حالة هذا الإنسان اليؤوس الكفور ، عندما تأتبه

(١) تفسير فتح القدير للشوكانى ج ٢ ص ٤٨٥ ،

«سراء بعد الضراء فقال : ولئن أذقناه نعماء بعد ضراء مسته ، ليقولن ذهب السيئات عني ، إنه لفرح نخور ، » .

والنعماء : النعمة التي يظهر أثرها على صاحبها ، واختير لفظ النعماء لمقابلته للضراء .

والضراء : ما يصيب الإنسان من مصائب يظهر أثرها السىء عليه .
والمراد بالسيئات : الأضرار التي لحقت كال فقر والمرض .

والمعنى : ولئن أذقنا هذا الإنسان اليؤوس الكفور «نعماء بعد ضراء مسته» كصحة بعد مرض ، وغنى بعد فقر ، وأمن بعد خوف ، ونجاح بعد فشل ...
« ليقولن ذهب السيئات عني » أي : ليقولن في هذه الحالة الجديدة ببطر وأشر ، وغرور وتكبر ، لقد ولت المصائب عني الأدبار ، ولن تعود إلى .
وعبر — سبحانه — في جانب الضراء بالمس ؛ الإشارة إلى أن لإصابة بها أخف مما تذوقه من نعماء ، وأن لطف الله شامل لعباده في كل الأحوال .

وجملة « إنه لفرح نخور » جواب القسم .

أي : إنه لشديد الفرح والبطر بالنعمة . كـ: «ير التباهي والتفاخر بما أعطى منها ، مشغول بذلك عن القيام بما يجب عليه نحو خالقه من شكر وثناء عليه — سبحانه — .

ولها — أيضا — بصورة صادقة لهذا الإنسان العجول القاصر ، الذي يعيش في لحظاته الحاضرة ، فلا يتذكر فيما مضى ، ولا يتفكر فيما سيكون عليه حاله بعد الموت ، ولا يمتدح بتقلبات الأيام ، فهو يؤوس كفور إذا نزعت منه النعمة ، وهو بطر غفور إذا عادت إليه ، وهذا من أسوأ ما تصاب به النفس الإنسانية من أخلاق مردولة .

وقوله : « إلا الذين صبروا وعملوا الصالحات ... » استثناء من هؤلاء الناس الذين لا يصبرون عند الشدة ، ولا يشكرون عند الرخاء .

أى : إلا الذين صبروا على النعمة كما صبروا على الشدة ، وعملوا فى الحالتين الأعمال الصالحات التى ترضى الله - تعالى - .

« أولئك » الموصوفون بذلك ، لهم ، من الله - تعالى - « مغفرة » عظيمة تمسح ذنوبهم ، وأجر كبير « منه » سبحانه - لهم . جزاء صبرهم الجليل ، وعملهم الصالح .

وفى الصحيحين أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : « والذى نفسى بيده ، لا يقضى الله للمؤمن قضاء إلا كان خيرا له ، إن أصابته سراء شكر فكان خيرا له ، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له ، وليس ذلك لأحد غير المؤمن » .

ثم بين - سبحانه - بعض أقوال المشركين ، التى كان النبي - صلى الله عليه وسلم - يضيق بها صدره ، وتحزن منها نفسه ، فقال - تعالى - :

« فَلَمَّا لَكَ تَارِكٌ بِمَعْصَى مَا يَوْحَىٰ إِلَيْكَ وَصَائِقُ بِهِ صَدْرُكَ ، أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ ، إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ ، وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ » (١٢) .

قال الفخر الرازى - رحمه الله - : روى عن ابن عباس - رضى الله عنهما - أن رؤساء مكة قالوا يا محمد ، اجعل لنا جبال مكة ذهبا إن كنت رسولا ، وقال آخرون : اتلنا بالملائكة يشهدون بنبوتك . فقال : لا أقدر على ذلك ، فنزلت هذه الآية « (١) » .

(١) التفسير الكبير للفخر الرازى ج ١٧ ص ١٩٢ طبعة عبيد الرحمن

محمد سنة ١٣٥٧ هـ .

ولفظ « لعل » - كما يقول الآلوسى - للترجى ، وهو يقتضى التوقع ، ولا يلزم من توقع الشيء وقوعه ولا ترجح وقوعه ، لجواز أن يوجد ما يمنع منه ، فلا يشكل بأن توقع ترك التبليغ منه - صلى الله عليه وسلم - مما لا يليق بمقام النبوة ، لأن المانع منه هنا ثبوت عصمته - صلى الله عليه وسلم - عن كتم شيء أمر بتبليغه والمقصود بهذا الأسلوب هنا تحريضه - صلى الله عليه وسلم - وتهيج داعيته لأداء الرسالة ، ويقال نحو ذلك فى كل توقع نظير هذا التوقع (١) .

و« تارك » اسم فاعل من الفعل ترك . و« ضائق » اسم فاعل من الفعل ضاق ، وهو معطوف على « تارك » .

والمراد ببعض ما يوحى إليه صلى الله عليه وسلم . فى قوله - سبحانه - « فاعلمك تارك بعض ما يوحى إليك » : ما نزل عليه - صلى الله عليه وسلم - من قرآن فيه استهزاء بأهلهم ، وتسفيه لعقولهم التى استسأغت أن تشرك مع الله - تعالى - فى عبادتها آلهة أخرى ،

والضمير المجرور فى قوله - سبحانه - « وضائق به صدوك » ، يعود إلى البعض الموحى به ، وقيل يعود للتبليغ ، وقيل للتكذيب .

وجملة « أن يقولوا » فى محل نصب على أنها مفعول لأجله ، أى : كراهة أو خشية أن يقولوا .

والكثرة : يطلق على الحال الكثير المجموع بعض إلى بعض سواء أكان فى بطن الأرض أم على ظهرها ، ومرادهم بإزالته هنا : أن ينزل على الرسول - صلى الله عليه وسلم - من السماء مال كثير يغنيه هو وأصحابه ، ويجعلهم فى رغد من العيش ، بدل ما يبدو على بعضهم من فقر وفاقة ...

والمعنى : ليس خافيا علينا - أيها الرسول الكريم - ما يفعله المشركون معك ، من تكذيب لدعوتك ، ومن جحود لرسالتك ، ومن مطالب متعنتة يطالبونها منك ...

(١) تفسير الآلوسى ج ١٢ ص ١٨ . طبعة مئير الدمشقي .

ليس خافيا علينا شيئا من ذلك ، ولعلك إزاء مسألكهم القبيحة هذه ، تارك تبليغ بعض ما يوحى إليك ، وهو ما يشير غضبهم ، وضائق صدرك بهذا التبليغ ، كراهة تكذيبهم لوحى الله ، واستهزائهم بدعوتك ، وقولهم لك على سبيل التعنت : هلا أنزل إليك من السماء كيثير تستغنى به وتغنى أقباءك ، وهلا كان معك ملك يصاحبك فى دعوتك ، ويشهد أمامنا بصدقك . ويؤيدك فى تحصيل مقصودك ...

لا - أيها الرسول الكريم - لا تترك شيئا من تبليغ ما أمرك الله بتبليغه لهؤلاء المشركين ، ولا يضق صدرك بأفعالهم الذميمة ، وبأقوالهم الباطلة ، بل واصل دعوتك لهم إلى طريق الحق ، فما عليك إلا الإنذار ، أما نحن فإلينا أيابهم ، وعلينا حسابهم .

وعبر - سبحانه - عن تأثر الرسول - صلى الله عليه وسلم - من مواقفهم المتعنتة باسم الفاعل « ضائق » ، لا بالصفة المشبهة « ضيق » ، لمراعاة المقابل وهو قوله « تارك » ، والإشارة إلى أن هذا الضيق مما يعرض له - صلى الله عليه وسلم - أحيانا ، وليس صفة ملازمة له ، لأن اسم الفاعل يقتضى الحدوث والانقطاع ، بخلاف الصفة المشبهة فتقتضى الثبات والدوام .

وأبرز - سبحانه - هنا صفة الإنذار للرسول - صلى الله عليه وسلم - مع أن وظيفته الإنذار والتبشير ، لأن المقام هنا يستوجب ذلك ، إذ أن هؤلاء المشركين قد تجاوزوا كل حد فى الإساءة إليه - صلى الله عليه وسلم - .

وقوله - سبحانه - « والله على كل شئ وكيل » تدبيل قصد به زيادة تثبيته وتحريره على المضى فى تبليغ دعوته .

أى : سر فى طريقك - أيها الرسول الكريم - غير مبال بما يصدر عنهم من مضايقات لك ، والله - تعالى - حافظ لأحوالك وأحوالهم ، وسيجازيهم بالجزاء الذى يتناسب مع جرائمهم وكفرهم .

والمتاامل في هذه الآية الكريمة يراها تعبر أكل تعبير عن الفترة الحرجة التي نزلت فيها هذه السورة الكريمة ، فقد سبق أن قلنا عند التعريف بها ، إنها نزلت في الفترة التي أعقبت وفاة النصيرين الكبيرين للرسول - صلى الله عليه وسلم - وهما أبو طالب وخديجة - رضى الله عنها - وكانت هذه الفترة من أشق الفترات على الرسول - صلى الله عليه وسلم - ، حيث تكاثر فيها إيهام المشركين له ولأصحابه ...

فانت ترى أن هذه الآية الكريمة تحت النبي - صلى الله عليه وسلم - على الثبات والصبر ، وعلى تبلغ ما يوحى إليه ، مع عدم المبالاة بما يصنعه المشركون في طريقه من عقبات ...

هذا ، وقد سبق أن بينا عند التعريف بهذه السورة - أيضا - ، أن من العلماء من يرى أن هذه الآية مدنية ، ولعلك معنى - أيها القارئ الكريم - في أنه لا يوجد أى دليل فقل أو عقلى يؤيد ذلك ، بل الذى يؤيده الأدلة ويؤيده سبب النزول أن الآية مكية كبقية السورة .

وهناك آيات أخرى مكية تشبه هذه الآية في أسلوبها وموضوعها ، ومن هذه الآيات قوله - تعالى - : « وقالوا مال هذا الرسول يأكل الطعام ويمشى في الأسواق ، لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيرا . أو يلقى إليه كنز أو تكون له جنة يأكل منها » (١) .

ثم حكى - سبحانه - بعد ذلك زعما آخر من مزاعمهم الكثيرة ، وهو دعواهم أن القرآن مفترى ، وتحداهم أن يأتوا بعشر سور من أمثال هذا القرآن المفترى في زعمهم ، فقال - تعالى - :

« أم يقولون افتراء ، قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات ، وادعوا

مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٣) فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِمِلِّهِمُ اللَّهُ ، وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَعَلَّ أُنْتُمْ مُسْلِمُونَ (١٤) .

و د أم ، هنا منقطعة بمعنى بل التي للإضراب ، وهو انتقال المتكلم من غرض إلى آخر والافتراء : الكذب المتعمد الذي لا توجد أدنى شبهة لقائله .

والمعنى : إن هؤلاء المشركين لم يكتبوا بما طلبوه منك يا محمد ، بل تجاوزوا ذلك إلى ما هو أشد جرماً ، وهو قولهم إنك افتريت القرآن الكريم ، واخترعته من عند نفسك .

وقوله : د قل فأثروا بعشر سور مثله مفتريات ، وادعوا من استطعتم من من دون الله ، أمر من الله - تعالى - لنبيه - صلى الله عليه وسلم - بأن يرد عليهم بما يخزى ألسنتهم ، ويكبت نفوسهم .

أى : قل لهم يا محمد على سبيل التحدى : إن كان الأمر زعمون من أنى قد افتريت هذا القرآن ، فأنا واحد منهمك وبشر مثلكم ، فهاثوا أتم عشر سور مختلفات من عند أنفسكم ، تشبه ما جئت به في حسن النظم ، وبراعة الأسلوب ، وحكمة المعنى ، وادعوا المعاونتكم في بلوغ هذا الأمر كل من تتوسمون فيه المعاودة غير الله - تعالى - ، لأنه هو - سبحانه - القادر على أن يأتى بمثله .

وجواب الشرط في قوله - سبحانه - إن كنتم صادقين ، محذوف دل عليه ما تقدم . أى : إن كنتم صادقين في زعمكم أنى افتريت هذا القرآن ، فهاثوا أتم عشر سور مثله مفتريات من عند أنفسكم .

والمأمل لآيات القرآن الكريم ، يرى أن الله - تعالى - قد تحدى المشركين قارة بأن يأتوا بمثله كما في سورتي الإسراء والطور . ففي سورة الإسراء يقول - سبحانه - د قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن

لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا،^(١) وفي سورة الطور يقول - سبحانه - : فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين،^(٢) .

وقارة تحدهم بأن يأتوا بعشر سور من مثله كما في هذه السورة ، وقارة تحدهم بأن يأتوا بسورة واحدة من مثله كما في سورتي البقرة ويونس ، ففي سورة البقرة : وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله ،^(٣) وفي سورة يونس يقول - سبحانه - : : أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورة من مثله ، وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين،^(٤) وقد عجزوا عن الاتيان بمثل أقصر سورة ، وهم من هم في فصاحتهم ، فثبت أن هذا القرآن من عند الله - تعالى - .

وقوله - سبحانه - : فإن لم يستجيبوا لكم فاعلموا أنما أنزل بعلم الله ، وأن لا إله إلا هو فهل أنتم مسلمون ، إرشاد لهؤلاء المشركين إلى طريق الحق والسعادة لو كانوا يعقلون؛ إذ الخطاب موجه إليهم لعلهم يشوبون إلى الرشده . والمعنى : قل - أيها الرسول الكريم - لهؤلاء الذين تحديتهم أن يأتوا بعشر سور من مثل القرآن ، وأبحت لهم أن يستعينوا في ذلك بمن شاؤوا من البشر ، قل لهم : فإن لم يستجب لدعوتكم من استعنتم بهم في الاتيان بعشر سور من مثل القرآن - وهم لن يستجيبوا لكم قطعا - ، فاعلموا ، أيها الناس ، أن هذا القرآن إنما أنزل بعلم الله ، وحده ، وبقدرته وحدها ، ولا يقدر على إنزاله بتلك الصورة أحد سواه .

واعلموا - أيضا - : أنه لا إله إلا هو ، - سبحانه - ، فهو الإله الحق ، لنذى تعذوله الوجوه ، وتخضع له القلوب ، وتتجه إليه النفوس بالعبادة والطاعة .

(٢) الآية ٣٠ .

(٤) الآية ٣٨ .

(١) الآية ٨٨

(٣) الآية ٢٣ .

« فهل أنتم ، أيها المشركون بعدد كل تلك الأدلة الواضحة الدالة على وحدانيه الله ، وعلى أن هذا القرآن من عنده ، مسلمون ، أى : داخلون في الإسلام ، ومتبعون لما جاءكم به الرسول - صلى الله عليه وسلم - .

والمراد بالعلم في قوله « فاعلموا » إنما أنزل ... : الاعتقاد الجازم البالغ نهاية اليقين ، أى فأيقنوا أن هذا القرآن ما أنزل إلا ملائسا لعلم الله - تعالى - المحيط بكل شئ .

والفاء في قوله « فهل أنتم مسلمون » للتفريع ، والاستفهام هنا المقصود به الحض على الفعل وعدم تأخير .

أى : فهل أنتم بعد كل هذه الأدلة على صدق ما جاءكم به نبينا محمد - صلى الله عليه وسلم - تشكون في أن الإسلام هو الدين الحق ؟ إن الشك في ذلك لا يكون من عاقل ، فبادروا إلى الدخول في الإسلام إن كنتم من ذوى العقول التى تعقل ما يقال لها .

ويرى بعض العلماء أن الخطاب في هذه الآية موجه إلى النبی - صلى الله عليه وسلم - والمسلمين ، أو إليه وحده - صلى الله عليه وسلم - على سبيل التعظيم ، وعليه يكون المعنى :

« فإن لم يستجب لكم - أيها المؤمنون - هؤلاء الذين أعرضوا عن دعوة الحق ، بعد أن ثبت عجزهم عن الإتيان بما تحديتهم به « فاعلموا » أى فازدادوا علما و يقيناً وثباتاً ، بأن هذا القرآن « إنما أنزل بعلم الله » الذى لا يعزب عنه شئ ، وازدادوا علما بأنه لا إله إلا هو - سبحانه - مستحق للعبادة والطاعة ، فهل أنتم بعد كل ذلك ، مسلمون ، أى ثابتون على الإسلام ، وملتزمون بكل أوامره ونواهيه .

ومع أننا نرى أن القولين صحيحان من حيث المعنى ، إلا أننا نفضل الرأى الأول القائل بأن الخطاب للمشركين ، لأن سياق الآيات السابقة في شأنهم ، فلاّن يكون الخطاب لهم هنا أولى .

ثم بين - سبحانه - سوء مصير الذين لا يريدون بأقوالهم وأعمالهم وجه الله - تعالى - فقال :

« مَنْ كَانَ يَرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ (١٥) أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٦) .

أى : من كان يريد ، بأقواله الحسنة وبأعماله الطيبة على حسب الظاهر ، الحصول على (الحياة الدنيا وزينتها) من مال وجاه ومنصب وغير ذلك من المتع الدنيوية ، بدون التفات إلى ما يقربه من ثواب الآخرة .

من كانوا يريدون ذلك (نواف إليهم أعمالهم فيها) أى : نوصن إليهم - بإرادتنا ومشيتنا - ثمار جهودهم وأعمالهم في هذه الدنيا .

والنعبير بكان فى قوله (من كان يريد . . .) يفيد أنهم مستمرون على إرادة الدنيا بأعمالهم ، بدون تطلع إلى خير الآخرة .

وعدى الفعل (نواف) بإلى ، مع أنه يتعدى بنفسه ، لتضمنينه معنى فوصل . وقوله - سبحانه - (وهم فيها لا يبخسون) تذييل قصد به تأكيد ما سبقه ، وتبيين مظهر من مظاهر عدل الله - تعالى - مع عباده فى دنياهم ، والبخس : نقص الحق ظلماً . يقال : بخس فلان فلاناً حقه إذا ظلمه ونقصه .

أى : وهم فى هذه الدنيا لا ينقصون شيئاً من نتائج جهودهم وأعمالهم ، حتى ولو كانت جهوداً لا لإخلاص معها ولا لإيمان .

ثم بين - سبحانه - سوء مصيرهم فى الآخرة فقال : أولئك الذين ليس لهم فى الآخرة إلا النار وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون .

أى : أولئك الذين أرادوا بأقوالهم وأعمالهم الحياة الدنيا وزينتها ، ليس

هم في الآخرة إلا النار، لأنهم استوفوا ما تقتضيه صور أعمالهم الحسنة في الدنيا بقيت عليهم أوزار ثباتهم السيئة في الآخرة

« وحبط ما صنعوا فيها ، أى : وفسد ما صنعوه في الدنيا من أعمال الخير ، لأنهم لم يقصدوا بها وجه الله - تعالى - وإنما قصدوا بها الرياء رضى الناس ... »

وقوله « وباطل ما كانوا يعملون ، أى : وباطل في نفسه ما كانوا يعملونه في الدنيا من أعمال ظاهرها البر والصلاح ، لأنه لا ثمرة له ولا ثواب في الآخرة لأن الأعمال بالنيات ، ونيات هؤلاء المرأئين ، لم تكن تلتفت إلى ثواب الله ، وإنما كانت متجهة انجاسها كلها إلى الحياة الدنيا وزينتها ، إلى إرضاء المخلوق لا الخالق . »

وشبه بهاتين الآيتين قوله - تعالى - : « من كان يريد حرث الآخرة زد له في حرثه ، ومن كان يريد حرث الدنيا فؤاده منها وما له في الآخرة من نصيب » (١) .

وقوله - تعالى - : « من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ، ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموماً مدحوراً . ومن أورد الآخر وسمى لها سعيها وهو مؤمن ، فأولئك كان سعيهم مشكوراً . كلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظوراً . انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض ، والآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلاً » (٢) .

هذا ، ومن العلماء من يرى أن هاتين الآيتين مسوقتان في شأن الكفار ومن على شاكلتهم من الضالة كاليهود والنصارى والمنافقين ... لأن قوله - تعالى - « أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار ... » لا يليق إلا بهم .

والذى نراه أن هاتين الآيتين تتناولان الكفار ومن على شاكلتهم تناولا أوليا ، ولكن هذا لا يمنع من أنهما يندرج تحت وعيدهما كل من قصد بأقواله وأعماله الحياة الدنيا وزينتها ، ونبتذ كل معانى الإخلاص والطاعة لله رب العالمين .

ونما يشهد لذلك أن هناك أحاديث كثيرة ، حذرت من الرياء ، وتوعدت مقتزفه بأشد أنواع العقوبات ، ومن هذه الأحاديث ما رواه أبوداود عن أبى هريرة قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : من تعلم علما مما يبتغى به وجه الله ، لا يتعلمه إلا ليصيب به عرضا من الدنيا ، لم يجد عرف الجنة يوم القيامة - أى رائحتها - (١) .

وصفوة القول : أن الآيتين الكريمتين نسوقان سنة من سنن الله مع عباده فى هذه الدنيا ، وهى أن الله - تعالى - لا ينقص الناس شيئا من ثمار جهودهم وأعمالهم فى هذه الدنيا ، إلا أن هذه الجهود وتلك الأعمال التى ظاهر الصلاح ، إن المقصود بها الحياة الدنيا وزينتها ، وجدوا نتائجها وثمارها فى الدنيا فحسب . وإن كان المقصود بها رضا الله - تعالى - وثواب الآخرة ، وجدوا ثمارها ونتائجها الحسنة يوم القيامة ، بجانب تمتعهم بما أحله الله لهم فى الدنيا من طيبات .

وذلك لأن العمل للحياة الأخرى - فى شريعة الإسلام - ، لا يحول بين العمل النافع فى الحياة الدنيا ، ولا ينقص شيئا من آثاره وثماره ، بل إنه يزيكه وينميه ويباركه . . . ورحم الله الفاضل : ليس أحديهم حسنة إلا وفى ثوابها ، فإن كان مسلما مخلصا وفى ثوابها فى الدنيا والآخرة ، وإن كان كافرا وفى ثوابها فى الدنيا .

• • •

وبعد أن بين - سبحانه - حال الذين يريدون الحياة الدنيا وزينتها ،

(١) من كتاب رياض الصالحين للإمام النووي من باب تحريم الرياء ص ٦١٩

أتبع ذلك ببيان حال الذين يريدون الحق والصواب فيما يفعلون ويتركون فقال - تعالى - :

« أَفَن كَانَ عَلَى بَيْنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ ، وَمَنْ قَبْلَهُ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً ، أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ، وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنْ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ ، فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَالْكَثْرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ (١٧) » .

قال صاحب المنار مالم يخلصه : البينة ما تبين به الحق من كل شيء بحسبه كالبرهان في العقليات والنصوص في النقليات ، والخوارق في الإلهيات ، والتجارب في الحسيات ، والشهادات في القضائيات . والاستقراء في إثبات الكلليات ، وقد نطق القرآن بأن الرسل قد جاءوا أقوامهم بالبينات وأن كل نبي منهم كان يحتاج على قومه بأنه على بينة من ربه وأنه جاءه ببينة من ربه ، كما ترى في قصصهم في هذه السورة وفي غيرها (١) .

وقوله : « وَيَتْلُوهُ » ، من التلو بمعنى الاقتفاء والاتباع . يقال : تلا فلان فلانا إذا كان تابعاً له ومقتفياً أثره . والمراد به هنا : التأيد والتقوية .

وللمفسرين أقوال متعددة في المقصود بقوله - تعالى - : « أَفَن كَانَ عَلَى بَيْنَةٍ مِنْ رَبِّهِ » ، وبقوله - سبحانه - « وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ » . وفي مرجع الضمائر في قوله ، ربه - ويتلوهُ - ومنه

وأقرب هذه الأقوال إلى الصواب أن يكون المقصود بقوله - تعالى - « أَفَن كَانَ عَلَى بَيْنَةٍ مِنْ رَبِّهِ » ، الرسول - صلى الله عليه وسلم - وأتباعه المؤمنون وبقوله - تعالى - « وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ » ، القرآن الكريم الذي أنزله الله - تعالى - على نبيه - صلى الله عليه وسلم - ليكون معجزة له شاهدة بصدقه .

والضمير في قوله « من ربه » ، يعود إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - ،
وفي قوله « ويتلوه » ، يعود إلى القرآن الكريم ، وفي قوله « منه » ، يعود إلى الله
- تعالى - .

وعلى هذا القول يكون المعنى : أفن كان على حجة واضحة من عند ربه تهديه
إلى الحق والصواب في كل أقواله وأفعاله ، وهو هذا الرسول الكريم وأتباعه
ويؤيده ويقوبه في دعوته شاهد من ربه هو هذا القرآن الكريم المعجز لسائر
البشر

أفن كان شأنه كمن ليس كذلك ؟

أو افن كان هذا شأنه كمن استحوذ عليه الشيطان فجعله لا يريد إلا الحياة
الدنيا وزينتها ؟ كلا لئلا لا يستويان .

وشهادة القرآن الكريم بصدق الرسول - صلى الله عليه وسلم - في دعوته ،
تجلى في إعجازه ، فقد تحدى النبي - صلى الله عليه وسلم - أعداءه أن باتوا بسورة
من مثله فمجزوا مع فصاحتهم وبلاغتهم ، فثبت بذلك أن هذا القرآن من عند
الله - تعالى - .

ولئنما جعلنا هذا القول أقرب الأقوال إلى الصواب ، لأنه هو الذي يتسق
مع ما يفيدته ظاهراً الآية الكريمة ، ولأننا عندما نقرأ هذه السورة الكريمة
وغيرها ، نجد أن الرسل الكرام كثيراً ما يؤكدون لأقوامهم - أنهم - أي الرسل -
على بينة من ربهم .

فهذا نوح - عليه السلام - يقول لقومه : « يا قوم أرأيتم إن كنت على
بينة من ربي وآتاني رحمة من عنده فعميت عليكم أنلزمكموها وأنتم لها
كارهون » .

وهذا صالح - عليه السلام - يقول لقومه : « يا قوم أرأيتم إن كنت على
بينة من ربي وآتاني منه رحمة ، فمن ينصرني من الله إن عصيته »

وهذا شعيب - عليه السلام - يقول لقومه : يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي ، ورزقني منه رزقا حسنا . . . ،

وهكذا نجد كل فني يؤكد لقومه أنه جاءهم على بينة من ربه ، وما دام الأمر كذلك ، فسيذنا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - هو أفضل من جاء قومه على بينة من ربه ، والمؤمنون به - صلى الله عليه وسلم - يقتدون به في ذلك .

ويرى بعضهم أن المراد بالبينة القرآن الكريم ، وبالشاهد إعجازه ، وبالموصول مؤمنو أهل الكتاب ، وأن الضميرين في قوله : ويتلوه - ومنه ، يعودان إلى القرآن الكريم وإعجازه .

وعلى هذا الرأي يكون المعنى : أفن كان على برهان من ربه يدل على حقيقة الإسلام وهو القرآن ، ويؤيده ويقويه - أي القرآن - شاهد منه على كونه من عند الله وهذا الشاهد هو إعجازه للبشر عن أن يأتوا بسورة من مثله .

قال الألوسي ما ملخصه : قوله : أفن كان على بينة من ربه ، : أصل البينة الدلالة الواضحة عقلية كانت أو محسوسة ، وتطلق على الدليل مطلقا . والتنوين فيها للتعظيم ، أي : بينة عظيمة الشأن والمراد بها القرآن ، وباعتبار ذلك أو البرهان جاء الضمير الراجع إليها في قوله : ويتلوه ، مذكرا ، وقرله ، ويتلوه ، أي يتبعه ، شاهد ، عظيم يشهد بكونه من عند الله ، وهو إعجازه . . .

ومعنى كون ذلك الشاهد تابعا له ، أنه وصف له لا ينفك عنه . . . وكذا الضمير في : منه ، - يعود إلى القرآن - ، وهو متعلق بمحذوف وقع صفته لشاهد ، ومعنى كونه منه أنه غير خارج عنه . . . ، (١)

ومن المفسرين من يرى أن المراد بالبينة القرآن الكريم - أيضا - ويرى أن المراد بالشاهد جبريل - عليه السلام - وأن قوله - سبحانه - : ويتلوه ، من التلاوة بمعنى القراءة لأن التلو بمعنى الاتباع .

وعلى هذا الرأي يكون المعنى : أفن كان على برهان جلي من ربه يدل على

حقيقة الإسلام وهو القرآن ، ويتلو هذا القرآن على الرسول - صلى الله عليه وسلم - شاهد من الله - تعالى - هو جبريل - عليه السلام -

فالضمير في « ويتلوه » على هذا الرأي يعود إلى جبريل - عليه السلام - وفي « منه » يعود على الله - تعالى - .

وهناك أقوال أخرى في تفسير الآية الكريمة ، رأينا من الخير أن نضرب عنها صفحا لنضيفها (١) .

وقوله « ومن قبله كتاب موسى إماما ورحمة » دليل آخر على صدق النبي - صلى الله عليه وسلم - في دعوته . وهو معطوف على شاهد ، والضمير في قول « ومن قبله ... » يعود على شاهد - أيضا - .

وقوله « إماما ورحمة » منصوبان على الحالية من قوله « كتاب » .

والمعنى : ومن قبل هذا الشاهد على صدق الرسول - صلى الله عليه وسلم وهو القرآن الكريم ، أنزل الله الله - تعالى - على موسى كتابه التوراة ، مشتملا على صفات الرسول - صلى الله عليه وسلم - وإماما ، يؤتم به في أمور الدين والدنيا ، و « رحمة » ابني إسرائيل من العذاب إذا ما آمنوا به واتبعوا تعاليمه قال الشوكاني : وإنما قدم الشاهد على كتاب موسى مع كونه متأخرا الوجود ، لكونه - أي الشاهد - بمعنى المعجز - وصفا لازما غير مفارق ، فكأن أغرق في الوصفية من كتاب موسى .

وهي شهادة كتاب موسى وهو التوراة ، أنه بشر بمحمد - صلى الله عليه وسلم - وأخبر بأنه رسول الله - تعالى - ، (٢) .

وليس للإشارة في قوله « أولئك يؤمنون به » ، يعود إلى المصوفين بأثر على يئنة من ربهم وعم النبي - صلى الله عليه وسلم - وأتباعه المؤمنون الصادقون

(١) راجع تفسير الآلوسي ج ١٢ ص ٢٥ .

(٢) تفسير فتح القدير للشوكاني ج ٢ ص ٤٨٨ .

أى : أولئك الموصوفون بأنهم على بينة من ربهم ، يؤمنون بأن الإسلام الدين الحق ، وبأن رسوله - صلى الله عليه وسلم - رسول صدق ، وبأن آن من عند الله - تعالى - وحده .

فالضمير فى قوله : به ، يعود على كل ما جاء به الرسول - صلى الله عليه وسلم - من عند ربه ، ويدخل فى ذلك دخولا أوليا القرآن الكريم . وقوله : : ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده ، بيان أسوء عاقبة كفرين بما جاء به الرسول - صلى الله عليه وسلم - بعد بيان حسن عاقبة منين به .

الأحزاب جمع حزب وهم الذين تحزبوا وتجمعوا من أهل مكة وغيرهم بة الرسول - صلى الله عليه وسلم - ودعوته . أى : ومن يكفر بهذا القرآن وبما جاء به الرسول - صلى الله عليه وسلم - هدايات ، فإن نار جهنم هى المسكان الذى ينتظره ، وينتظر كل متحزب دعوته - صلى الله عليه وسلم - .

وفى جعل النار موعدا لهذا الكافر بالقرآن ، إشعار بأن فيها مالا يحيط به سف من ألوان العذاب ، الذى يجعله لا يموت فيها ولا يحيا .

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بالحض على النظر الصحيح الذى يؤدى اليقين بأن ما جاء به الرسول - صلى الله عليه وسلم - هو الحق الذى لا يشوبه . فقال - تعالى - : : فلا تك فى مريبة منه لأنه الحق من ربك ولكن أكثر من لا يؤمنون ، .

أى : فلا تك - أيها العاقل - فى شك من أن هذا القرآن من عند الله ، أن ما جاء به الرسول - صلى الله عليه وسلم - هو الصدق ، بل عليك أن تعتقدا جازما فى صحة ذلك ، لأن ما جاء به - صلى الله عليه وسلم - هو الثابت من عند ربك ، ولكن أكثر الناس لا يؤمنون بذلك ، لانطماس ثرم . ولتقليدهم لآبائهم ، ولإيثارهم الغنى على الرشيد .

وبذلك نرى الآية الكريمة قد ميزت بين من كان على الحق ومن كان على الباطل ، وسأقت حشودا من الأدلة المدالة على صدق الرسول - صلى الله عليه وسلم - في دعوته ، وعلى صحة ما عليه أتباعه ، وأمرتهم بالثبات على الحق الذي آمنوا به ، وتوعدت المتحزبين ضد دعوة الإسلام بفارجهنم التي هي بنس القرار .

هذا ، وهذه الآية الكريمة هي من الآيات التي قيل بأنها مدنية ، وبها اجعتنا لتفسيرها لم نجد ما يؤيد ذلك ، بل الذي نراه أن السورة كلها مكية كما سبق أن أشرنا إلى ذلك في المقدمة .

ثم وصف - سبحانه - الكافرين بالإسلام ببضعة عشر وصفا . وبين سوء مصيرهم ، كما بين حسن عاقبة المؤمنين ، وضرب مثلا لحال الفريقين فقال - تعالى - .

« وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ، أُولَئِكَ يِعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ ، أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ (١٨) الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ، وَمِمَّنْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ (١٩) أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ يَضَاعِفُ لَهُمْ الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ (٢٠) أُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٢١) لَا جَرَمَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْخَاسِرُونَ (٢٢) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٣) مِثْلُ النُّعْرِيقِ كَالْأَعْنَى وَالْأَصَمُّ وَالْبَصِيرُ وَالسَّمِيعُ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مِثْلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٢٤) » .

قال الإمام الرازي : اعلم أن المكفار كانت لهم عادات كثيرة ، وطرق مختلفة ، فمنها شدة حرصهم على الدنيا ، ورغبتهم في تحصيلها ، وقد أبطل الله - تعالى - هذه الطريقه بقوله : « من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها ... إلى آخر الآية . ومنها أنهم كانوا ينكرون نبوة الرسول - صلى الله عليه وسلم - ويقدمون في معجزاته ، وقد أبطل الله - تعالى - ذلك بقوله : « أفن كان على بينة من ربه »

ومنها أنهم كانوا يزعمون في الأصنام أنها شفعاؤهم عند الله ، وقد أبطل الله - تعالى - ذلك بهذه الآيات وذلك لأن هذا الكلام افتراء على الله ... (١) . وجملة « ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا ... » معطوفة على قوله - تعالى - قبل ذلك « ومن يكفر به من الأحزاب بالغفار موعده . »

والاستفهام للإنكار والنفي ، والتقدير : لا أحد أشد ظلما ممن تعمد الكذب على الله - تعالى - بأن زعم بأن الأصنام تشفع لها بديها عنده ، أو زعم بأن الملائكة بنات الله ، أو أن هذا القرآن ليس من عنده - سبحانه - .

وقوله : « أولئك يعرضون على ربهم ويقول الأشهاد هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألا لعنة على الظالمين » بيان لما يقال لهؤلاء الظالمين على سبيل التشهير والتوبيخ يوم القيامة والأشهاد : جمع شهيد كشریف وأشراف . أو جمع أهد بمعنى حاضر كصاحب وأصحاب والمراد بهم - على الراجح - جميع أهل الموقف من الملائكة الذين كانوا يسجلون عليهم أقوالهم وأعمالهم ، ومن الأنبياء والمؤمنين .

والمعنى : أولئك الموصوفون بافتراء الكذب على الله تعالى - يعرضون يوم الحساب « على ربهم » ، ومالك أمرهم ، كما يعرض المجرم للقصاص منه ، ولفضيحتة أمام الناس .

(١) تفسير الفخر الرازي ج ١٧ ص ٢٠٣ طبعة عبد الرحمن محمد .

« ويقرون الأَشهاد ، الذين يشهدون عليهم بأنهم قد افتروا الكذب على الله
« هؤلاء ، المجرمون هم » الذين كذبوا على ربهم ، بأن نسبوا إليه ما هو
منزه عنه .

« ألا لعنة الله على الظالمين » الذين وضعوا الأمور في غير مواضعها ،
فاوردوا أنفسهم المهلك .

وجيء باسم الإشارة « هؤلاء » زيادة في التشنيع عليهم ، وفي تمييزهم عن غيرهم
وصدحت جملة « ألا لعنة الله على الظالمين » بأداة الاستفتاح « ألا » لتأكيد
الدعاء عليهم بالطرد والإبعاد عن رحمة الله - تعالى - بسبب افتراءهم الكذب .

والظاهر أن هذه الجملة من كلام الأَشهاد . ويؤيد ذلك ما أخرجه الشيخان
عن صفوان بن محرز قال : كنت آخذاً بيد ابن عمر ، إذ عرض له رجل فقال :
كيف سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول في النجوى يوم القيامة ؟
قال : سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول : إن الله - عز وجل -
يذني المؤمن فيضع عليه كنفه - أي ستره وعضده - ويستره من الناس ويقرره
ويقول له : أتعرف ذنب كذا ؟ أتعرف ذنب كذا ؟ حتى إذا قرره بذنوبه ،
ورأى في نفسه أنه قد هلك قال : فإني قد سترتها عليك في الدنيا ، وإني أغفرها
لك اليوم ، ثم يعطى كتاب حسناته ، وأما الكفار والمنافقون فيقول الأَشهاد
هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألا لعنة الله على الظالمين ، (١) .

ويجوز أن تكون هذه الجملة من كلام الله - تعالى - على سبيل الاستئناف
بعد أن قال الأَشهاد « هؤلاء الذين كذبوا على ربهم » .

ثم بين - سبحانه - جانباً آخر من أفعالهم الشنيعة فقال : « الذين
يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجاً ... »

و « يصدون » من يصد بمعنى صرف الغير عن الشيء ومنعه منه . يقال صد
يصد صدوداً وصدداً .

و « سبيل الله » طريقه الموصلة إلى رضائه . والمراد بها ملة الإسلام .
و « يشرقونها عوجا » أى يطلبون لها العوج . يقال . بنيت لقفلان كذا إذا طلبته له .

والعوج - بكسر العين - الميل والزيغ في الدين والقول والعمل . وكل ما خرج عن طريق الهدى إلى طريق الضلال فهو عوج .

والعوج - بفتح العين - يكون في المحسوسات كالميل في الحائط والرمح ، وما يشبههما . أى أن مكسور العين يكون في المعاني ومفتوحها يكون في المحسوس والمعنى : ألا لعنة الله وخزيه على الظالمين ، الذين من صفاتهم أنهم لا يكتفون بانصرافهم عن الحق ، بل يحاولون صرف غيرهم ويطلبون لملة الإسلام العوج ويصفونها بذلك تنفيرا للناس منها . وقوله « عوجا » مفعول ثان ليبنفون ، أو حال من سبيل الله .

وقوله « وهم بالآخرة هم كافرون » بيان لعقيدتهم الباطلة في شأن البعث والحساب .

أى : وهم بالآخرة وما فيها من حساب وثواب وعقاب كافرون .
وكرر الضمير « هم » لتأكيد كفرهم . والإشارة إلى أنهم بلغوا فيه مبلغا لم يبلغه أحد سواهم ، حتى لسكان كفر غيرهم يسير بالنسبة لكفرهم .
ثم بين - سبحانه - أنه كان قادرا على تعذيبهم في الدنيا قبل الآخرة ، ولكنه أقر عذابهم لملاء لهم ، فقال : « أولئك لم يكونوا معجزين في الأرض وما كان لهم من دون الله من أولياء يضاعف لهم العذاب ... »
وقوله : معجزين من الإعجاز بمعنى عدم المقدرة على الشئ .

أى : أولئك الذين افتروا على الله الكذب ، لم يكن - سبحانه - عاجزا عن إنزال العذاب الشديد بهم في الدنيا . وما كان لهم من غيره من نصراء ينصرونهم من بأسه لو أراد إهلاكهم .

قال الإمام الرازى : قال الواحدى : معنى الإعجاز المنع من تحصيل المرام يقال أعجزنى فلان ، أى : منعتنى عن مرادى ...

والمقصود أن قوله : أولئك لم يكونوا معجزين في الأرض ، دل على أنه لا قدرة لهم على الفرار .

وقوله : وما كان لهم من دون الله من أولياء ، دل على أن أحدا لا يقدر على تخليصهم من عذابه . فجمع - سبحانه - بين ما يرجع إليهم وبين ما يرجع إلى غيرهم ، ووضح بذلك انقطاع حبلهم في الخلاص من عذاب الدنيا والآخرة ، (١) .

وقوله : يضاعف لهم العذاب ، جملة مستأنفة لبيان أن من حكمة تأخير العذاب عنهم في الدنيا ، مضاعفة العذاب لهم في الآخرة .

وقوله : ما كانوا يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون ، تصوير بليغ لاستحواذ الشيطان عليهم .

أي أن هؤلاء المجرمين بلغ بهم الجهل والعناد والجحود ، أنهم ما كانوا يستطيعون السماع للحق الذي جاءهم من ربهم لثقله على نفوسهم الفاسدة ، وما كانوا يبصرون المعجزات الدالة على صدق نبهم - صلى الله عليه وسلم - .

فليس المراد في السماع والإبصار الحسيين عنهم ، وإنما المراد أنهم لم يفتقدوا بصرهم صاروا كمن لا يسمع ولا يرى .

ثم أكد - سبحانه - سوء مصيرهم فقال : أولئك الذين خسروا أنفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون ، .

أي : أولئك الذين استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله ، هم الذين خسروا أنفسهم وأوردوها المهالك بسبب تعمد الكذب على الله ، وضل عنهم ، أي : وغاب عنهم ما كانوا يفترونه في الدنيا من اعتقادات باطلة ، وإدعاءات فاسدة .

وقوله : لا جرم أنهم في الآخرة هم الآخسرون ، زيادة في تأكيد خسرتهم

وكلة ، لا جرم ، وردت في القرآن الكريم في خمسة مواضع . وفي كل موضع جاءت متلوة بألف واسمها .

وجمهور النحاة على أن هذه الكلمة مركبة من « لا » و « جرم » تركيب خمسة عشر . ومعناها بعد هذا التركيب معنى الفعل حق أو ثبت ، والجملة بعدها هي الفاعل لهذا الفعل .

أى : وثبت كونهم في الآخرة هم الأخسرون .

ومن النحاة من يرى أن « لا » تافيه للجنس ، و « جرم » اسمها ، وما بعدها خبرها .

والمعنى : لا محالة ولا شك في أنهم في الآخرة هم الأخسرون .

ثم بين - سبحانه - حسن عاقبة المؤمنين بعد بيان سوء عاقبة الكافرين فقال - تعالى - : « إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأخبتوا إلى ربهم ، أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون » .

قال الجمل : والاختبات في اللغة هو الخشوع والخضوع وطمأنينة القلب . ولفظ الاختبات يتعدى إلى وباللام . فإذا قلت أخبت فلان إلى كذا فعناه اطمأن إليه . وإذا قلت أخبت له فعناه : خضع وخضع له . فقوله : « إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، إشارة إلى جميع أعمال الجوارح . وقوله : « وأخبتوا إلى ربهم » ، إشارة إلى أعمال القلوب ، وهي الخشوع والخضوع لله - تعالى - ، (١) .

والمعنى : إن الذين آمنوا بالله - تعالى - إيماناً حقاً ، وعملوا الأعمال الصالحات التي ترضيه - سبحانه - واطمأنوا إلى قضاء ربهم وخشعوا له ، أولئك الموصوفون بذلك ، هم أصحاب الجنة وهم الخالدون فيها خلوداً أبدياً وهم الذين رضى الله عنهم ورضوا عنه .

(١) حاشية الجمل على الجلالين ج ٢ ص ٣٨٩ .

م ضرب - سبحانه - مثلاً لفريق الكافرين ولفريق المؤمنين فقال :
مثل الفريقين كالأعمى والأصم والبصير والسميع هل يستويان مثلاً أفلا
تذكرون . .

وقوله : « مثل الفريقين . . . » أى : حالهم وصفتهم .
وأصل المثل بمعنى المثل . والمثل : النظير والشبيه ، ثم أطلق على القول
سائر المعروف للمائلة مضربه - وهو الذى يضرب منه - ، لمورده - أى
لذى ورد فيه أولاً .

ولا يكون إلا فيما فيه غرابة . ثم استعير للصفة أو الحال أو القصة إذا
كان لها شأن عجيب وفيها غرابة .

وإنما تضرب الأمثال لإيضاح المعنى الخفى ، وتقريب المعقول من
لمحسوس ، وعرض الغائب فى صورة الشاهد ، فيكون المعنى الذى ضرب له
لمثل أوقع فى القلوب ، وأثبت فى النفوس .

والمعنى : حال الفريقين المذكورين قبل ذلك وهما الكافرون والمؤمنون
كحال الضدين المختلفين كل الاختلاف .

أما الكافرون فحالهم وصفتهم كحال وصفة من جمع بين العمى والصمم .
لأنهم مع كونهم يرون ويسمعون . لكنهم لم ينتفعوا بذلك ، فصاروا
كالفاقد لها .

وأما المؤمنون فحالهم وصفتهم كحال وصفة من جمع بين البصر السليم ،
والسمع الواعى ، لأنهم انتفعوا بما رأوا من دلائل تدل على وحدانية الله
بقدرته ، وبما سمعوا من توجيهات تدل على صحة تعاليم الإسلام .

والمقصود من هذا التمثيل . تنبيه الكافرين إلى ما هم عليه من ضلال
جهالة ، لحلمهم بهذا التنبيه يتداركون أمرهم . فيدخلون فى دين الإسلام ،
تثبت المؤمنين على ما هم عليه من حق ، وبذلك يزدادون إيماناً على إيمانهم .

والاستفهام في قوله : من يستويان مثلاً ، للانكار والنص . أي هل يستوي في الصفة والحال من كان ذا سمع وبصر بمن فقدهما ؟ كلا إنهما لا يستويان حتى عند أقل العقلاء عقلاً .

وقوله : ، أفلا تذكرون ، حض على التذكر والتدبر والتفكير .
أي : أنشكون في عدم استواء الفريقين ؟ لا إن الشك في عدم استوائهما لا يليق بمعاقل ، وإنما اللائق به هو اعتقاد تباين صفتيهما ، والدخول في صفوف المؤمنين الذين عملوا الأعمال الصالحات وأحسنوا إلى ربهم .

وبذلك نرى أن هذه الآيات الكريمة قد بينت حال الكافرين ، وذكرت من أوصائهم أربعة عشر وصفاً ، أولها : إفتراء الكذب... وآخرها : الخسران في الآخرة . كما بينت حال المؤمنين وبشرتهم بالخلود في الجنة ، ثم ضربت مثلاً لكل فريق وشبهت حاله بما يناسبه من صفات . .

وفي ذلك ما فيه من الهداية إلى الطريق المستقيم ، لمن كان له قلب ، أو ألقى السمع وهو شهيد .

وبعد هذا الحديث المتنوع عن مظاهر قدرة الله ووحدايته ، وعن إعجاز القرآن الكريم ، وعن حسن عاقبة المؤمنين وسوء عاقبة المكذبين ، سأقت السورة الكريمة بترتيب حكيم ، قصص بعض الأنبياء مع أقوامهم ، وقد استغرق هذا القصص معظم الآيات الباقية فيها ، فقد حدثتنا عن قصة نوح مع قومه ، وعن قصة هود مع قومه ، وعن قصة صالح مع قومه ، وعن قصة لوط مع قومه ، وعن قصة شعيب مع قومه ، كما تحدثت عن قصة إبراهيم مع رسل الله الذين جاءوا بالبشرى ، وعن جانب من قصة موسى مع فرعون .

قال الإمام الرازي : اعلم أنه - تعالى - لما ذكر في تقرير المبدأ والمعاد دلائل ظاهرة ، وبينات قاهرة ، وبراهين باهرة ، أتبعها بذكر قصص الأنبياء وفيه فوائد :

أحدها : التنبيه على أن إعراض الناس عن قبول هذه الدلائل والبيانات

ليس من خواص قوم النبي - صلى الله عليه وسلم - ، بل هذه "عادة الذمومة" كانت حاصلة في جميع الأمم السالفة ، والمصيبة إذا عمت خفت . فكان ذكر قصصهم ، وحكاية إصرارهم وعنادهم ، يفيد تسليّة للنبي - صلى الله عليه وسلم - وتخفيف ذلك على قلبه ،

وثانيها : أنه - تعالى - يحكى في هذه القصص أن عاقبة أمر أولئك المنكرين كان إلى اللعن في الدنيا والخسارة في الآخرة . وعاقبة أمر المحقين إلى الدولة في الدنيا ، والسعادة في الآخرة ، وذلك يقوى قلوب المحقين ، ويكسر قلوب المبطلين . وثالثها : التنبيه على أنه - تعالى - وإن كان يميل هؤلاء المبطلين ، ولكنه لا يهملهم ، بل ينتقم منهم على أكمل الوجوه .

ورابعها : بيان أن هذه القصص دالة على نبوة النبي - صلى الله عليه وسلم - لأنه كان أنبياء ، وما طالع كتاباً ولا نتملذ على أستاذ ، فإذا ذكر هذه القصص على هذا الوجه من غير تحريف ولا خطأ ، دل ذلك على أنه إنما عرفها بالوحى من الله - تعالى - (١) .

وقد بدأت السورة الكريمة قصصها بقصة نوح مع قومه ، وقد وردت هذه القصة في سور متعددة منها سورة الأعراف ، وسورة المؤمنين ، وسورة نوح ... إلا أنها وردت هنا بصورة أكثر تفصيلاً من غيرها .

« وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٢٤) أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمِ الْيَمِّ (٢٥) فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا ، وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِإِدْنِنَا بِإِذِي الرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ ، بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ (٢٦) » .

وقوله : « ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه . . . » جواب لقسم محذوف . أى :
وانته لقد أرسلنا نوحا إلى قومه . والدليل على هذا القسم وجود لامه في بدء الجملة .
وافتحت القصة بصيغة القسم ، لأن المخاطبين بها لما لم يحذروا ما نزل بقوم
نوح بسبب كفرهم ، نزلوا منزلة المنكر لرسالته .

وينتهى نسب نوح — عليه السلام — إلى شيث بن آدم — عليه السلام — .
وقد ذكر نوح في القرآن في ثلاث وأربعين موضعا .

وقوم الرجل : هم أقرباؤه الذين يجتمعون معه في جد واحد . وقد يقيم
الرجل بين الأجانب فيسميهم قومه مجازا للمجاورة .
وكان قوم نوح يعبدون الأصنام . فأرسل الله إليهم نوحا ليدلهم على
طريق الرشاد .

قل ابن كثير : قال ابن عباس وغير واحد من علماء التفسير : كان أول
ما عبدت الأصنام أن قرما صالحين ماتوا . فبنى قومهم عليهم مساجد ، وصوروا
صور أولئك الصالحين فيها ليتذكروا حالهم وعبادتهم فيتشبهوا بهم . فلما طال
الزمان جعلوا أجسادا على تلك الصور ، فلما نمدى الزمان عبدوا تلك الأصنام
وسمواها بأسماء أولئك الصالحين : ودا وسواعا ويغوث ويعوق ونسرا . فلما
تفاقم الأمر بعث الله — تعالى — رسوله نوحا فأمرهم بعبادة الله وحده ، (١) .

وقوله . . . إني لكم نذير مبين . أن لا تعبدوا إلا الله . . . بيان للوظيفة
التي من أجلها أرسل الله — تعالى — نوحا إلى قومه .

قال الشوكاني : قرأ ابن كثير وأبو عمرو والكسائي يفتح الهمزة في « إني »
على تقدير حرف الجر . أى : أرسلناه بأنى . أى : أرسلناه متلبسا بذلك الكلام
وهو إني لكم نذير مبين . وقرأ الباقيون بالمكسر على إرادة القول . أى :
أرسلناه قائلا لهم : إني لكم نذير مبين ، (٢) .

(١) تفسير ابن كثير ج ٣ ص ٢٢٢

(٢) تفسير فتح القدير للشوكاني ج ٢ ص ٢٩٢

وتنذير من الإنذار وهو إخبار معه تخويف . .

ومبين : من الإبانة بمعنى التوضيح والإظهار . .

أى : أرسلناه إلى قومه فقال لهم يا قوم : إني لكم محذر تحذيرا واضحا من موجبات العذاب ، التى تتمثل فى عبادتكم لغير الله - تعالى - .

واقصر على الإنذار ، لأنهم لم يعملوا بما بشرهم به ، وهو الفوز برضا الله - تعالى - . إذا ما أخلصوا له العبادة والطاعة .

وجملة : أن لا تعبدوا إلا الله ، بدل من قوله : إني لكم نذير مبين ، أى : أرسلناه بأن لا تعبدوا إلا الله .

وقوله : إني أخاف عليكم عذاب يوم أليم ، جملة تعليلية ، تبين حرص نوح الشديد على مصلحة قومه ونفعهم .

أى إني أحذركم من عبادة غير الله ، لأن هذه العبادة ستؤدى بكم إلى وقوع العذاب الأليم عليكم ، وما حملنى على هذا التحذير الواضح إلا خوفى عليكم ، وشفقتى بكم ، فأنا منكم وأقم منى بمقتضى القرابة والنسب .

ووصف اليوم بالأليم على سبيل المجاز العقلى ، وهو أبلغ من أن يوصف العذاب بالأليم ، لأن شدة العذاب لما بلغت الغاية والنهاية فى ذلك ؛ جعل الوقت الذى تقع فيه وقتا أليما أى مؤلما .

ثم حكى - سبحانه - ما رد به قوم نوح عليه فقال : فقال الملأ الذين كفروا من قومه ، ما نراك إلا بشرا مثلنا ، وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بآدى الراى ، وما نرى لكم علينا من فضل بل نظنكم كاذبين . .

والمراد بالملأ : أصحاب الجاه والغنى من قوم نوح . وهذا اللفظ اسم جمع لا واحده من لفظه كرهط وهو - كما يقول الآلوسى - : مأخوذ من قولهم فلان مليء بكذا ؛ إذا كان قادرا عليه . . . أو لأنهم متهائون أى متظاهرون متعاونون ، أو لأنهم يملأون القلوب والعيون

ووصفهم بالكفر ، لتسجيل ذلك عليهم من أول الأمر زيادة في ذمهم .
 أى : بعد هذا النصيح الحكيم الذى وجهه نوح - عليه السلام - لقومه ،
 رد عليه أغنياؤهم وسادتهم بقولهم : ما نراك ، يا نوح إلا بشرا مثلنا ، أى :
 إلا إنسانا مثلفا ، ليست فيك منزلة تجعلك مختصا بالنبوة دوننا

فهم - لجهلهم وغبائهم - قوموا أن النبوة لا تنجامع البشرية ، مع أن
 الحكمة تقتضى أن يكون الرسول بشرا من جنس المرسل إليهم ، حتى تتم فائدة
 التفاهم معه ، والاقتران به فى أخلاقه وسلوكه .

وقد حكى القرآن قولهم هذا فى أكثر من موضع ، ومن ذلك قوله - تعالى -
 . وقال الملا من قومه الذين كفروا وكذبوا بلفقاء الآخرة وأترفناهم فى الحياة
 الدنيا ، ما هذا إلا بشر مثلكم يأكل مما تأكلون منه ، ويشرب مما تشربون
 ولئن أطعتم بشرا مثلكم لافكم إذا لحاسرون (١) .

ثم إنهم فى التعليل لعدم اتباع نبيهم لم يكتفوا بقولهم ما نراك
 إلا بشرا مثلفا ؛ بل أضافوا إلى ذلك قولهم : وما نراك اتبعك إلا الذين
 هم أراذلنا بآدى الرأى ، ومرادهم بقولهم : أراذلنا ، أى فقراؤنا ومن
 لا وزن لهم فىنا .

قال الجبل : ولفظ أراذلنا ، فيه وجهان : أحدهما أنه جمع الجمع فهو
 جمع أرذل - بضم الذا ل - جمع رذل - بسكونها - نحو كلب وأكلب
 وأكلب

ثانيهما : أنه جمع مفرد وهو أرذل كأكر وأكابر والأرذل هو
 المرغوب عنه لرداءته ، (٢)

(١) سورة المؤمنون الآية ٢٣ ، ٢٤

(٢) حاشية الجبل على الجلالين ج ٢ ص ٢٩١

ومرادهم بقولهم : بادى الرأى ، أى : أوله من البدء . يقال : بدأ يبدأ إذا فعل الشيء . أولا ، وعليه تكون الياء مبدلة من الهزة لانكسار ما قبلها ، وبؤيده قراءة أبى عمرو : بادى الرأى .

أى : وما نراك اتبعك يانوح إلا الذين هم أقلنا شأنا ، وأحقرا حالا ، من غير أن يتثبتوا من حقيقة أمرك ، ولو تثبتوا وقفوا ما اتبعوك . ويصيح أن يكون مرادهم بقولهم : بادى الرأى ، أى اتبعوك ظاهرا لا باطنا ، ويكون لفظ « بادى » من البدء بمعنى الظهور . يقال : بدأ الشيء يبدو بدواً ومبدؤاً وبداء أى ظهر وعليه يكون المعنى : وما نراك إتبعك يانوح إلا الذين هم أهوننا أمرا ، ومع ذلك فإن إتباعهم لك إنما هو فى ظاهر أمرهم ، أما بواطنهم فهى تدين بهتيدتنا .

وشبهه بهذه الجملة قوله - تعالى - « قالوا أنؤمن لك واتبعك الأرذلون »^(١) قال صاحب الكشف : وإنما استرذلوا المؤمنين لفقرهم وتأخرهم فى الأسباب الدنيوية ، لأنهم أى الملائ من قوم نوح - كانوا جهالا ما كانوا يعلمون إلا ظاهرا من الحياة الدنيا ، فكان الأشرف عندهم من له جاه ومال كما ترى أكثر المتسمين بالإسلام ، يعتقدون ذلك ، ويبنون عليه إكرامهم وإعزازهم ، ولقد زل عنهم أن التقدم فى الدنيا - مع ترك الآخرة - لا يقرب أحدا من الله وإنما يبعده ، ولا يرفعه بل يضعه ، فضلا عن أن يجعله سببا فى الاختيار للنبوة والتأهيل لها »^(٢)

ثم أضافوا إلى مزاعمهم السابقة زعما جديدا فقالوا : وما نرى لكم علينا من فضل بل نظنكم كاذبين ،

والفضل : الزيادة فى الشرف والغنى وغيرهما مما يتميز به الإنسان عن غيره .

(١) سورة الشعراء الآية ١١١

(٢) تفسير الكشف ج ٢ ص ٢٦٥

والمراد به هنا : آثاره التي تدل عليه .

أى : أنت يانوح لست بشرا مثلنا ، وأتباعك هم أحقرنا شأنا ، وما نرى لك ولمتبعيك شئ . من الزيادة علينا لافى العقل ولا غيره ، بل اننا نعتقد أنفسكم كاذبون فى دعواكم أنكم على الحق ، لأن الحق فى نظرنا هو فى عبادة هذه الأصنام التي عبدها من قبلنا آباؤنا .

ومكذا نرى أن الملائ من قوم نوح - عليه السلام - قد عللوا كفرهم بما جاء به بثلاث علل ، أولها : أنه بشر مثلهم ، وثانيها : أن أتباعه من فقرائهم وثالثها : أنه لا مزية له ولا تبعاعه عليهم ...

وهي كلها علل باطلة ، تدل على جهلهم ، وانطمار بصيرتهم ، ويدل على ذلك ، رد نوح - عليه السلام - الذي حكاه القرآن فى قوله - تعالى - :

« قال يا قوم أرأيتم إن كنتُ على بينة من ربي ، وآتاني رحمةً من عندي ، فعميت عليكم أنلزمكموها وأتم لها كارهون (٢٨) ويا قوم لا أسألكم عليه مالا إن أجريَ إلا على الله ، وما أنا بطارِد الذين آمنوا إنهم ملائور ربهم ولسكنى أراكم قوماً تجهلون (٢٩) ويا قوم من ينصرنى من الله إن طردتهم أفلا تذكرون (٣٠) ولا أقول لكم عندى خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول إني ملكٌ ، ولا أقول للذين تزددرى أعينكم أن يؤتيهم الله خيراً ، الله أعلم بما فى أنفسهم إني إذا لمن الظالمين (٣١) » .

أى : قال نوح - عليه السلام - فى رده على الملائ الذين كفروا من قومه : « يا قوم ، أى : يا أهلى وعشيرتى الذين يسرنى ما يسردم ويقولنى ما يؤلمهم . »
« أرأيتم إن كنت على بينة من ربي ، أى : أخبرونى إن كنت على بصيرة من أمرى ، وحجة واضحة من ربي ، بها يتبين الحق من الباطل . »

« وآتاني رحمة عن عنده » أي : ومنحني بفضلله وإحسانه النبوة التي هي طريق الرحمة لمن آمن بها ، واتبع من اختاره الله لها . فالمراد بالرحمة هنا النبوة « فعميت عليكم » أي . فأخفيت عليكم هذه الرحمة ، وغاب عنكم الانتفاع بهداياتها ، لأنكم ممن استجب العمى على الهدى .

يقال : عمى على فلان الأمر : أي أخفى عليه حتى صار بالنسبة إليه كالأعمى قال صاحب المنار : قرأ الجمهور فعميت - بالتخفيف - كخفيت وزنا ومعنى . قال - تعالى - « فعميت عليهم الأنبياء يومئذ فهم لا ينسألون » وقرأ حمزة والكسائي وحفص بالثبوت والبناء المفعول « فعميت » أي : فحجبها عنكم جهلكم وغروركم ...

والتعبير بعميت مخففة ومشددة أبلغ من التعبير بخفيت وأخفيت ، لأنه مأخوذ من العمى المقتضى لأشد أنواع الخفاء (١)

والاستفهام في قوله : « أنزل مكموها وأنتم لها كارهون » للإنكار والنفي . أي : إذا كانت الهداية إلى الخير التي جمعتكم بها قد خفيت عليكم مع وضوحها وجلالتها ، فهل أستطيع أنا وأباي أن نجبركم لإجبارنا ، ونفسركم قسرا على الإيمان بي ، وعلى التصديق بنبوتي ، والحال أنكم كارهون لها نافرون منها . ؟ كلا إنما لا نستطيع ذلك لأن الإيمان الصادق يكون عن اقتناع واختيار لا عن إكراه وإجبار .

قال صاحب الظلال ما ملخصه : واللفظ في القرآن قد يرسم بجرسه صورة كاملة للتناسق "فني بين الألفاظ. ومن أمثلة ذلك قوله - تعالى - في قصة نوح مع قومه « أنزل مكموها ... » فأنت تحس أن كلمة أنزل مكموها تصور جو الإكراه ، بإدماج كل هذه الضمائر في النطق ، وشد بعضها إلى بعض كما يدمج الكارهون مع ما يكرهون ، ويشدون إليه وهم نافرون ، وهكذا يبدو

لون من التناسق في التعبير أعلى من البلاغة الظاهرية ، وأرفع من الفصاحة اللفظية ، (١) .

ثم وجه نوح - عليه السلام - نداء ثانيا إلى قومه زياد في التلطف معهم ، وطمعا في إثارة وجدانهم نحو الحق فقال : « ويا قوم لا أسألكم عليه مالا ، أي : لا أطلب منكم شيئا من المال في مقابل تبليغ ما أمرني ربي بتبليغه إليكم ، لأن طلبى هذا قد يجعلكم تتوهمون أنى محب للمال »

« إن أجرى إلا على الله ، - تعالى - وحده ، فهو الذى يشيئنى على دعوتى إلى عبادتكم له ، وفي هذه الجملة إشارة إلى أنه لا يسأل الله - تعالى - مالا ، وإنما يسأله ثوابا ، إذ ثواب الله يسمى أجرا ، لأنه نزاه على العمل الصالح . وشييه بهذه الآية قوله - تعالى - في سورة الشعراء : « وما أسألكم عليه من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين ، . » جملة « وما أنا بطارد الذين آمنوا ، معطوفة على جملة « لا أسألكم عليه مالا ، لأن مضمونها كالنتيجة لمضمون المعطوف عليها ، إذ أن زهده في ما لهم يقتضى تمسكه باتباعه المؤمنين .

الطرد : الأمر بالبعد عن مكان الحضور تحقيرا أو زجرا .

أي : وما أنا بطارد الذين آمنوا بدعوتى ، سواء أكانوا من الفقراء أم من الأغنياء ، لأن من استغنى عن مال الناس وعطائهم لا يقيسهم بمقياس الغنى والجاه والقوة وإنما يقيسهم بمقياس الإيمان والتقوى .

قال الألوسى : والمروى عن ابن جريج أنهم قالوا له يا نوح ان أحببت أن تتبعك فأطرد هؤلاء الأراذل - وإلا فلن نرضى أن نكون نحن وهم في الأمر سواء وذلك كما قال زعماء قریش للنبي - صلى الله عليه وسلم - شأن فقراء الصحابة : اطرد هؤلاء عن مجلسك ونحن نتركك فإننا نستحي أن نجاس معهم في مجلسك ... (٢)

(١) تفسير في ظلال القرآن ج ١٢ ص ٥٤٢

(٢) تفسير الألوسى ١٢ ص ٣٥

وجملة ، أنهم ملاقوا ربهم ، تعليل لنفي طردهم .

أى : ان أطردهم عن مجلسي أبدا ، لأنهم قد آمنوا بى ، ولأن مصيرهم إلى الله - تعالى - ، فيحاسبهم على سرهم وعلمهم ، أما أنا فأكتفى منهم بظواهرهم التى تدل على صدق إيمانهم ، وشدة إخلاصهم .

وجاءت هذه الجملة بصيغة التأكيد ، لأن الملا الذين كفروا من قومه كانوا ينكرون البعث والحساب . .

وقوله : « ولستكنى أراكم قوما تجهلون » ، إستدراك مؤكدا لمضمون ما قبله ، أى : ان أطردهم ، لأن ذلك ليس من حق بعد أن آمنوا ، وبعد أن تكفل الله بحسابهم . ولستكنى مع هذا البيان المنطوق الواضح ، أراكم قوما تجهلون القيم الحقيقية التى يقدر بها الله ، وتجهلون أن مرد الناس جميعا إليه وحده - سبحانه - ليحاسبهم على أعمالهم ، وتتداولون على المؤمنين تطاولا يدل على طغيانكم وسفاهتكم .

وحذف مفعولون ، لتجهلون ، للعلم به ، والإشارة إلى شدة جهلهم .

أى : تجهلون كل ما ينبغى ألا تجهله عاقل

ثم وجه إليهم نداء ثالثا لعلهم يفيثون إلى رشدهم فقال : « ويا قوم من ينصرنى من الله إن طردهم ، أفلا تذكرون . »

أى : افترضوا يا قوم أنى طردت هؤلاء المؤمنين الفقراء من مجلسي ، فن ذا الذى يحمينى ويحيرنى من عذات الله ، لأنه - سبحانه - ميزانه فى تقيم الناس ليس كميزانكم ، إذ أكرم الناس عنده هو أتقاهم وليس أغناهم ، وهؤلاء المؤمنون الفقراء هم أكرم عنده - سبحانه - منكم ، فكيف أطردهم ؟

والاستفهام فى قوله : « أفلا تذكرون » ، لتوبيخهم وزجرهم . والجملة معطوفة على مقدر .

أى : أنصرون على جهلكم ؛ فلا تنذكرون أن لهم رباً ينصرهم إن طردتهم ؟ إن بقيتم على هذا الإصرار سيكون أمركم فرطاً ، وستعرضون للعذات الآليم الذى يهلككم

ثم أخذ نوح - عليه السلام - فى تفنيد شبهاتهم ، وفى دحض مفترياتهم ، وفى تعريفهم بحقيقة أمره فقال : « ولا أقول لكم عندى خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول لى ملك ... »

والخزائن : جمع خزانة - بكسر الخاء - وهو المكان الذى يخزن فيه المـل أو الطعام أو غيرهما خشية الضياع . والمراد منها هنا : أنواع رزقه - سبحانه - التى يحتاج إليها عباده . وأضيفت إليه - سبحانه - لاختصاصه بها وملكيته لها .

أى : لى لا أقول لكم إن النبوة التى وهبى الله لإياها ، تجعلنى أملك خزائن أرزاقه - سبحانه - فأصير بذلك من الأثرياء ، وأعطى من أشياء بغير حساب ...

كلا لى لا أملك شيئاً من ذلك ، وإنما أنا عبد الله ورسوله ، أرسلنى لأخرجكم من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان .

وهذه الجملة الكريمة رد على قولهم السابق : « وما نرى لكم علينا من فضل ، . وأيضاً لا أقول لكم لى أعلم الغيوب التى اختص الله بعلمها ، فأدعى قدرة ليست للبشر ، أو أزعـم أن لى صلة بالله - تعالى - غير صلة النبوة . أو أدعى الحكم على قلوب الناس وعلى منزلاتهم عند الله ، كما ادعيتـم أنتم فقلتم « وما نراك اتبعك إلا الذين أراذلنا بآدى الراى ... »

وأيضاً فإنى لا أقول لكم لى ملك ، بل أنا بشر مثلكم آكل مما تأكلون منه ، وأشرب مما تشربون منه ، إلا أن الله - تعالى - اختصنى من بينكم بالنبوة ، والبشرية مقتضى للنبوة وليست مانعاً منها - كما تزعمون - حيث قلتم « ما نراك إلا بشراً مثلاً ، .

.. ولم يكثف نوح - عليه السلام - بهذا الرد المبطل لدعاواهم الفاسدة ، بل أضاف إلى ذلك - كما حكى القرآن عنه - « ولا أقول للذين تزدري أعينكم لن يؤتيهم الله خيرا ، الله أعلم بما أنتممهم ، إنى إذا لمن الظالمين » .

وقوله : « تزدري » من الازدراء بمعنى التحقير والانتقاص . يقال : ازدري فلان فلانا إذا احتقره وعابه .

أى : أنا لا أقول لكم بأنى أملك خزائن الله ، أو بأبى أعلم الغيب ، أو بأنى ملك من الملائكة ، ولا أقول لكم - أيضا - فى شأن الذين تنظرون إليهم فظن احتقار واستصغار : إنهم - كما تزعمون - « لن يؤتيهم الله خيرا » ، يسعدهم فى دينهم ودينهم وآخرتهم ، بل أقول لكم إنه - سبحانه - سيؤتيهم ذلك - إذا شاء - ؛ لأنه - سبحانه - هو الأعلم بما فى نفوسهم من خير أو شر . أما أنا فلا علم لى إلا بظواهرهم التى تدل على إيمانهم وإخلاصهم ، وإنى إذن لمن الظالمين ، لنفسى ولغيرى إذا ادعيت آية دعوى من هذه الدعاوى .

قال البيضاوى ما ملخصه . وأسند - سبحانه - الازدراء إلى الآعين فى قوله « تزدري أعينكم » للبالغة والتنبيه على أنهم استزدلوهم بآدى الرؤية - أى بمجرد نظرهم إليهم - من غير روية بسبب ما عاينوه من رثانة حالهم وقلة معالهم . دون تأمل فى معانيهم وكالاتهم ، (١) .

و . الإسناد من باب المجاز العقلى . لأن الازدراء ينشأ عن مشاهدة الصفات الحقيرة وفى نظر الناظر ، فتكون الآعين سببا فى هذا الازدراء .

وأكد جملة « إنى إذن لمن الظالمين » بعدة مؤكدات ، تحقيقا لظلم كل من يدعى شيئا من هذه الدعاوى ، وتمكينا لاولئك الكافرين الذين احتقروا المؤمنين ، وزعموا أن الله - تعالى - لن يؤتيهم خيرا .

وهكذا نجد نوحا - عليه السلام - يشرح لقومه بأسلوب مهذب حكيم حقيقة أمره ، ويرد على شبهاتهم بما يزدقها ...

وعندما وجدوا أنفسهم عاجزين عن الرد على نبيهم بأسلوب مقارعة الحجة بالحجة ، لجأوا - على عادة طبقهم - إلى أسلوب التهديد وقد أخذتهم العزة بالإثم فقالوا - كما حكى القرآن عنهم - :

« قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا ، فَأَتَيْنَا بِمَا تَمِدُّنَا إِنَّكَ كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٣٢) قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنتُمْ بِمُعْجِزِينَ (٣٣) وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ ، إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٣٤) » .

أى : قال قوم نوح - عليه السلام - له بعد أن غلبهم بحجته ، وعجزوا عن الدفاع عن أنفسهم : « يا نوح قد جادلنا فأكثر جدالنا » .

أى : خاسمتنا ونازعتنا فأكثر في ذلك حتى لم تترك لنا منفذا للرد عليك وأجدال هو المفاوضة على سبيل المنازعة والمغالبة ، وأصله - كما يقول الألوسى - من جدلت الحبل إذا أحكمت فتله ، ومنه الجدبل - أى الحبل المفتول - ، وجدلات البناء أحكمته ، والأجدل : الصقر المحكم البنية ، والمجدل - كمنه - هو القصر المحكم البناء

وسميت المنازعة فى رأى جدالا ، لأن كل واحد من المتجادلين كأنما يفتل الآخر عن رأيه - أى يصرفه عنه -

وقيل : الأصل فى الجدال الصراع ، وإسقاط الإنسان صاحبه على الجدالة - بفتح الجيم - أى : الأرض الصلبة ، (١) .

ثم أضافوا إلى هذا العجز عن مجابهة الحجة سفاهة في القول فقالوا : فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين .

أى : لقد سئنا مجادلتك لنا ومللناها ، فأتنا بالعباب الذى تتوعدنا به ، إن كنت من الصادقين فى دعواك النبوة ، وفى وعيدك لنا بعقاب الله ، فإننا مصرون على عبادة آلهتنا ، وكارهون لما تدعونا إليه .

وهذا شأن الجاهل المعاند ، إنه يشهر السيف إذا أعجزته الحجة ، ويعلم التحدى إذا يش عن مواجهة الحق

ولكن نوحا - عليه السلام - لم يخرجه هذا التحدى عن محبته الكريم ، ولم يقعه عناد قومه عن مداومة النصح لهم ، وإرشادهم إلى الحقيقة التى ضلوا عنها ، فقد رد عليهم بقوله : إنما يأتىكم به الله - إن شاء - وما أقم بمعجزين .

أى : إنما يأتىكم بهذا العذاب الذى تستعجلونه الله - تعالى - وحده ، إن شاء ذلك ، لأنه هو الذى يملكه وما أقم بمعجزين ، أى : وما أقم بمستطيعين الهروب من عذابه متى اقتضت مشيئته - سبحانه - إنزاله بكم ، لأنه - تعالى - لا يعجزه شيء .

ثم أضاف إلى هذا الاعتراف بقدره الله - تعالى - اعترافا آخر بشمول إرادته فقال : ولا ينفعكم نصحى إن أردت أن أنصح لكم .

والنصح معناه : تحرى الصلاح والخير للنصوح مع إخلاص النية من شوائب الرياء .

يقال : نصحته ونصحت له . . . أى : أرشدته إلى ما فيه صلاحه .

ويقال : رجل ناصح الجيب إذا كان فقى القلب طاهر السريرة . والناصح الخالص من كل شيء .

أى : لاني قد دعوتكم إلى طاعة الله ليلا ونهارا ، ولم أقصر معكم فى النصيحة

ومع ذلك فإن نصحي الدائم لن يفيدكم شيئاً ، مادامت قلوبكم في عمى عنه ،
وأسماعكم في صمم منه ، وقفوسكم على غير استعداد له .

وجواب الشرط في قوله : إن أردت أن أنصح لكم ، محذوف لدلالة
ما قبله عليه .

وقوله : إن كان الله يريد أن يغويكم هو ربكم وإليه ترجعون : زيادة
تأكيد منه - عليه السلام - لعموم قدرة الله وإرادته .

أي : إن كان الله - تعالى - يريد أن يضلكم عن طريق الحق ، ويصرفكم
عن الدخول فيه ، بسبب إصراركم على الجحود والعناد ، فعل ذلك ، لأنه هو
ربكم ومالك أمركم ، وإليه وحده ترجعون يوم القيامة ، ليجازيكم الجزاء
الذي نستحقونه .

وهكذا نجد نوحاً - عليه السلام - قد سلك في دعوته إلى الله ، أحكم
السبل ، واستعمل أبلاغ الأساليب ، وصبر على سفاهة قومه صبراً جميلاً .

وعند هذا الحد من قصة نوح مع قومه ، تنتقل السورة الكريمة انتقالاً
سريعاً بقارئها إلى الحديث عن مشركي مكة ، الذين أنكروا أن يكون القرآن
من عند الله ، ووقفوا من نبيهم - صلى الله عليه وسلم - موقفاً يشبه موقف
قوم نوح منه - عليه السلام - ، فترد عليهم بقوله - تعالى - :

« أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَىٰ إِجْرَامِي ، وَأَنَا بَرِيءٌ
مِّمَّا يُجْرِمُونَ (٣٥) » .

وأم هنا منقطعة بمعنى بل التي للإضراب ، وهو انتقال المتكلم من غرض
إلى آخر .

والافتراء : الكذب المتعمد الذي لا توجد أدنى شبهة لقائله .

والإجرام : اكتساب الجرم وهو الشيء القبيح الذي يستحق فاعله العقاب .

يقال : أجرم فلان وجرم واجترم ، بمعنى اقترف الذنب الموجب للعقوبة والمفسرين في معنى هذه الآية اتجاهان :

الاتجاه الأول يرى أصحابه : أنها معترضة بين أجزاء قصة نوح مع قومه ، وأنها في شأن مشركي مكة الذين أنكروا أن يكون القرآن من عند الله .

وعليه يكون المعنى : لقد سقنا لك يا محمد من أخبار لسابقين ما هو الحق الذي لا يحرم حوله باطل ، ولسكن المشركين من قومك لم يعتبروا بذلك ، بل يقولون إنك قد افتريت هذا القرآن ، قل لهم : إن كنت قد افتريته - على سبيل الفرض - فعلى وحدي تقع عقوبة لإجرامي وافترائي الكذب ، وأنا يرى من عقوبة لإجرامكم وافترائكم الكذب .

أما الاتجاه الثاني فيرى أصحابه أن الآية الكريمة ليست معترضة ، وإنما هي من قصة نوح عليه السلام - وعليه يكون المعنى : بل أيقول قوم نوح إن نوحا - عليه السلام - قد افترى واختلق ما جاء به من عند نفسه ثم نسبته إلى الله - تعالى - ، قل لهم إن كنت قد افتريته فعلى سوء عاقبة لإجرامي وكذبي ، وأنا يرى مما افترفته من منكرات ، وما تكتسبونه من ذنوب .

ويبدو لنا أن الاتجاه الأول أرجح ، لأن التعبير عن إنكارهم بيقولون ، وعن الرد عليهم بقل ، الدالين على الحال والاستقبال ، يقوى أن الآية الكريمة في شأن مشركي مكة .

وقد اقتصر الإمام ابن جرير على الاتجاه الأول ، ولم يذكر شيئا عن الاتجاه الثاني مما يدل على ترجيحه للاتجاه الأول فقال ماملخصه : يقول - تعالى - ذكره : أيقول يا محمد هؤلاء المشركون من قومك ، افترى محمد ههنا القرآن وهذا الخبر عن نوح ، قل لهم : إن افتريته فتخرضته واختلقته فعلى

لأثمي في افترائي ما افتريت على ربي دونكم... وأنا بريء مما تذبذبت
وتأثمون في حقى وحق ربكم... (١).

وإلى هنا نرى الآيات السريمة قد حكّت لنا جانباً من مجادلة قوم نوح له،
ومن تطاولهم عليه، ومن تحديهم لدعوته، كما حكّت لنا رده عليهم بأصلوب
حكيم، جعلهم يعجزون عن مجابته فاذا كان من شأنه وشأنهم بعد ذلك ؟

• • •

لقد تابعت السورة السريمة حديثها عن هذه القصة، فبينت بعد ذلك قضاء
الله العادل في هؤلاء الظالمين، حيث حكّت لنا ما أوحاه الله إلى نوح - عليه
السلام - في شأنهم، وما أمره بصنعه... فقال - تعالى - :

« وَأَوْحَى إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ ،
فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٣٦) وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا
تَخَاطَبُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا ، إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ (٣٧) وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكَلَّمَا مَرَّ
عَلَيْهِ مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا
تَسْخَرُونَ (٣٨) فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ
عَذَابٌ مُقِيمٌ (٣٩) » .

وقوله - سبحانه - : (وَأَوْحَى إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ
قَدْ آمَنَ) معطوف على قوله (قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا ...) .
أي : بعد أن لجّ قوم نوح في طغيانهم ، وصموا آذانهم عن سماع دعوته ..
أوحى الله - تعالى - إلى نوح بأن يكتفى بمن معه من المؤمنين ، فإنه لم يبق
في قومه من يتوقع إيمانه بعد الآن ، وبعد أن مكث فيهم زمناً طويلاً يدعوهم
إلى الدخول في الدين الحق ، فلم يزدحم دعاه إلا فرارا ..

وقوله : « فلا تبتئس بما كانوا يفعلون » ، تسليية له - عليه السلام - عما أصابه منهم من أذى .

والابتئاس : الحزن . يقال : ابتأس فلان بالأمس ، إذا بلغه ما يكرهه ويغمه . والابتئس : الكاره الحزن في استمكانة .

أى : « فلا تحزن بسبب إصرارهم على كفرهم ، وتماديهم في سفاهاتهم وطغيانهم . فقد آن الأوان للانتقام منهم .

قال الإمام ابن كثير : يخبر الله - تعالى - في هذه الآية ، أنه أوحى إلى نوح لما استعجل قومه نعمة الله بهم ، وعذابه لهم ، فدعا عليهم نوح دعوته وهي « رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا » ، فعند ذلك أوحى الله - تعالى - إليه « أنه إن يؤمن من قومك إلا من قد آمن » ، فلا تحزن عليهم ، ولا يهملك أمرهم ، (١) .

وقوله : « واصنع الفلك بأعيننا ووحينا ... » ، معطوف على قوله .. فلا تبتئس

والفلك : ما عظم من السفن . ويستعمل هذا اللفظ للواحد والجمع ، والمراد به هنا سفينة واحدة عظيمة قام بصنعها نوح - عليه السلام - .
والباء في قوله « بأعيننا » ، للبابسة ، والجار والمجرور في موضع الحال من ضمير اصنع .

أى : « واصنع الفلك يا نوح « حالة كونك بمرأى منا ، وتحت رعايتنا وتوجيهنا وإرشادنا عن طريق وحينا » .

وقوله - سبحانه - « ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم مغرقون » ، نهى له عن المراجعة بشأنهم .

أى : « ولا تخاطبني يا نوح في شأن هؤلاء الظالمين ، بأن ترجوني في رحمتهم أو في دفع العذاب عنهم » ، فقد صدر قضائي بإغراقهم ولا راد لقضائي .

(١) تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٢٥٢ طبعة دار الشعب .

وقوله - تعالى - ، ويصنع الفلك ، بيان لامثال نوح لأمر ربه .
وجاء التعبير بالفعل المضارع مع أن الصنع كان في الماضي ؛ استحضارا
لصورة الصنع ، حتى لكان نوحا - عليه السلام - يشاهد الآن وهو يصنعها .
ثم بين - سبحانه - موقف قومه منه وهو يصنعها وقال : « وكلما مر عليه
ملا من قومه سخرها منه » .

والسخرية : الاستهزاء . يقال : سخر فلان من فلان وسخر به ، إذا
استخف به وضحك منه .

أي : امثال نوح لأمر ربه ، فطفق يصنع الفلك ، فكان الكافرون من
قومه كلما مروا به وهو يصنعها استهزءوا به ، وتعجبوا من حاله ، وقالوا له على
سبيل التهمك به ، يا نوح صرت نجارا بعد أن كنت نبيا ، كما جاء في بعض الآثار .
وهنا يرد عليهم نوح بقوله : « إن تسخروا منا فإننا نسخر منكم كما تسخرون » .
أي قال نوح لهم : « إن تسخروا مني ومن أتباعي اليوم لصنعنا السفينة ،
وتستهزلوا منا هذا العمل ، فإننا سنسخر منكم في الوقت القريب سخرية محققة
في مقابل سخريتكم الباطلة » .

قال الإمام الرازي : وقوله « إن تسخروا منا فإننا نسخر منكم كما تسخرون »
فيه وجوه :

الأول : التقدير : « إن تسخروا منا في هذه الساعة فإننا نسخر منكم سخرية
مثل سخريتكم إذا وقع عليكم الفرق في الدنيا والخزي في الآخرة » .

الثاني : « إن حكتم علينا بالجهل فيما نصنع فإننا نحكم عليكم بالجهل فيما أنتم
عليه من الكفر والتعرض لسخط الله وعذابه ، فأنتم أولى بالسخرية منا » .

الثالث : « إن تستجهلوننا فإننا نستجهلكم ، وتستجهلكم أقبح وأشد ،
لأنكم لا تستجهلون إلا لأجل الجهل بحقيقة الأمر ، والاعتراض بظاهر الحال ،
كما هو عادة الأطفال » (١) .

ثم أضاف نوح - عليه السلام - إلى تهديدهم تهريدا آخر فقال : فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب مقيم ، .
أى : فسوف تعلمون عما قريب ، من منا الذى سينزل عليه العذاب المخزى الممين فى الدنيا ، ومن منا الذى سيحل عليه العذاب الدائم الخالد فى الآخرة .

وبهذا نرى أن هذه الآيات الكريمة قد قررت حكم الله الفاضل فى شأن قوم نوح - عليه السلام - ، بعد أن لبث فيهم زمنا طويلا يدعوهم إلى الحق ، ولكنهم صموا آذانهم عنه فإذا كان من أمره وأمرهم بعد ذلك .
كان من أمره وأمرهم بعد ذلك أن أمر الله - تعالى - نوحا - عليه السلام - أن يحمل فى السفينة بعد أن أتم صنعها من كل نوع من أنواع الحيوانات ذكرا وأنثى ، ثم نزل الطوفان ، وسارت السفينة بمن فيها ، وأغرق الله - تعالى - الظالمين ، وقد حكى - سبحانه - كل ذلك فقال - تعالى - .

« حتى إذا جاء أمرنا وفار التنور ، قلنا أجل فيها من كل زوجين اثنين وأهلك إلا من سبق عليه القول ومن آمن ، وما آمن معه إلا قليل » (٤٠) وقال اركبوا فيها باسم الله نجريها ومرساها إن ربى لغفور رحيم » (٤١) وهى تجرى بهم فى موج كالجبال ونادى نوح ابنه وكان فى معزل يا بنى اركب معنا ولا تكن مع الكافرين (٤٢) قال سأوى إلى جبل يمتصني من الماء قال لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رجم وحال بينهما الموج فكان من المغرقتين (٤٣) وقيل يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء أقلعي وغيض الماء وقضى الأمر واستوت على الجودي وقيل بعدا للقوم الظالمين (٤٤) .

فقوله - سبحانه - (حتى إذا جاء أمرنا وفار التنور قلنا أجل فيها من كل

زوجين اثنين ... بيان لمرحلة جديدة من مراحل قصة نوح - عليه السلام - مع قرمه .

و (حتى) هنا حرف غاية لقوله - تعالى - قبل ذلك (ويصنع الفلك ... الخ) .

والمراد بالأمر في قوله - سبحانه - : حتى إذا جاء أمرنا ... حلول وقت نزول العذاب بهم ، فهو مفرد الأمور ، أى : حتى إذا حل بهم وقت عذابنا ... قلنا أحمل فيها من كل زوجين اثنين .

ويصح أن يكون المراد به الأمر بالشئ على أنه مفرد الأوامر ، فيكون المعنى : حتى إذا جاء أمرنا لنوح بركوب السفينة ، وللأرض تتفجير عيونها ، وللسماء ينزال أمطارها ... قلنا أحمل فيها ...

وجملة : وفار التنور ، معطوفة على : جاء أمرنا ، ، وكلية : فار ، من الفور والفوران ، وهو شدة الغليان للماء وغيره .

قال صاحب المنار ماملاً خصه : والفور والفوران ضرب من الحركة والارتفاع القوي . يقال في الماء إذا غلا وارتفع ... ويقال في النار إذا هاجت قال - تعالى - : وإذا ألقوا فيها سمعوا لها شهيقا وهى تفور ، ... ومن المجاز : فار الغضب ، إذا اشتد ... (١)

والمفسرين في المراد بلفظ : التنور ، أقوال منها : أن المراد به الشئ الذى يخبز فيه الخبز ، وهو ما يسمى بالموقد أو السكاون ... ومنها أن المراد به وجه الأرض ...

ومنها : أن المراد به موضع اجتماع الماء في السفينة ... ومنها : أن المراد به خالوع القيص من قولهم : تنور الفجر ... ومنها : أن المراد به أعالي الأرض والمواضع المرتفعة فيها ..

وقيل : إن الكلام على سبيل المجاز ، والمراد بقوله - سبحانه - «فار التنور» التمثيل بحضور العذاب ، كقولهم : حمى الوطيس ، إذا اشتد القتال ^(١) .
وأرجح هذه الأقوال أولها ، لأن التنور في اللغة يطلق على الشيء الذي يخزن فيه ، وفورانه معناه : نبع الماء منه بشدة مع الارتفاع والغليان ، كما يفور الماء في القدر عند الغليان ، ولعل ذلك كان علامة لنوح - عليه السلام - على اقتراب وقت الطوفان .

وقد رجح هذا القول المحققون من المفسرين ، فقد قال الإمام ابن جرير بعد أن ذكر جملة من الأقوال في معنى التنور : « وأولى الأقوال عندنا بتأويل قوله «التنور» قول من قال : هو التنور الذي يخزن فيه ، لأن هذا هو المعروف من كلام العرب . وكلام العرب لا يوجه إلا إلى الأغلب الأشهر من معانيه عند العرب ، إلا أن تقوم حجة على شيء منه بخلاف ذلك ، فيسلم لها .
وذلك لأنه جل ثناؤه إنما خاطبهم بما خاطبهم به لإفهامهم معنى ما خاطبهم به .
أى : قلنا لنوح حين جاء عذابنا قومه ... وفار التنور الذي جعلنا فورانه بالماء آية بحمى عذابنا ... أحمل فيها - أى السفينة من كل زوجين اثنين ... » ^(٢)
وقال الامام الرازى ما ملخصه : فإن قيل : فما الأصح من هذه الأقوال - في معنى التنور - ؟

قلنا : الأصل حمل الكلام على حقيقته ، ولفظ التنور حقيقة في الموضع الذي يخزن فيه ، فوجب حمل اللفظ عليه ...

ثم قال : والذي روى من أن فور التنور كان علامة لهلاك القوم لا يتمتع لأن هذه واقعة عظيمة ، وقد وعد الله - تعالى - المؤمنين الفجاة ، فلا بد وأن

(١) راجع تفسير القرطبي ج ٩ ص ٢٣٠ .

(٢) تفسير ابن جرير ج ١٢ ص ٢٥٠ .

يجعل لهم علامة بها يعرفون الوقت المعين ، فلا يبعد جعل هذه الحالة علامة لحدوث هذه الواقعة ، (١) .

وجملة : قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين وأهلك ، جواب إذا ولفظ (زوجين) تنفية زوج ، والمراد به هنا الذكر والأنثى من كل نوع وقراءة الجمهور : من كل زوجين اثنين (بدون تنوين للفظ كل ، وبإضافته إلى زوجين .

وقرأ حفص : (من كل زوجين اثنين) بتنوين لفظ كل وهو تنوين عوض عن مضاف إليه ، والتقدير : احمل فيها من كل نوع من أنواع المخلوقات التي أنت في حاجة إليها ذكرًا وأنثى .

ويكون لفظ (زوجين) مفعولا لقوله (احمل) واثنين صفة له . والمراد بأهله : أهل بيته كزوجته وأولاده ، وأكثر ما يطلق لفظ الأهل على الزوجة ، كما في قوله - تعالى - (فلما قضى موسى الأجل وسار بأهله آنس من جانب الطور نارا ، قال لأهله امكثوا إني آنست فارا ...) (٢) . والمراد بأهله : من كان مؤمنا منهم .

وجملة (إلا من سبق عليه القول) استثناء من الأهل . أي : احمل فيها أهلك إلا من سبق عليه قضاؤنا بكفره منهم فلا تحمله .

والمراد بمن سبق عليه القول : زوجته التي جاء ذكرها في سورة التحريم في قوله - تعالى - (ضرب الله مثلا للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخثاهما ..) وابنه الذي أبي أن يركب معه السفينة .

قال الألوسي عند تفسيره لهذه الجملة : والمراد زوجة له أخرى تسمى

(١) تفسير الفخر الرازي ج ١٧ ص ٢٢٦ .

(٢) سورة القصص الآية ٢٩ .

(واعلة) بالعين المهملة ، وفي رواية (والقه) وابنة منها واسمه (كنعان) . .
وكانا كافرين (١) .

وجملة (ومن آمن) معطوفة على قوله (وأهلك) أى : واحمل معك من
آمن بك من قومك .

والمعنى للآية الكريمة : لقد امتثل نوح أمر ربه له بصنع السفينة ، حتى
إذا ما تم صنعها ، وحان وقت نزول العذاب بالكافرين من قوميه ، وتحققت
الملاذات الدالة على ذلك ، قال الله - تعالى - لنوح : احمل فيها من كل نوع
من أنواع المخلوقات التى أنت فى حاجة إليها من ذكر وأنثى ، واحمل فيها أيضا
من آمن بك من أهل بيتك دون من لم يؤمن ، واحمل فيها كذلك جميع المؤمنين
الذين أتبعوا دعوتك من غير أهل بيتك .

وقد ختم - سبحانه - الآية الكريمة بما يدل على قلة عدد من آمن به
فقال : « وما آمن معه إلا قليل » .

أى : وما آمن معه إلا عدد قليل من قومه بعد أن لبث فيهم قرونا متطاولة
يدعوه إلى الدين الحق ليلا ونهارا ، وسرا وعلانية .

قال الألوسى بعد أن ساق أقوالا فى عدد من آمن بنوح - عليه السلام -
من قومه : . . . والرواية الصحيحة أنهم كانوا تسعة وسبعين : زوجته ، وبنوه
الثلاثة ونساؤهم ، واثنان وسبعون رجلا وامرأة من غيرهم . . . (٢) .

ثم حكى - سبحانه - ما قاله نوح للمؤمنين عند ركوبهم السفينة فقال :
« وقال اركبوا فيها بسم الله مجريها ومرساها إن ربي لغفور رحيم » .

٠ مجريها ومرساها ، قرأها الجمهور بضم الجيمين فيهما ، وهما مصدران
من جرى وأرسي . ونبأ فى « باسم الله » للملابسة ، والآية الكريمة معطوفة
على جملة ، قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين . . .

(١) تفسير الألوسى ١٢ ص ٥٠ .

(٢) تفسير الألوسى ١٢ ص ٥٠ .

أى : قلنا له ذلك فامثل أمرنا ، وقال لمن معه من المؤمنين : سلوا أمركم
لمشيئة الله — تعالى — وقولوا عند ركوب السفينة : باسم الله جريها في هذا
الطوفان العظيم ، وباسم الله إرساؤها في المكان الذى يريد الله — تعالى —
إرساؤها فيه .

قال الشيخ الفاضل ابن عاشور : وعدى فعل ، اركبوا ، بنى ، جرياً على
الأسلوب الفصيح ، فإنه يقال : ركب الدابة إذا علاها . وأما ركوب الفلك
فيعدى بنى ، لأن إطلاق الركوب عليه مجاز ، وإنما هو جلوس واستقرار ،
فلا يقال : ركب السفينة ؛ فأرادوا التفرقة بين الركوب الحقيقي والركوب
المشابه له ، وهى تفرقة حسنة ، (١) .

وجملة : إن ربى لغفور رحيم ، تحليل للأمر بالركوب المصاحب لذكر
الله — تعالى — :

أى : إن ربى لعظيم المغفرة ولعظيم الرحمة لمن كان مطيعاً له مخلصاً فى عبادته
قال الإمام ابن كثير : عند تفسير هذه الآية ما ملخصه : يقول الله تعالى -
إخباراً عن نوح أنه قال للذين أمر بحملهم معه فى السفينة : اركبوا فيها باسم
الله جريها ومرساها . . .

وقال — سبحانه — فى موضع آخر : فإذا استويت أنت ومن معك على
الفلك فقل الحمد لله الذى نجانا من القوم الظالمين . وقل رب أنزلنى منزلاً مباركاً
وأنت خير المنزلين . .

ولهذا تستحب التسمية فى ابتداء الأمور : عند الركوب فى السفينة وعلى
الدابة . . .

فقد روى الطبرانى عن ابن عباس عن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال :
أمان أمتى من الغرق إذا ركبوا فى السفن أن يقولوا : بسم الله الملك . . . بسم
الله جريها ومرساها إن ربى لغفور رحيم ، (٢) .

ثم بين - سبحانه - جال السفينة وهي تمر بهم عباب الماء فقال :

(وهي تجري بهم في موج كالجبال) .

والموج : ما ارتفع من ماء البحر عند اضطرابه . وأصله من ماج الشيء بموج إذا اضطرب ومن قوله - تعالى - وتركنا بعضهم يومئذ يموج في بعض ، قال صاحب الكشف : فإن قلت . بم اتصل قوله - تعالى - وهي تجري بهم ، ؟ قلت : اتصل بمحذوف دل عليه أركبوا فيها باسم الله ، كأنه قيل : فركبوا فيها وهم يقولون : باسم الله ، وهي تجري بهم . أي تجري بهم وهم فيها في موج كالجبال ، يريد موج الطوفان ، شبه كل موجة بالجبل في تراكمها وارتفاعها ... ، (١) .

وقوله - سبحانه - : (ونادى نوح ابنه وكان في معزل : يا بني اركب معنا ولا تكن مع الكافرين) تصوير لتلك اللحظة الرهيبة الحاسمة التي أبصر فيها نوح - عليه السلام - ابنه المكافر وهو منعزل عنه وعن جماعة المؤمنين . والمعزل : مكان العزلة ، أي : الانفراد .

أي : وقبل أن يشتد الطوفان وترتفع أمواجه ، رأى نوح ابنه كنهان ، وكان هذا الإبن في مكان منعزل ، فقال له نوح بعاطفة الأبوة الناصحة الملموفة يا بني اركب معنا في السفينة ، ولا تكن مع القوم الكافرين الذين سيملفهم الطوفان بين أمواجه عما قريب . ولكن هذه النصيحة الغالية من الأب الحزين على مصير ابنه ، لم تجد أذنا واعية من هذا الإبن العاق المغرور ، بل رد على أبيه بقوله : (سأوى إلى جبل يعصمني من الماء ...)

أي : قال : سألتجىء إلى جبل من الجبال الشاهقة ، لكي أتحصن به من وصول الماء إلى ...

وهنا يرد عليه أبوه الرد الأخير فيقول - كما حكى القرآن عنه - : (قال لا عصم اليوم من أمر الله إلا من رحم ...)

(١) تفسير الكشف > ٢ ص ٢٧٠

أى : قال نوح لابنه : لا معصوم اليوم من عذاب الله إلا من رحم
— سبحانه — بلطفه وإحسانه ، وأما الجبال وأما الحصون ... وأما غيرها
من وسائل النجاة ، فسيملوها الطوفان ، ولن تغنى عن المحتضى بها شيئا .
وعبر عن العذاب بأمر الله ، تهويلا لشأنه ...
وقوله : « وحال بينهما الموج فكان من المخرقين » بيان للعاقبة السيئة التي
آل إليها أمر الابن الكافر .

أى : وحال وفصل الموج بهديره وسرعته بين الإبن وأبيه ، فكانت
النتيجة أن صار الابن الكافر من بين المكافرين المخرقين .
والتعبير بقوله : « وحال ... » يشعر بسرعة فيضان الماء واشتداده ،
حتى لكان هذه السرعة لم تمهلها ليكتملا حديثهما .
والتعبير بقوله : « فكان من المخرقين » يشير إلى أنه لم يفرق وحده ،
وإنما غرق هو وغرق معه كل من كان على شاكلته في الكفر ،
وهكذا تصور لنا هذه الآية الكريمة مدار بين نوح وابنه من محاورات
في تلك اللحظات الحاسمة المؤثرة ، التي يبدل فيها كل أب ما يستطيع بذله من
جهود لإنجاة ابنه من هذا المصير المؤلم

وبعد أن غرق المكافرون ، ونجا نوح ومن معه من المؤمنين ، وجه الله
— تعالى — أمره إلى الأرض وإلى السماء ... فقال : « وقيل يا أرض ابلعى
ماءك ، ويا سماء أقلعى ، وغيض الماء ، وقضى الأمر ، واستوت على الجودي ،
وقيل بعدا للظالمين » .

أى : وبعد أن أدى الطوفان وظيفته فأغرق بأمر الله — تعالى — المكافرين ،
قال الله — تعالى — للأرض : « يا أرض ابلعى ماءك » .

أى : اشربى أيتها الأرض ما على وجهك من ماء ، وابتلعيه بسرعة في
باطنك كما يتلع الإنسان طعامه في بطنه بدون استقرار في الفم .
وقال — سبحانه — للسماء : « ويا سماء أقلعى » ، أى : أمسكى عن إرسال المطر

يقال : أفلع فلان عن فعله إقلاعا ، إذا كف عنه وترك فعله . ويقال : أفلعت الحى عن فلان ، إذا تركته :

فامثلتا - أى الأرض والسماء - لأمر الله - تعالى - فى الحال ، فهو القائل وقوله الحق : « إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون » .

وقوله « وغيض الماء » أى : نقص ونضب . يقال : غاض الماء يغيض ، إذا قل ونقص .

والمراد به هنا : الماء الذى نشأ عن الطرفان ، .

وقوله : « وقضى الأمر » أى : تم ونفذ ما وعد الله -- تعالى -- به نبيه نوحا - عليه السلام - من إهلاكه للقوم الظالمين .

والضمير فى قوله : « واستوت على الجودى » للسفينة ، والجودى : جبل بشمال العراق بالقرب من مدينة الموصل . وقيل هو جبل بالشام

أى : واستقرت السفينة التى تحمل نوحا والمؤمنين بدعوته ، على الجبل المعروف بهذا الاسم ، بعد أن أهلك الله أعداءهم .

قال ابن كثير ما ملخصه : وكان خروجهم من السفينة فى يوم عاشوراء من المحرم ، فقد روى الإمام أحمد عن أبى هريرة قال : مر النبى - صلى الله عليه وسلم - بأناس من اليهود ، وقد صاموا يوم عاشوراء ، فقال لهم : ما هذا الصوم ؟ قالوا : هذا اليوم الذى نجى الله موسى وبني إسرائيل من الفرق ، وغرق فيه فرعون . وهذا يوم استوت فيه السفينة على الجودى . فصامه نوح وموسى - عليهما السلام - شكرا لله .

فقال النبى - صلى الله عليه وسلم - أنا أحق بموسى ، وأحق بصوم هذا اليوم . فصامه ، وقال لأصحابه . من كان أصبح منكم صائما فليتم صومه ، ومن كان قد أصاب من غذاء أهله ، فليتم بقية يومه ، (١)

(١) سورة يس الآية ٨٢

(٢) تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٢٥٧

ثم ختم — سبحانه — الآية الكريمة بقوله : وقيل بعدا للقوم الظالمين ،
أى : هلاكاً وسحقاً وطرداً من رحمة الله — تعالى — للقوم الذين ظلموا
أنفسهم بإيثارهم الكفر على الإيمان ، والضلالة على الهداية .

قال الجمل : « وبعدا » مصدر بعد — بكسر العين — ، يقال بعد بعدا —
بعض فسكون — وبعداً — بفتحيتين — إذا بعد بعدا بعيدا بحيث لا يرجى عوده ،
ثم استعير للهلاك ، وخص بدعاء السوء . وهو منصوب على المصدر بفعل
مقدر . أى : وقيل بعدوا بعدا (١) .

هذا وقد تكلم بعض العلماء عن أوجه البلاغة والفصاحة في هذه الآية كلاماً
طويلاً ، نكتفي بذكر جانب مما قاله في ذلك الشيخ القاسمى في تفسيره ،
قال — رحمه الله — مالم يخلصه : هذه الآية بلغت من أسرار الإعجاز غايتها ،
وحوت من بدائع الفوائد نهايتها . وقد أهتم علماء البيان بإيراد ذلك ، ومن
أوسعهم مجالاً في مضمار معارفها الإمام « السكاكى » ، فقد أطل وأطنب في
كتابه ، المفتاح ، في الحديث عنها ...

فقد قال — عليه الرحمة — في بحث البلاغة والفصاحة ،

« إذ قد وقفت على البلاغة ، وعثرت على الفصاحة ، فساد ذكر لك على
سبيل الأنموذج ، آية أكشف لك فيها من وجوهها ما عسى أن يكون مستورا
عنك ، وهذه الآية هي قوله — تعالى — وقيل يا أرض ابلعى ماءك ، ويا سماء
أقلعى ، وغيسى الماء ، وقضى الأمر »

والنظر في هذه الآية من أربع جهات : من جهة علم البيان ، ومن جهة علم
المعاني ، ومن جهة الفصاحة المعنوية ، ومن جهة الفصاحة اللفظية .

أما النظر فيها من جهة علم البيان فتقول : لأنه — عز سلطانه — لما
أراد أن يبين معنى هو : أردنا أن نرد ما انفجر من الأرض إلى بطنها فارتد ،
وأن تقطع طوفان السماء فانقطع ، وأن تغيض الماء النازل من السماء فغاض

لما أراد ذلك : بنى الكلام على التفسير ، بأن شبه الأرض والسماء بالماءور الذي لا يتأني منه أن يمضى أمره فقال : يا أرض ابلعى ماءك ، ويا سماء ألقى . . . ثم قال : « ماءك » بإضافة الماء إلى الأرض على سبيل المجاز ، تشبيها لاتصال الماء بالأرض ، باتصال الملك بالملك .

ثم اختار لاحتباس المطر لفظ الإقلاع الذي هو ترك الفاعل للفعل . . ، وأما النظر فيها من حيث علم المعانى فذلك أنه اختير « يا » دون سائر أخواتها ، لسكونها أكثر في الاستعمال . . . واختير لفظ « ابلعى » على « ابتلعى » لسكونه أخصر . . .

ثم أطلق الظلم ليتناول كل نوع منه ، حتى يدخل فيه ظلمهم لأنفسهم وأما النظر فيها من جانب الفصاحة المعنوية فهي كما ترى . نظم للمعاني لطيف ، وتأدية لها ملخصة مبينة ، لانهقيد يعثر الفكر في طلب المراد ، ولا التواء يشيك الطريق إلى المرقاد ، بل إذا جربت نفسك عند استماعها ، وجدت ألفاظها تسابق معانيها ، ومعانيها تسابق ألفاظها ، فما من لفظة في تركيب الآية ونظمها تسبق إلى أذنك ، إلا ومعناها أسبق إلى قلبك .

وأما النظر فيها من جانب الفصاحة اللفظية : فالألفاظ على ما ترى عربية ، مستعملة جارية على قوانين اللغة ، سليمة من التنافر ، بعيدة عن البشاعة

ولا نظن الآية مقصورة على ما ذكرت ، فلعل ما تركت أكثر مما ذكرت (١) .

ثم ختم - سبحانه - قصة نوح مع قومه في هذه السورة ، بتلك الضراعة التي تضرع بها نوح - عليه السلام - بشأن ولده ، وبذلك الرد الحكيم الذي رد به الخالق - عز وجل - على نوح - عليه السلام ، وبتعقيب على القصة يدل على وحدانية الله - تعالى - ، وعلى صدق الرسول - صلى الله عليه وسلم - فيها يبلغه عن ربه قال - تعالى - :

(١) راجع تفسير القاسمي ج ٩ ص ٣٤٤٦ وتفسير المنارج ١٢ ص ٩٠

واكتفى نوح - عليه السلام - بأن يقول : رب إن ابني من أهلي . وإن وعدك الحق ، وأنت أحكم الحاكمين ، دون أن يصرح بمطلوبه وهو نجاة ابنه نادياً مع الله - تعالى - ، وحياء منه - سبحانه - واعتقاداً منه بأنه - سبحانه - عليم بما يريد ، وخبير بما يحول في نفسه

وهذا لون من الأدب السامي ، سلكه الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - في مخاطبتهم لأربهم - عز وجل - ومن أولى منهم بذلك !!؟

ولعل نوحا - عليه السلام - عندما تضرع إلى ربه - سبحانه - بهذا الدعاء لم يكن يهمل أن طلب الرحمة أو النجاة لابنه المكافر ممنوع ، فكان حاله في ذلك كحال النبي - صلى الله عليه وسلم - عندما قال لعمه أبي طالب : « لا تستغفرن لك ما لم أنه عن ذلك » واستمر يستغفر له إلى أن نزل قوله - تعالى - : « ما كان لنبى والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولى قربى » (١)

وقال الشيخ القاسمي : وإنما قال نوح ذلك - أي : رب إن ابني من أهلي ... ألح - لفهمه من الأهل ذوى القرابة الصورية ، والرحمة النسبية ، وغفل - لفرط التأسف على ابنه - عن استثنائية - تعالى - بقوله : « إلا من سبق عليه القول » ولم يتحقق أن ابنه هو الذي سبق عليه القول ، فاستدطف ربه بالاسترحام ، وعرض بقوله (وأنت أحكم الحاكمين) إلى أن العالم العادل الحكيم لا يخلف وعده (٢)

وقوله - سبحانه - (قال يا نوح إنه ليس من أهلك ...) رد من الله تعالى - على نوح فيما طلبه منه .

أي : قال الله - تعالى - مجيباً لنوح - عليه السلام - فيما سأله لإياه : يا نوح

(١) راجع تفسيرنا لسورة التوبة ص ٣١٢ .

(٢) تفسير القاسمي ص ٢٤٤٨

إن ابنك هذا (ليس من أهلك) لأن مدار الأهلية مبنى على القرابة الدينية ، وقد انقطعت بالكفر ، فلا علاقة بين مسلم وكافر .

أو ليس من أهلك الذين وعدتكم بنجاتهم ، بل هو ممن سبق عليه القول بسبب كفره) .

فالمراد نبي أن يكون من أهل دينه واعتقاده ، وليس المراد نبي أن يكون من صلبه ، لأن ظاهر الآية يدل على أنه لإبنه من صلبه ، ومن قال بغير ذلك فقوله ساقط ولا يلتفت إليه ، خلوه عن الدليل .

قال ابن كثير : وقد نص غير واحد من الأئمة على تخطئة من ذهب في تفسير هذا إلا أنه ليس بإبنه ، وإنما كان ابن زنية

وقال ابن عباس وغير واحد من السلف : ما زنت امرأة نبي قط ، ثم قال : وقوله أنه ليس من أهلك (أى : الذين وعدتكم بنجاتهم .

وقول ابن عباس في هذا هو الحق الذى لا يحيد عنه ؛ فإن الله - تعالى - أغير من أن يمكن امرأة نبي من الفاحشة) (١)

وجملة (إنه عمل غير صالح) تعليل لنقي الأهلية .

وقد قرأ الجمهور (عمل) بفتح الميم وتذوين اللام - على أنه مصدر مبالغة في ذمه حتى لكانه هو نفس العمل غير الصالح وأصل الكلام أنه ذو عمل غير صالح ، فحذف المضاف للمبالغة بجعله عين عمله الفاسد لمداومته عليه .

وقرأ الكسائي ويعقوب (عمل) بوزن فرح بصيغة الفعل الماضى - أى : إنه عمل عملا غير صالح وهو الكفر والعصيان ، فحذف الموصوف وأقيمت صفته مقامه .

قال صاحب الكشف وقوله : (إنه عمل غير صالح) تعليل لإنتفاء كونه من أهله . وفيه إيدان بأن قرابه الذين غامرة لقرابة النسب ، وأن نسبك في دينك ومعتقدك من الأبعد في المنصب وإن كان حبشيا وكنت قرشيا لصبيك

وخصيصك ، ومن لم يكن على دينك وإن كان أمس أقاربك رحما فهو أبعد بعيد منك (١)

وقال الفخر الرازى : هذه الآية تدل على أن العبرة بقربة الدين لا بقربة النسب ، فإن هذه الصورة كانت قرابة النسب حاصلة من أقوى الوجوه ، ولكن لما انتفت قرابه الدين ، لا جرم نفاه الله — تعالى — بأبلغ الألفاظ وهو : (إنه ليس من أهلك) (٢)

والفاء فى قوله : (فلا تسألن ما ليس لك به علم ..) للتفريع .
أى : ما دمت قد وقفت على حقيقة الحال ، فلا تلتمس منى ملتصقا لا تعلم على وجه اليقين ، أصواب هو أم غير أصواب ، بل عليك أن تثبت من صحة ما تطالبه ، قبل أن تقدم على طلبه .

وجملة (إنى أعظك أن تكون من الجاهلين) تأكيد لما قبلها ، ونهى له عن مثل هذا السؤال فى المستقبل ، بعد أن أعلمه بحقيقة حال ابنه .
أى : إنى أنهارك يا نوح عن أن تكون من القوم الجاهلين ، الذين يسألون عن أشياء لا يتحققون وجه الصواب فيها .

ومنا بين الله -- تعالى -- أن نوحا -- عليه السلام -- قد تنبه إلى ما أرشده إليه ربه ، فبادر بطلب العفو والصفح منه -- سبحانه -- فقال :
(قال رب إنى أعوذ بك أن أسألك ما ليس لى به علم ...) .

أى : قال نوح -- عليه السلام -- ملتصقا بالصفح من ربه : رب إنى أستجير بك ، وأحتمى بجنبائك من أن أسألك شيئا بعد الآن ، ليس عندى علم صحيح بأنه جاز ولا نقي (وإلا تغفر لى) ما فرط منى من قول ، وما صدر عنى من فعل .

(١) تفسير الكشاف ج ٢ ص ٢٧٣

(٢) تفسير الفخر الرازى ج ١٨ ص ٣

(وترحمنى) برحمتك الواسعة التى وسعت كل شىء .

(أكن من الخاسرين) الذين خسروا أنفسهم بالاحتجاب عن علمك وحكمتك . ثم بشر - سبحانه - نبيه نوحا - عليه السلام - بقبول توبته فقال : (قبل يا نوح اهبط بسلام منا ، وبركات عليك وعلى أمم ممن معك)

والسلام : التحية المقرونة بالأمان والإطمئنان ، وأصله السلامه ، والباء فيه للمصاحبة والبركات . جمع بركة وهى ثبوت الخير ونماؤه وزيادته ، واشتقاقها من البرك ، وهو صدر البعير . يقال : برك البعير إذا ألقى بركة أى صدره على الأرض وثبت . ومنه البركة لثبوت الماء فيها .

والأمم : جمع أمة ، وهى الجماعة الكثيرة من الناس ، يجمعها نسب واحد أو لغة واحدة ، أو موطن واحد .

أى : قال الله - تعالى - مبشرا نوحا - عليه السلام - بقبول توبته : يا نوح اهبط من السفينة مصحوبا منا بالأمان مما تذكره ، وبالخيرات النامية والنعم الثابتة عليك ، وعلى أمم متشعبة ومتفرعة وناشئة من الأمم المؤمنة التى ستهبط معك ، بعد أن نجى كم الله - تعالى - بفضلته ورحمته من العذاب ، الذى حل بالكافرين من قومك .

وكان مقتضى الظاهر أن يقال : قال يا نوح اهبط بسلام ... ولكن جاء التعبير بقيل ، مسaire للتعبيرات السابقة فى أجزاء القصة ، مثل قوله - سبحانه - وقيل يا أرض ابلعى ماءك ، وقوله : وقيل بعدا للقرم الظالمين . .

وقوله (اهبط بسلام ...) فيه إشارة إلى أنه كان قبل الهبوط فى ضيافة الله ورعايته ، وأنه لولا عناية الله به وبمن معه من المؤمنين ، لما نجحت السفينة من ذلك الطوفان العظيم .

والتعبير بقوله (هنا) لزيادة التكريم ، وتأكيده السلام . أى : أنزل بسلام

ناشىء من عندنا ، وليس من عند غيرنا ؛ لأن كل سلام من غيرنا لا قيمة له بجانب سلامنا .

وقوله (عليك وعلى أمم ممن معك) متعلق بسلام وبركات .

وفى هذا إشارة إلى أنه - سبحانه - سيجعل من ذرية نوح ومن ذرية من معه من المؤمنين ، أمما كثيرة ستكون محل كرامة الله وأمانه وبركاته .

وقوله - سبحانه - (وأمم سئمتمهم ثم يمسه من عذاب أليم) كلام مستأنف مسوق للاحتراز والتحذير من سوء عاقبة المخالفة لأمر الله ...

أى : أن الأمم التى ستكون من نسلك ومن نسل أتباعك يا نوح على قسمين : قسم منهم له منا السلام ، وعليه البركات بسبب إيمانه وعمله الصالح ...

وقسم آخر سئمتمه فى الدنيا بالكثير من زينتها وخيراتها ، ثم يصيبه يوم القيامة عذاب أليم بسبب جحوده لنعمتنا ، وعصيانه لرسالتنا .

فعلى كل عاقل أن يجتهد فى أن يكون من القسم الأول ، وأن يتجنب القسم الثانى .

ثم اختتم الله - تعالى - قصة نوح - عليه السلام - مع قومه فى هذه السورة . بقوله : (تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ، ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا فاصبر إن العاقبة للمتقين) .

واسم الإشارة (تلك) يعود إلى ما قصه الله - تعالى - من قصة نوح مع قومه فى هذه السورة .

والأنباء : جمع نباء وهو الخبر الهام . والغيب : مصدر غاب ، وهو ما لا تدركه الحواس ولا يعلم به داهة العقل .

أى : تلك القصة التى قصصناها عليك يا محمد بهذا الأسلوب الحكيم ، من أخبار الغيب الماضية ، التى لا يعلم دقائقها وتفصيلها أحد سوانا . ونحن (نوحيا إليك) ونعرفك بها عن طريق وحيينا الصادق الأمين .

وهذه القصة وأمثالها (ما كنت تعلمها) أفت يا محمد ، وما كان يعلمها (قومك) أيضا ، بهذه الصورة الصادقة الحكيمة ، الخالية من الأساطير والآكاذيب ، (من قبل) هذا الوقت الذى أوحيناها إليك فيه .

ومادام الأمر كذلك (فاصبر) صبرا جميلا عل تبليغ رسالتك ، وعلى أذى قومك كما صبر أخوك نوح من قبل .

وجملة (إن العاقبة للمتقين) تمليل للأمر بالصبر .

والعاقبة : الحالة التى تعقب حالة قبلها ، وقد شاعت عند الإطلاق فى حالة الخير كما فى قوله - تعالى - (والعاقبة للتقوى) . وأل فيها للجنس ، واللام فى قوله (المتقين) للاختصاص .

أى : إن العاقبة الحسنة الطيبة فى الدنيا والآخرة ، للمتقين الذين إصافوا أنفسهم عن كل مالا يرضى الله - تعالى - ، وليست لغيرهم ممن استجبوا العمى على الهدى .

والآية الكريمة تعقيب حكيم على قصة نوح - عليه السلام - قصده به الامتنان على النبي - صلى الله عليه وسلم - والموعظة ، والتسليية .

قالامتنان نراه فى قوله - تعالى - (ما كنت تعلمها أفت ولا قومك من قبل هذا) .

والموعظة نراها فى قوله - سبحانه - (فاصبر) .

والتسليية نراها فى قوله - عز وجل - (إن العاقبة للمتقين) .

وبعد ، فهذه قصة نوح - عليه السلام - كما وردت فى هذه السورة الكريمة . ومن العبر والعظات والهدايات والحقائق التى نأخذها منها ما يأتى :

١ - الدلالة على صدق النبي - صلى الله عليه وسلم - فيما يبلغه عن ربه ، وعلى أن هذا القرآن من عند الله - تعالى - ، فقد أخبرنا عن قصة نوح - عليه السلام - مع قومه ، وعن غيرها من القصص ، التى هى من أنباء الغيب ، والتى لا يعلم حقيقتها وتفصيلها أحد سوى الله - عز وجل - .

٢ - أن نوحا - عليه السلام - قد سلك في دعوته إلى الله - تعالى - ، أحسن الأساليب وأحكمها ، فقد دعا قومه إلى عبادة الله - تعالى - وحده في الليل وفي النهار . وفي السر وفي العلانية ، وأقام لهم ألوانا من الأدلة على صدقة ، ورغبهم في الإيمان بشئ ألوان الترغيب ، وحذرهم من الكفر بشئ أنواع التحذير ، وصبر على أذاهم صبرا جميلا ، ورد على سفاهاتهم وأقوالهم بمنطق سليم ، أبطل به حججهم ... مما جعلهم يكفون عن مناقشته ، ويلجأون إلى التحدى والتعنّت ...

وما أخرج الدعاة إلى الله - عز وجل - إلى التماس العبرة والعظة من قصة نوح مع قومه .

٣ - أن النسب مهما شرف وعظم ان ينفع صاحبه عند الله ، إلا إذا كان معه الإيمان والعمل الصالح ، وأن الإيمان والصلاح ليسا مرتبطين بالوراثة والانتساب لأنه لو كان الأمر كذلك لسكانت ذرية نوح ومن معه من المؤمنين الذين نجوا معه في السفينة . كلها من المؤمنين الصالحين ، مع أن المشاهد غير ذلك .

ورحم الله الإمام القرطبي فقد قال - ما ملخصه - عند تفسيره لقوله - تعالى - (قال يا نوح إنه ليس من أهلك ...) : (وفي هذه الآية تسلية للأباء في فساد أبنائهم وإن كان الآباء صالحين ، فقد روى أن ابنا لماك بن أنس ارتكب أمرا لا يليق بمسلم ، فعلم بذلك مالك فقال : (الأدب أدب الله ، لا أدب الآباء والأمهات ، والخير خير الله ، لا خير الآباء والأمهات ...) (١) .

٤ - أن سؤال نوح - عليه السلام - ما سأله لابنه لم يكن - كما قال صاحب المنار - معصية لله - تعالى ، خالف فيها أمره أو نهيه ، وإنما كانت خطأ في اجتهد رأى بنية صالحة .

ولما عدها الله - تعالى - ذنبا له لأنها كانت دون مقام العلم الصحيح اللائق بمنزلته من ربه . هبطت بضعفه البشري ، وما غرس في الفطرة من الرحمة

والرافة بالاولاد إلى إقباع الظن . ومثل هذا الاجتهاد لم يعصم منه الانبياء ،
فيقعون فيه أحيانا بالشعروا بما جرتهم إلى تأديب ربهم وتكيله لإياهم أنا بعد أن ،
بما يصعدون به في معارج العرفان ،^(١) .

هـ - إن القرآن في إيراد القصص والأخبار ، لا يهتم إلا بإبراز النافع
المفيد منها ، أما ما عدا ذلك مما لا فائدة من ذكره ، فيهمل القرآن الحديث عنه .
فمثلا في قصة نوح - عليه السلام - هنا ، لم يتعرض القرآن لبيان المدة التي
قضاها نوح في صنع السفينة ، ولا لبيان طول السفينة وعرضها وارتفاعها ،
ولا لتفاصيل الأنواع التي حملها معه في السفينة ، ولا لبيان الفترة التي عاشها
نوح ومن معه فيها ...

ولا لبيان المكان الذي هبط فيه نوح بعد أن استوت السفينة على
الجودي ... ولا لبيان الزمان الذي استغرقه الطوفان فوق الأرض ..
وما ورد في ذلك من أقوال وأخبار ، أكثرها من الإسرائيليات التي
لا يؤيدها دليل من الشرع أو العقل .

ومن المسائل التي تسكلم عنها كثير من العلماء ، وذهبوا بشأنها مذاهب شتى
مسألة الطوفان .

وقد أصد الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده - رحمه الله - فتوى في هذا
الشان ، ملخصها كما يقول صاحب المنار : أن ظواهر القرآن والأحاديث أن
الطوفان كان عاما شاملا لقوم نوح الذين لم يكن في الأرض غيرهم فيجب
اعتقاده ، ولما لا يقتضي أن يكون عاما للأرض ، إذ لا دليل على أنهم كانوا
يملأون الأرض ...

ومنه المسائل التاليفية ليست من مقاصد القرآن ، ولذلك لم يبينها بنص
قطعي ، فنحن نقول بما تقدم إنه ظاهر النصوص ، ولا نتخذة عقيدة دينية
قطعية ، فإن أثبت العلم خلافه لا يضرنا ، لأنه لا ينقض نصا قطعيا عندنا^(٢) .

(١) تفسير المنار ج ١٢ ص ٨٦ (٢) تفسير المنار ج ١٢ ص ١٠٨

٦ - أن سنة الله - تعالى - في خلقه لا تتخلف ولا تبدل وهي أن العاقبة للمتقين ، مهما طال الصراع بين الحق والباطل ، وبين الأخيار والأشرار .
فلقد مكث - عليه السلام - في قومه ألف سنة إلا خمسين عاما يدعوهم إلى عبادة الله وحده ، وقد لقي خلال تلك المدة الطويلة ما لقي من الأذى ...
ولكن كانت النتيجة في النهاية نجاته ومن معه من المؤمنين ، وإغراق أعداء بالطوفان العظيم .

ولقد أفاض صاحب الظلال - رحمه الله - وهو سيتحدث عن هذا المعبر فقال مامثلة : (ثم نقف الوتفة الأخيرة مع قصة نوح ، لنرى قيمة الحفا المسلمة في ميزان الله - سبحانه - .

إن حفة من المسلمين من أتباع نوح - عليه السلام - تذكر بعض الروايات ، أنهم اثنا عشر ، هم كانوا حصيلة دعوة نوح في ألف سنة إلا خمسين عاما ...

إن هذه الحفة ، - وهي نمة ذلك العمر الطويل والجهد الطويل - ، استحققت أن يغير الله لها المؤلف من ظواهر هذا الكون ، وأن يجرى لها ذلك الطوفان الذي يغمر كل شيء وأن يجعل هذه الحفة وحدها وراثته الأرض بعد ذلك ، وبذرة العمران فيها ...

وهذه هي عبرة الحادث الكوني العظيم ..

لأنه لا ينبغي لأحد يواجه الجاهلية بالإسلام ، أن يظن أن الله تار للجاهلية وهو يدعو إلى إفراد الله - سبحانه - بالربوبية . كما أنه لا ينبغي له يقبس قوته الذاتية إلى قوى الجاهلية فيظن أن الله تاركة لهذه القوى ، وعبد الذي يستنصر به حين يغلب فبدعوه : (أنى مغلوب فانتصر) .

إن القوى في حقيقةهما ليست متكافئة ولا متقاربة .. إن الجاهلية تما قواها .. ولكن الداعى إلى الله يستند إلى قوة الله . والله يملك أن يسخر بعض القوى الكونية - حينما يشاء - وكيفما يشاء - ، وأيسر هذه القوى يد على الجاهلية من حيث لا تحتسب !!

والذين يسلكون السبيل إلى الله ليس عليهم إلا أن يؤدوا واجبهم كاملاً ، ثم يتركوا الأمور لله في طمأنينة وثقة . وعندما يغلبون عليهم أن يلجأوا إلى الناصر المعين ، وأن يجاروا إليه وحده كما جاز عبده الصالح نوح : (فعازبه أنى مغلوب فانتصر) ...

ثم عليهم أن ينتظروا فرج الله القريب ، وانتظار الفرج من الله عباده ، فهم على هذا الانتظار ما جورون والعاقبة للمتقين (١) .

ثم تابعت السورة الكريمة حديثها عن قصة هود - عليه السلام - مع قومه ، بعد حديثها عن قصة نوح - عليه السلام - مع قومه ، فقال - تعالى - :

« وَإِلَىٰ عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا ، قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ ، إِنِّي أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ (٥٠) يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ، إِنِّي أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٥١) وَيَا قَوْمِ اسْجُدُوا لِلرَّبِّكُمْ ثُمَّ تَوَبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدَّكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مَجْرِمِينَ (٥٢) قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ ، وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ (٥٣) إِنَّا نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ ، قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (٥٤) مَن دُونِهِ فَكَيْدُوتِي جِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونَ (٥٥) إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هِيَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا ، إِنِّي رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٥٦) فَإِن تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا ، إِنِّي رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيفٌ (٥٧) وَإِنَّمَا جَاءَ أَمْرُنَا نَجِيتَ هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ

(١) في ظلال القرآن ج ١٢ ص ٨٥ الأستاذ سيد قطب .

مَّنَّا ، وَنَجِّنَا هُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ (٥٨) وَتِلْكَ آيَاتُ رَبِّهِمْ
وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ (٥٩) وَأَتَّبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا
لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ . أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ ، أَلَا بُعْدًا لِعَادٍ
قَوْمِ هُودٍ (٦٠) .

تلك هي قصة هود - عليه السلام - مع قومه كما حكمتها هذه السورة ، وقد
وردت قصته معهم في سور أخرى منها : سورة الأعراف ، والشعراء ،
والأحقاف ...

وينتهي نسب هود إلى نوح - عليهما السلام - فهو - كما قال «ضالمون» -
هود بن عبد الله بن رباح بن الحلود بن عاد بن عوض بن لؤي بن سام
ابن نوح (١) .

وقومه هم قبيلة عاد - نسبة إلى أبيهم الذي كان يسمى بهذا الاسم - ،
وكانت مساكنهم بالأحقاف - جمع حقف وهو الرمل الكثير المائل - ،
وهذا المكان يسمى الآن بالربع الخالي جنوب الجزيرة العربية .

وكان قوم هود - عليه السلام - يعبدون الأصنام ، فأرسله الله
إليهم لهدايتهم .

ويقال إن هودا - عليه السلام - قد أرسله الله إلى عاد الأولى ، أما
عاد الثانية فهم قوم صالح ، وبينهما زهاء مائة سنة .

وقوله - سبحانه - : « وإلى عاد أخاهم هودا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم
من إله غيره ... » معطوف على قصة نوح التي سبق الحديث عنها .

أي : وكما أرسلنا توحا إلى قومه إياهم بعبادة الله وحده . أرسلنا إلى

(١) قصص الأنبياء ص ٥٠ لفضيلة الشيخ عبد الوهاب البخاري .

قبيلة عاد أخاهم هوداً ، فقال لهم ما قاله كل نبي لقومه : يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره .

ووصفه - سبحانه - بأنه « أخاهم » لأنه من قبيلتهم في النسب ، أو لأنه أخوهم في الإنسانية وناداهم بقوله : « يا قوم » زيادة في التلطف معهم ، إستجلاباً لقلوبهم ، وترضيه لنفوسهم ، وجملة « ما لكم من إله غيره » في معنى العلة لما قبله .

أى : أنا آمركم بعبادة الله وحده ، لأنه ليس هناك إله آخر يستحق العبادة سواه ، فهو الذى خلقكم ورزقكم ، وهو الذى يحببكم ويميتكم ...
ثم ختم - سبحانه - الآية بقوله : « إن أنتم إلا مفترون » .
والافتراء : الكذب المتعمد الذى لاشبهة لصاحبه في النطق به .

أى : ما أنتم إلا متمعدون للكذب في جعلكم الألوهية لغير الله - تعالى .
ثم بين لهم بعد ذلك أنه لا يريد منهم جزاء ولا شكورا في مقابل دعوة إياهم إلى الحق فقال : « ويا قوم لا أسألكم عليه أجرا إن أجزى إلا عِلْمُ الذى فطونى »

وفطرنى : أى خلقتنى وأبدعنى على غير مثال سابق . يقال : فطر الأمر أى : ابتدأه وأنشأه . وفطر الله الخلق : أى خلقهم وأوجدهم . وأصل الفطر الشق ، ثم استعمل في الخلق والإنشاء مجازا .

والمعنى : ويا قوم لا أريد منكم على ما أدعوكم إليه أجرا منكم ، وإنما أجرى تكفل به الله 'لذى خلقتى بقدرته ، فهو وحده الذى أطلب منه الأجر والعطاء ...

ومقصده من هذا القول ، إزالته ماعسى أن يكون قد حاك في نفوسهم من أنه مادعاهم إلى مادعاهم إليه ، إلا لأنه رجل يبتغى منهم الأجر الذى يجوسرا فيهم ...

والهمزة في قوله « أفلا تعقلون » للإستفهام الإنكارى ، وهى داخله على محذوف .

أى : أنجهلون ماهو واضح من الأمور ، فلا تعقلون أن أجر الناصحين المخلصين ، إنما هو من الله - تعالى - رب العالمين ورازقهم .

ثم أرشدكم إلى ما يؤدى إلى زيادة غناهم وقوتهم ، وحذرهم من سوء عاقبة البطر والأشر فقال : ويا قوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يرسل السماء عليكم مدرارا ، ويزدكم قوة إلى قوتكم ولا تتولوا مجرمين .

والاستغفار : طلب المغفرة من الله - تعالى - وعدم المؤاخذه على الخطايا : والتوبة : العزم على الإقلاع عن الذنب ، مع الندم على ما حصل منه فى الماضى .
أى : ويا قوم استغفروا ربكم مما فرط منكم من شرك وعصيان ، ثم عودوا إليه بالتوبة الصادقة النصوح .

وثم هنا للترتيب الرتبى ، لأن الإقلاع عن الذنب مع المداومة على ذلك ؛ مقدم على طلب المغفرة .

وجملة « يرسل السماء عليكم مدرارا » جواب الأمر فى قوله « استغفروا » . والمراد بالسماء هنا السحاب أو المطر ، تسمية للشيء باسم مصدره .

ومدرارا : مأخوذ من الدر أى : سيلات اللبن وكثرته . ثم استعير للمطر الغزير . يقال : درت السماء بالمطر تدر وتدر درا ... إذا كثرت زول المطر منها .

وهو حال من السماء ، ولم يؤنث مع أنه حال من مؤنث ، باعتبار أن المراد بالسماء هنا المطر أو السحاب .

والمعنى : أن هوذا - عليه السلام - قال لقومه يا قوم أعبدوا الله واستغفروه وتوبوا إليه ... فإنكم إن فعلتم ذلك أرسل الله - تعالى - عليكم المطر غزيرا متتابعاً فى أوقات حاجتكم إليه ، لتشربوا منه وتسقوا به دوابكم وزروعكم ...
وجملة « ويزدكم قوة إلى قوتكم » معطوفة على ما قبلها .

أى : وايضاً إن فعلتم ذلك زادكم الله - تعالى - عزاً إلى عزكم ، وشدة إلى شدتكم التى عرفتم بها ، ووهبكم الأموال الطائلة ، والذرية الكثيرة ...

قال الألوسى : ورغبتهم - عليه السلام - بكثرة المطر ، وزيادة القوة ، لأنهم كانوا أصحاب زروع وبساتين وعمارات . وقيل : حبس الله عنهم القطر وأعظم أرحام نساتهم ثلاث سنين ، فوعدهم هود على الاستغفار والتوبة كثرة الأمطار ، ومضاعفة القوة بالتناسل ... (١)

ثم حذرهم من مقابلة نعم الله بالكفر والجحود فقال : ولا تتولوا مجرمين ، والتولى : هو الإعراض عن الشئ - بإصرار وعناد .

أى : ولا تتولوا عما دعوتكم إليه وأقم مصرون على ما أقم عليه من لإجرام وجحود وعناد .

وإلى هنا يكون هود - عليه السلام - قد وضح لقومه دعوته ، ورغبتهم فى الاستجابة لها ، وحذرهم من الإعراض عنها ، وناداهم بلفظ - يا قوم - ثلاث مرات ، ترددوا إليهم ، وتذكيراً لهم بأصرة القرابة التى تجمعهم وإياه . لعل ذلك يستثير مشاعرهم ، ويعقق إطمأنانهم إليه ، فإن الرائد لا يكذب أهله .

ولسكن قوم هود - عليه السلام - قابلاً كل ذلك بالنطاول عليه ، والسخرية منه فقالوا : د قالوا يا هود ما جئتنا ببينة ...

والبينة : ما يتبين به الحق من الباطل . أى : قالوا له يا هود انك لم تجئنا بحجة تقنعنا بأنك على الحق فيما تدعوا إليه ، وترضى نفوسنا وطباعنا وعاداتنا ... ثم أضافوا إلى ذلك قولهم : وما نحن بتاركى آلهتنا عن قولك .

أى : وما نحن بتاركى آلهتنا بسبب قولك لنا الخالى عن الدليل : اتركوا عبادتها واجعلوا عبادتكم لله وحده .

ثم أكدوا إصرارهم على كفرهم بقولهم : وما نحن بمؤمنين ، أى : بمستجيبين لك ومصدقين .

ثم أضافوا إلى إصرارهم هذا - استخفافا به وبما يدعو إليه فقالوا : « إن
نقول إلا اعتراضك بعض آلهتنا بسوء ... »

ومعنى اعتراضك : أصابك ومسك . يقال عراه الألهة واعتراه أى أصابه .
وأصابه من قولهم : عراه يعروه ، أى : غشيه وأصابه . ومنه قول الشاعر :
وإني لتعروني لذكراك هزة ... أى تصيبني ..

أى : أى مانحن بتأكي آلهتنا عن قولك ، وما نحن لك بمتبعين ، بل عليك
أن تياس يأسا تاما من استجابتنا لك ، وحالتك التى نراها بأعيننا تجعلنا نقول
لك : إن سبك لآلهتنا جعل بعضها - لا كلها - يتسلط عليك ، ويوجه قدرته
نحوك ، فيصديك بالجنون والهذيان والأمراض ...

ولم يقولوا : « اعتراضك آلهتنا بسوء » بل قالوا : « بعض آلهتنا ، تهديدا له
وإشارة إلى أنه لو تصدت له جميع الآلهة لأهلكته إهلاكا .

وهكذا نراهم قد ردوا على نبيهم ومرشدهم بأربعة ردود ، تدرجوا فيها
من « سوء إلى الأسوأ » ، ومن القبيح إلى الأقيح .. مما يدل على توغلهم فى
الطغيان ، وبلوغهم النهاية فى العناد والكفر والجحود
قال صاحب الكشف ما ملخصه : (ان نقول الا اعتدك بعض آلهتنا
بسوء ...)

أى : مسك بجنون لسبك إياها ، وصدك عنها ، وعداوتك لها ، مكافأة
لك منها على سوء فعلك بسوء الجزاء . فن ثم صرت تتكلم بكلام المجانين
وتهذى بهذيان المبرمين ...

ثم قال . وقد دلت ردودهم المتقدمة على أن القوم كانوا جفاة غلاظ
الأكباد ، لا يبالون بالبهت ، ولا يلتفتون إلى النصيح ، ولا قلين شكيمتهم
تلك شمس .

وهذا الأخير دال على جهل مفرط ، وبله متناه ، حيث إعتقدوا فى حجارة

أنها تنتصر وتنتقم) (١)

والآن وبعد أن إستمع هود - عليه السلام - إلى ردودهم القبيحا ماذا كان موقفه منهم ؟

لقد كان موقفه منهم : موقف المتبرىء من شركهم ، والمتحدى لطغيانهم ، والمعتمد على الله - تعالى - وحده في الإقتصار عليهم ، ولقد حكى القرآن رده عليهم فقال :

(قال إني أشهد الله وأشهدوا أنى برىء مما تشركون . من دونه ، فمكيدون . حيماء ثم لا تنظرون . إني توكلت على الله ربي وربكم ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها ، إني ربي على صراط مستقيم . فإن تولوا فقد أبلغتكم ما أرسلت بكم اليكم ويستخلف ربي قوما غيركم ولا تضرونه شيئا ، إني ربي على كل شئ حفيظ) .

أى : قال هود - عليه السلام - للطلغاة من قومه بعزة وثقة (إني أشهد الله) الذى لا رب سواه على براءتى من عبادتكم لغيره .

(وأشهدوا) أفتم أيضا على (أنى برىء مما تشركون من دونه)

أى : على براءتى من كل عبادة تعبدونها لغير الله - تعالى - لأنها عبادة باطلة ، يحقرها العقلاء ، ويتنزه عنها كل إنسان يحترم نفسه .

فأنت تراه فى هذه الآية الكريمة يعلن إحترقاره لأهلهم ، وبراءته من شركهم ، وإستخفافه بأصنامهم التى زعموا أن بعضها قد أصابة بسوء ، وبوأ هذه البراءة بإشهاد الله - تعالى - وإشهادهم .

وذلك كما يقول الرجل لخصمه إذا لم يبال به : أشهد الله وأشهدك : أنى فعلت بك كذا وكذا ، وقلت فى حقك كذا وكذا . . . فافعل أذا ما بدا لك !!

ثم ينتقل من براءته من شركهم ، إلى تحديهم بثقة وإطمئنان فيقول :
(فكيدوني جميعا ثم لا تنظرون)

أى : لقد أعلنت أمامكم بكل قوة ووضوح أنى برىء من شرككم ،
وهاذا فى مواجهتكم ، فأنضموا إلى آلهتكم ، وحاربوني بما شئتم من ألوان
المحاربة والأذى بدون تربث أو إهمال ، فإننى لن أكف عن الجهر بدعوتى ،
ولن أراجع عن احتقار الباطل الذى أتم عليه .

وهذا — كما يقول صاحب الكشف — من أعظم الآيات ، أن يواجه
بهذا الكلام رجل واحد أمة عطاشا إلى إراقة دمه ، يرموته عن قوس واحدة
وذلك لثقتهم بربه ، وأنه يعصمه منهم ، فلا تنشب فيه مخالبهم . . . (١)

ثم ينتقل بعد ذلك إلى بيان السبب الذى دعاه إلى البراءة من شركهم ، وإلى
عدم المبالاة بهم فقال — كما حكى القرآن عنه — (إنا توكلت على الله ربي
وربكم . . .)

أى : إنا فوضت أمرى الى الله الذى هو ربي وربكم ، ومالك أمرى
وأمركم ، والذى لا يقع فى هذا الكون شيء الا بإرادته ومشيئته .

وفى قوله : (ربي وربكم) مواجهة لهم بالحقيقة التى ينكرونها ، لإفهامهم
أن انكارهم لا قيمة له ، وأنه انكار عن جحود وعناد . . . فهو — سبحانه —
رهم سواء أقبلوا ذلك أم رفضوه . وقوله (مامن دابة الا هو آخذ بناصيتها)
تصوير بديع لشمول قدرته — سبحانه — والأخذ : هو التناول للشيء عن
طريق الغلبة والقهر .

والناصية : منبت الشعر فى مقدم الرأس ، ويطلق على الشعر النابت نفسه .

قال الإمام الرازى : وأعلم أن العرب اذا وصفوا انسانا بالدلة والخضوع
قالوا : ماصية فلان الا بيد فلان . أى أنه مطيع له ، لأن كل من أخذت

بناصيته فقد قهرته . وكانوا اذا أسروا أسيرا وأرادوا إطلاقه جزوا ناصيته ليكون ذلك علامة لقهره ونخوطبوا في القرآن بما يعرفون (١)

والمعنى : انى اعتمدت على الله ربي وربكم : ما من دابة تدب على وجه الارض الا والله - تعالى - مالكها وقاهر لها ، وقادر عليها ، ومتصرف فيها كما يتصرف المالك في مملكته .

وفى هذا التعبير الحكيم صورة حسية بديعة تناسب المقام ، كما تناسب غلظة قوم دود وشذتهم . وصلاية أجسامهم وبنيتهم ، وجفاف حسهم ومشاعرهم . . . فكانه - عليه السلام - يقول لهم : انكم مهما بلغتكم من القوة والبطش ، فما أنتم الا دواب من تلك الدواب التى يأخذ ربي بناصيتها ، ويقهرها بقوته قهراً يهلكها - اذا شاء ذلك - فكيف أخشى دواباً مثلكم مع توكلى على الله ربي ود ربكم ١١٤

ثم يتبع هذا الوصف الدال على شمول قدرة الله - تعالى - بوصف آخر يدل على عدالته وتنزهه عن الظلم فيقول : (ان ربي على صراط مستقيم) أى : ان ربي قد اقتضت سنته أن يسلك فى أحكامه طريق الحق والعدل وما دام الأمر كذلك فلن يسلطكم على لانه - حاشاء - أن يسلط من كان متمسكاً بالباطل ، على من كان متمسكاً بالحق .

واكتفى هنا بإضافة الرب إلى نفسه ، للإشارة إلى أن لطفه - سبحانه - يشمل هوداً وحده ولا يشملهم ، لأنهم أشركوا معه فى العبادة آلهة أخرى . ثم ختم هود - عليه السلام - رده على قومه ، بتحذيرهم من سوء عاقبة إصرارهم على كفرهم فقال : (فإن تولوا فقد أبلغتكم ما أرسلت به إليكم . . .)

أى : فإن تولوا عن دعوتى ، وتعرضوا عن الحق الذى جئتكم به من عند ربي . فتكون عاقبتكم خسرًا ، وأمركم فرطًا .

أما أنا فقد أديت واجبي ، وأبلغتكم ما أرسلت به إليكم من عند ربي بدون تكاسل أو نقصير : وقرله (ويستخلف ربي قوما غيركم ولا تضرونه شيئا) وعيد لهم بإهلاكهم وإحلال غيرهم محلهم .

أى : وهو - سبحانه - سبب إصراركم على كفركم في الوقت الذى يشاءه ، ويستخلف من بعدكم قوما آخرين سواكم ، يرثون دياركم وأموالكم ، ولن تضروا الله شيئا من الضرر بسبب إصراركم على كفركم ، وإنما أنتم الذين تهترون أنفسكم بتهريضها للدمار فى الدنيا ، وللعذاب الدائم فى الآخرة .

وقوله : إن ربي على كل شيء حفيظ ، أى : إن ربي قائم على كل شيء بالحفظ والرقابة والهيمنة ، وقد اقتضت سنته - سبحانه - أن يحفظ رساله وأوليائه ، وأن يخذل أعداءه .

وإلى هنا تكون السورة الكريمة قد ساقتنا بأسلوب بليغ حكيم ، جانبا من الحوار الذى دار بين هود وقومه وهو يدعوهم إلى عبادة الله وحده ، فإذا كانت نتيجة هذا الحوار والجدل ؟

لقد كانت نتيجة إنجاء هود والذين آمنوا معه ، وإهلاك أعدائهم . قال - تعالى - : ولما جاء أمرنا نجينا هودا والذين آمنوا معه برحمة منا ، ونجيناهم من عذاب غليظ ، وتلك عاد جحدوا بآيات ربهم وعصوا رساله واتبعوا أمر كل جبار عنيد . واتبعوا فى هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة ، ألا إن عاد اكفروا بربهم ألا بعدا لعاد قوم هود .

والمراد بالامر فى قوله - سبحانه - : ولما جاء أمرنا ، الامر بنزول العذاب بهم .

أى : وحين جاء أمرنا بتحقيق وعيدنا فى قوم هود ، وبتنفيذ ما أردناه من إهلاكهم وتدميرهم ، نجينا هودا والذين آمنوا معه ، نتيجة مصحوبة برحمة ، عظيمة كائنة منا ، بسبب إيمانهم وعملهم الصالح .

«ونجيناهم، كذلك «من عذاب غليظ، أى : من عذاب منخم شديد هذا وصف
رك هؤلاء الطغاة وراه صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية .

ووصف العذاب بأنه غليظ ، بهذا التصوير المحسوس ، يتناسب كل التناسب
مع جو هذه القصة ، ومع ما عرف عنه قوم من ضخامة فى الأجسام ، ومن
تفاخر بالقوة ..

قال - تعالى - «فأما عاد فاستكبروا فى الأرض بغير الحق وقالوا من
أشد منا قوة ...» (١)

وكان عذابهم كما جاء فى آيات أخرى بالريح العقيم ، ومن ذلك قوله
- تعالى - «وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية . سخرها عليهم سبع ليال
وثمانية أيام حسوما فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية ..»

واسم الإشارة فى قوله - سبحانه - «وتلك عاد ...» ، يعود إلى القبيلة
أو إلى آثارهم التى خلفوها من بعدهم . أى : وتلك هى قصة قبيلة عاد مع نبيها
هود - عليه السلام - وتلك هى عاقبتهم . وكانت الإشارة للبعيد تحقيرا لهم ،
وتهويانا من شأنهم بعد أن انتهوا ، وبعدوا عن الأنظار والأفكار ، وقد كانوا
يقولون : من أشد منا قوة ..

وقوله : «جحدوا بآيات ربهم وعصوا رسله ، واتبعوا أمر كل جبار
عنيد ...» بيان لجرائمهم التى استحقوا بسببها العذاب الغليظ .

والجحد : الإنكار الشديد للحق الواضح .

وآيات ربهم : الحجج والبراهين التى جاء بها الأنبياء من ربهم للدلالة
على صدقهم .

والجبار : هو الشخص المتعالى المتعظم على الناس ، المترفع عن
الاستجابة للحق .

والعنيد : المعاند الطاغى الذى يعرف الحق ولكنه لا يتبعه .

أى : وتلك هى قصة قبيلة عاد مع نبيها ، كفروا بآيات ربهم الدالة على صدق أنبيائه ، وعصوا رسله الذين جاءوا لهدايتهم ، واتبع سفلتهم وعوامهم أمر كل رئيس متجبر متكبر معاند منهم ، بدون تفكير أو تدبر .

وقال - سبحانه - : « وعصوا رسله » مع أنهم قد عصوا رسولا واحدا هو هود - عليه السلام - ، للإشارة إلى أى معصيتهم لهذا الرسول كأنها « معصية للرسول جميعا » ، لأنهم قد جاءوا برسالة واحدة فى جوهرها وهى : عبادة الله - تعالى - وحده ، والتقيد بأوامره ونواهيه .

والإشارة أيضا إلى ضخامة جرائمهم ، وإبراز شناعتهما حيث عصوا رسلا لا رسولا :

وقد وصفهم - سبحانه - فى هذه الآية بثلاث صفات هى أعظم الصفات فى القبح والشناعة : أولها : جحودهم لآيات ربهم ، وثانيها : عصيانهم لرسله . وثالثها : اتباعهم أمر رؤسائهم الطغاة .

ثم ختم - سبحانه - قصتهم مع نبيهم فى هذه السورة بقوله : « واتبعوا فى هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة ... »

والاتباع : اقتفاء أثر الشئ بحيث لا يفوته . يقال : اتبع فلان فلانا إذا اقتفى أثره لكي يدركه أو يسير على نهجه .
واللعنة : الطرد بإهانة وتحقير .

أى : أنهم هلكوا مشيعين ومتبوعين باللعن والطرد من رحمة الله فى الدنيا والآخرة .

وقوله : « ألا ان عادا كفروا ربهم » ألا بعدا لعاد قوم هود ، تسجيل لحقيقة حالهم ، ودعاء عليهم بدوام الهلاك ، وتأكيده لخطأ الله عليهم .
أى : ألا ان قوم عاد كفروا بنعم ربهم عليهم ، ألا سحقا وبعدا لهم عن

رحمة الله ، جراء جحودهم للحق ، وإصرارهم على الكفر ، واستحبابهم العمى على الهدى .

وتكرير حرف التنبيه «آلا» وإعادة لفظ دعاء المبالغة في تهويل حالهم وللحوض على الاعتبار والاتعاظ بما آلمهم .
هذا ، ومن العبر البارزة في هذه القصة :

١ - أن الداعى إلى الله ، عليه أن يذكر المدعوين بما يستثير مشاعرهم ، ويحقق إضمتانهم إليه ، ويرغبهم في اتباع الحق ، ببيان أن اتباعهم لهذا الحق سيؤدى إلى زيادة غنائم وقوتهم وأمنهم وسعادتهم

وأن الاحراف عنه سيؤدى إلى فقرهم وضعفهم وهلاكهم

انظر إلى قول هود - عليه السلام - : « يا قوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه ، يرسل السماء عليكم مدرارا ، ويزدكم قوة إلى قوتكم ، ولا تتولوا الجرمين » .
٢ - وأن الداعى إلى الله - تعالى - عندما يخلص لله دعوته ، ويعتمد عليه - سبحانه - في تبليغ رسالته ، ويفار عليها كما يفار على عرضه أو أشد ...

فإنه في هذه الحالة سيقف في وجه الطغاة المناوئين للحق ، كالطود الأشم ، دون مبالاة بتهديدهم ووعيدهم ... لأنه قد آوى إلى ركن شديد .

وهذه العبرة من أبرز العبر في قصة هود عليه السلام -

ألا تراه وهو رجل فرد يواجهه قوما غلاظا شدادا طغاة ، إذا بطشوا بطشه ا جبارين ، يدلون بقوتهم ويقولون في زهو وغرور : من أشد مناقرة .

ومع كل ذلك عندما يتطاولون على عقيدته ؛ ويأمرهم قدأصروا على عصيانه .
يواجههم بقوله : « إني أشهد الله وأشهدوا أنى برىء مما تشركون . من دونه فكيدنى جميعا ثم لا تنظرون . »

أرأيت كيف واجه هودا - عليه السلام - هؤلاء الغلاظ الشداد بالحق
الذي يؤمن به دون مبالاة بوعيدهم أو تهديدهم ؟
وهكذا الإيمان بالحق عندما يختلط بالقلب يجعل الإنسان يجهر به
دون أن يخشى أحداً إلا الله - تعالى -

ثم واصلت السورة الكريمة حديثها عن قصص بعض الأنبياء مع أقوامهم
فتحدثت عن قصة صالح - عليه السلام - مع قومه ، فقال - تعالى -

« وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ
غَيْرُهُ ، هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَ كُمْ فِيهَا ، فَاستَغْفِرْ لَهُ ثُمَّ تَوَبُّوا
إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ (٦١) قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا
قَبْلَ هَذَا ، أَتَنهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا
إِلَيْهِ مُرِيبٌ (٦٢) قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيْتَةٍ مِّن رَّبِّي ،
وَأَنذَرْتُمْنِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ
تَخْسِيرٍ (٦٣) وَيَا قَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ ، فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ
اللَّهِ وَلَا تَعْسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ (٦٤) فمَقَرُّوهَا فَقَالَ
مُتَمِّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ، ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ (٦٥) فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا
تَجِئْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمٍئِذٍ ، إِنَّ
رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ (٦٦) وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي
دِيَارِهِمْ جَائِعِينَ (٦٧) كَأَن لَّمْ يَفْتَنُوا فِيهَا ، أَلَا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ
أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ (٦٨) »

هذه قصة صالح - عليه السلام - مع قومه كما ذكرتها هذه السورة ، وقد
وردت هذه القصة في سور أخرى منها سورة الأعراف ، والشعراء ،
والنمل ، والقمر . .

وصالح - عليه السلام - ينتهى نسبه إلى نوح - عليه السلام - فهو صالح بن عير بن آسف بن ماسح بن عبيد بن حاذر بن ثمود ... بن نوح .

وثمود : إسم للقبيلة التى منها صالح ، سميت باسم جدها ثمود ، وقيل سميت بذلك لقلة ماؤها ، لأن الثمد هو الماء القليل .

وكانت مساكنهم بالحجر - يكسر الحاء وسكون الجيم - وهو مكان يقع بين الحجاز والشام إلى وادى القرى ، وموقعه الآن - تقريباً - المنطقة التى بين الحجاز وشرق الأردن ، وما زال المكان الذى كانوا يسكنونه يسمى بمدائن صالح حتى اليوم ...

وقبيلة صالح من القبائل العربية ، وكانوا خلفاء لقوم هود - عليه السلام فقد قال - سبحانه - : « واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد وبوأكم فى الأرض تتخذون من سهولها قصوراً ، وتنحتون الجبال يهوتاً ... » (١)

وكانوا يعبدون الأصنام ، فأرسل الله - تعالى - إليهم صالحاً ليأمرهم بعبادة الله وحده .

وفوله : « وإلى ثمود أخاهم صالحاً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ... » ، معطوف على ما قبله من قصتى نوح وهود - عليهما السلام -

أى : وأرسلنا إلى قبيلة ثمود أخاهم فى النسب والموطن صالحاً - عليه السلام فقال لهم تلك الكلمة التى قالها كل نبي لقومه : يا قوم اعبدوا الله وحده ، فهو الإله الذى خلقكم ورزقكم ، وليس هناك من إله سواه يفعل ذلك .

ثم ذكرهم بقدرة الله - تعالى - وبنعمه عليهم فقال : « هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها ، »

والإنشاء : الإيجاد والإحداث للشيء على غير مثال سابق .

. واستعمركم من الإعمار ضد الخراب فالسین والتاء للبالغة . يقال : أعمر فلان فلاناً في المكان واستعمره ، أى جعله يعمره بأنواع البناء والفرس والزرع . . .

أى : اعبدوا الله - تعالى - وحده ، لأنه - سبحانه - هو الذى أبتدأ خلقكم من هذه الأرض ، وأبوكم آدم ما خلق إلا منها وهو الذى جعلكم المعمرين لها ، والساكنين فيها ، تتخذون من سهولها قصوراً ، وتنحتون الجبال بيوتاً . . .

قال - تعالى - فى شأنهم . ، أتركون فيما ها هنا آمنين . فى جنات وعيون . وزروع ونخل طلعها هضيم . وتنحتون من الجبال بيوتاً فارحين . فاتقوا الله وأطيعون . ، (١)

فأنت ترى أن صالحاً - عليه السلام - قد ذكرهم بجانب من مظاهر قدرة الله ومن أفضله عليهم ، لى يستميلهم إلى التفكير والتدبير ، وإلى تصديقه فيما يادعوههم إليه .

والفاء فى قوله : فاستغفروه ثم توبوا إليه ، للتفريع على ما تقدم .

أى : إذا كان الله - تعالى - هو الذى أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها فعليكم أن تخلصوا له العبادة . وأن تطلبوا مغفرته عما سلفه منكم من ذنوب ثم تتوبوا إليه توبة صادقة : تجعلكم تذهبون على ما كان منكم فى الماضى من شرك وكفر ، وتعزمون على التمسك بكل ما يرضى الله - تعالى - فى المستقبل .

ثم فتح أمامهم باب الأمل فى رحمة الله - تعالى - فقال : : إن ربي قريب مجيب . .

أى : إن ربي قريب الرحمة من المحسنين ، يجيب لدعاء الداعين المخلصين ،
فاتقبلوا على عبادته وطاعته ، ولا تقنطوا من رحمة الله .

ثم حكى القرآن ما رد به قوم صالح عليه فقال : د قالوا يا صالح قد كنت
فينا مرجوا قبل هذا .. ،

أى : قال قوم صالح له بعد أن دعاهم لما يسعدهم : يا صالح لقد كنت فينا
رجلا فاضلا نرجوك لمهمات الأمور فينا لعلنا وعقناك وصدقك ... قبل أن
تقول ما قلته ، أما الآن وبعد أن جئتنا بهذا الدين الجديد فقد خاب رجاؤنا
فيك ، وصرت في رأينا رجلا نختل التفكير ...

فالإشارة في قوله د قبل هذا ، إلى الكلام الذي خاطبهم به حيث بعثه
الله إليهم .

والاستفهام في قولهم د أتنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا للتعجيب والإنكار .
أى : أجمعتنا بدعوتك الجديدة لتنهانا عن عبادة الآلهة التي كان يعبدونها
آباؤنا من قبلنا ؟

لا ، إنما لن نستجيب لك ، وإنما نحن قد وحدنا آباءنا على دين ولا نتعالى
آثارهم نسير .

ثم ختموا ردهم عليه بقولهم : د وإننا لنرى شك عما تدعونا إليه مريب ، .
ومريب : اسم فاعل من أراب . تقول : أربت فلانا فأنا أربيه ، إذا فعلت
به فعلا يوجب لديه الريبة أى : القلق والاضطراب .

أى : لن نترك عبادة الأصنام التي كان يعبدونها آباؤنا ، وإنما لنرى شك
كبير ، وريب عظيم من صحة ما تدعونا إليه .

فانظر كيف قابل هؤلاء السفهاء الدعوة إلى الحق بالتصميم على الباطل ،
ولكن صالحا - عليه السلام - لم ييأس بل يرد عليهم بأسلوب حكيم فيقول :

د قال يا قوم أرايتم إن كنت على بينة من ربي ، وآتاني منه رحمة ، فمن
ينصروني من أمم إن عصيته ، فما تزيدوني غير تخسير ،

أى قال صالح - عليه السلام - لقومه : يا قوم أخبروني إن كنت على حجة واضحة من ربى ومالك أمرى .

وآتاني منه رحمة ، أى : وأعطاني من عنده لا من عند غيره رحمة عظيمة حيث اختارنى لحل رسالته . وتبليغ دعوته .

وجملة : فمن ينصرفنى من الله إن عصيته ، جواب الشرط وهو قوله : إن كنت على بينة . . .

أى : إذا كان الله - تعالى - قد منحنى كل هذه النعم . وأمرنى بأن أبلغكم دعوته ، فمن ذا الذى يحيرنى ويصدمنى من غضبه ، إذا أنا خالفت أمره أو قصرت فى تبليغ دعوته ، احتفاظاً برجائكم فى ، ومسايرتى لكم فى باطلكم ؟

لا ، إني سأستمر فى تبليغ ما أرسلت به إليكم ، ولن يمنعنى عن ذلك ترغيبكم أو ترهيبكم .

وقوله : فما تزيدونى غير تخسير ، تصريح منه بأن ما عليه هو الحق الذى لا يقبل الشك أو الريب ، وأن مخالفته أوصل إلى الهلاك والخسران .

والتخسير : مصدر خسر . يقال خسر فلان فلانا إذا نسبه إلى الخسران .
أى : فما تزيدونى بطاعتكم ومعصية ربى غير الوقوع فى الخسران ، وغير التعرض لعذاب الله وسخطه ، وحاشاى أن أخالف أمر ربى لإرضاء لكم . . .
فالآية : كريمة تصور تصويراً بليغاً ما كان عليه صالح - عليه السلام - من إيمان عميق بالله - تعالى - ، ومن ثبات على دعوته ، ومن حرص على ضلوعته - سبحانه -

ثم أرشد صالح - عليه السلام - إلى المعجزة الدالة على صدقه فيما يبلّغه عن ربه فقال :

« يا قوم هذه ناقة الله لكم آية . . . » ، أى : معجزة ، واضحة دالة على صدقى وفى إضافة الناقة إلى الله - تعالى - تعظيم لها وتشريف لحالها ، وتنبيه على

أنها ناقة مخصصة ليست كغيرها من النوق التي تستعمل في الركوب والنحر وغيرهما . لأن الله - تعالى - قد جعلها معجزة لنبيه صالح - عليه السلام - ولم يجعلها كغيرها .

وقد ذكر بعض المفسرين من صفات هذه الناقة وخصائصها . ما : يؤيده قتل صحيح ، لذا أضربنا عن كل ذلك صفحا ، ونكتفي بأن نقول : بأنها كانت ناقة ذات صفات خاصة بميزة ، تجعل قوم صالح يعلمون عن طريق هذا التمييز لها عن غيرها أنها معجزة دالة على صدق نبينهم - عليه السلام - فيما يدعونهم إليه .

وقوله : « فذروها تأكل في أرض الله ، ولا تمسوها بسوء فإخذكم عذاب قريب ، أمر لهم بعدم التعرض لها بسوء وتحذير لهم من نتائج مخالفة أمره .
 أى : اتركوا الناقة حرة صليقة تأكل في أرض الله لو اسعته ومن رزقه الذى تكفل به لىكل دابة ، واحذروا أن تمسوها بشئ من سوء مهما كان قليلا ، فإنكم لو فعلتم ذلك عرضتم أنفسكم لعذاب الله العاجل القريب .
 والتعبير بقوله « فإخذكم » بفاء التعقيب ولفظ الأخذ ، يفيد سرعة الأخذ وشدته ، لأن أخذه - سبحانه - أليم شديد .

ولكن قوم صالح - عليه السلام - لم يستمعوا إلى تحذيره ، بل قابلهوا بالطغيان والعصيان ، « ففقروها ، أى : فقروا الناقة وعتوا عن أمر ربهم وقالوا يا صالح ائتنا بما تعدنا إن كنت من المرسلين » (١) .

والفاء معطوفة على محذوف : أى خالفوا ما نهاهم عنه نبيهم فقروها أى نحروها وأصل العقر : قطع عرقوب البعير ، ثم استعمل في النحر لأن ناجر البعير يقال له عقر ثم ينحرو فقال لهم صالح - عليه السلام - بعد عقرها « تمتعوا في داركم ثلاثة أيام ذلك وعد غير مكذوب » .

والتمتع : الانتفاع بالمتاع ، وهو اسم لما يحتاج اليه الإنسان في هذه الحياة من مأكـل ومشرب وغيرهما .

والمراد بدارهم : أماكن سكناهم التي يعيشون فيها .
أى : قال لهم فيهم بعد نحرهم للفاقة : عيشوا في بلدكم هذا ، متمتعين بما فيه من نعم لمدة ثلاثة أيام : فقط ، فهي آخر ما بقي لكم من متاع هذه الدنيا ، ومن أيام حياتكم .

ذلك ، الوعد بنزول العذاب بكم بعد هذه المدة القصيرة .
بعد غير مكذوب ، فيه لأنه صادر من الله - تعالى - الذي لا يخلف وعده .
وعبر عن قرب نزول العذاب بهم بالوعد على سبيل التهكم بهم .
قل الجمل : « ومكذوب ، يجوز أن يكون مصدرا على وزن مفعول ، وقد جاء من ألفاظ نحو : المجنود والمنقول والمنشور والمغبون ، ويجوز أن يكون اسم مفعول على بابه وفيه تأويلان : أحدهما : غير مكذوب فيه ، ثم حذف حرف الجر فأنصل الضمير مرفوعا مستترا في الصفة ومثله : يوم مشهود . والثاني : أنه جمل هو نفسه غير مكذوب ، لأنه قد وفى به ، وإذا وفى به فقد صدق ، (١)

ولقد تحقق ما وعدهم به فيهم ، فقد حل بهم العذاب في الوقت الذي حدد لهم ، قال - تعالى - فلما جاء أمرنا ، أى : فلما جاء أمرنا بأنزل العذاب بهم في الوقت المحدد .

ونجينا صالحا والذين آمنوا معه برحمة منا ، أى برحمة عظيمة كائنة منا .
ونجيناهم أيضا من خزي : أى : من خزي وذل ذلك اليوم الهائل الشديد الذي نزل فيه العذاب بهم بالذين آمنوا من قوم صالح - عليه السلام - فأبادهم فالتنوين في قوله « يومئذ » عوض عن المضاعف لإيه المحذوف .

وقوله - سبحانه - « إن ربك هو القوى العزيز ، نسلية لارسول - صلى الله عليه وسلم - والبقين عما أصابهم من أذى .

(١) حاشية الجمل على الجلالين ج ٤ ص ٨٠٨ ؛

أى : إن ربك - أيها الرسول الكريم - هو القوي الذي لا يعجزه شر العزيز الذي يؤمن من يتولاه ويرعاه ، فلا تبئس بما أصابك من قرك ، فربك قادر على أن يفعل بهم ، ما فعله بالظالمين السابقين من أمثالهم .

ثم صور القرآن الكريم حال هؤلاء الظالمين تصويراً يدعو إلى الاعتبار والاتعاظ فقال : « وأخذ الذين ظلموا الصيحة ، فأصبحوا في ديارهم جائعين . كأن لم يغنوا فيها ، ألا إن ثمود كفروا ربهم ألا بعداً لثمود ، » .

والصيحة : الصوت المرتفع الشديد . يقال : صاح فلان إذا رفع صوته بقوة . وأصل ذلك تشقيق الصوت ، من قولهم : إنصاح الخشب والشوب ، إذا انشق فسمع له صوت .

« وجائمين ، : من الجثوم وهو للناس وللطيور بمنزلة البروك للابل . يقال : جثم الطائر بجثم جثما وجثوما فهو جائم ... إذا وقع على صدره ، ولزمه مكانه فلم يبرحه .

ويعنوا فيها : أى يقيموا فيها . يقال : غنى فلان بالمكان يغنى إذا أقام به وعاش فيه في نعمة ورغد .

أى : وأخذ الذين ظلموا من قوم صالح - عليه السلام - العذاب عن طريق الصيحة الشديدة التي صيحت بهم بأمر الله - تعالى - « فأصبحوا ، بسببها » في ديارهم جائمين ، أى : هلكى صرعى ، ساقطين على وجوههم ، بدون حركة ...

« كأن لم يغنوا فيها ، أى : كأن هؤلاء القوم الظالمين لم يقيموا في ديارهم عمراً طويلاً وهم في رخاء من عيشهم ، ...

« ألا إن ثمود كفروا ربهم ألا بعداً لثمود ، أى : ألا إن هؤلاء الظالمين من قبيلة ثمود ، كفروا نعمة ربهم ووجودها : ألا بعداً وسحقاً ومهلكاً لهؤلاء المجرمين من قبيلة ثمود .

وفي تكرار حرف التنبيه « ألا » وتكرار لفظ « هود » تأكيد لطردهم من رحمة الله ، وتسجيل لما ارتكبوه من منكرات ،

وبذلك انطوت صفحة أو لثك الظالمين من قوم صالح - عليه السلام - كما انطوت من قبلهم صحائف قوم نوح وهود - عليهما السلام - .

ومن أبرز العبر والعظات التي نأخذها من قصة صالح مع قومه كما وردت في هذه السورة الكريمة : أن النفوس إذا انطمست ، والعقول إذا اقتسخت ، تعجب فلا عجب فيه ؛ ويستنكر ما هو حق وصدق ، وتسيء ظنّها بالشخص الذي كان بالأمس القريب موضع رجائها وثقتها ، لأنه أتاها بما لم يألوه ... حتى ولو كان ما أتاها به فيه سعادتهم وهدايتهم ...

فصالح - عليه السلام - كان مرجوا في قومه قبل أن يكون نبيا ، فلما صار نبيا وبلغهم ما أرسله الله به ، خاب أملهم فيه ، وساء ظنهم به ، وجأهروه بالعداوة والعصيان ... مع أنه إنما أتاها بما يسعدهم ...

وصدق الله إذ يقول : « سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق ، وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها ، وإن يروا سبيل الرشدا لا يتخذوه سبيلا ، وإن يروا سبيل الغي يتخذوه سبيلا ، ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين ، (١) »

هذا ، وقد وردت أحاديث تصرح بأن الرسول - صلى الله عليه وسلم - قد مر على ديار « ودهو » في طريقه إلى غزوة تبوك .

ومن هذه الأحاديث ما رواه الشيخان عن ابن عمر قال : لما مر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بالحجر قال : لا تدخلوا على هؤلاء المعذنين إلا أن تكونوا باكين ، فإن لم تكونوا باكين ، فلا تدخلوا عليهم ، لئلا يصيبكم ما أصابهم . ثم قنع رأسه وأسرع السير حتى جاوز الوادي ،

ثم ساقَت السورة الكريمة جانباً من قصة إبراهيم - عليه السلام - مع الملائكة ، الذين جاءوه بالبشارة ، فقال - تعالى - .

« ولقد جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى ، قالوا سلاماً قال سلامٌ فالت أن جاء بعجلٍ حنيدٍ (٦٩) فلما رأى أيديهم لا تصل إليه نكرهم وأوجس منهم خيفةً قالوا لا تخف إنا أرسلنا إلى قومِ لوطِ (٧٠) وامرأته قائمةٌ فضحكت ، فبشرناها بإسحاق ومن وراءه إسحاق يعقوب (٧١) قالت يا ويلتا أألدُ وإنا عجزوزٌ وهذا بغلي شيخاً إن هذا لشيءٌ عجيبٌ (٧٢) قالوا أتعجبين من أمرِ اللهِ رحمه الله وبركاته عليهم أهل البيتِ إنه حميدٌ مجيدٌ (٧٣) فلما ذهب عن إبراهيم الرؤع وجاءته البشرى يجادلنا في قومِ لوطِ (٧٤) إن إبراهيم لحيمٌ أوّاهٌ منيبٌ (٧٥) يا إبراهيمُ أعرض عن هذا إنه قد جاء أمرُ ربك ، إنهم آتيهم عذابٌ غيرُ مردودٍ (٧٦) » .

هذه قصة إبراهيم - عليه السلام - مع الملائكة الذي جاءوا لبشارة بانه إسحاق ، وبإخباره بإهلاك قومِ لوط - عليه السلام -

وقد وردت هذه القصة في سور أخرى منها سورة الحجر في قوله - تعالى - :
« ونبئهم عن ضيف إبراهيم . إذ دخلوا عليه فقالوا سلاماً ، قالوا إنا منكم وجلون » (١)

ومنها سورة الذاريات في قوله - تعالى - . « هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين . إذ دخلوا عليه فقالوا سلاماً ، قال سلام قوم ضيكون ... » (٢)

(١) الآيات من ٥٢ إلى ٦٠ .

(٢) الآيات من ٢٤ إلى ٣٧ .

والمراد بالرسول في قوله - سبحانه - «وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبَشْرِىَ»
 اعة من الملائكة الذين أرسلهم الله - تعالى - لتبشير إبراهيم بابنه إسحاق .
 وقد اختلفت الروايات في عددهم فعن ابن عباس أنهم ثلاثة وهم: جبريل
 وميكائيل وإسرافيل . وعن الضحاك أنهم كانوا تسعة ، وعن السدي أنهم كانوا
 حد عشر ملكاً ...

والحق أنه لم يرد في عددهم نقل صحيح يعتمد عليه ، فلنفوض معرفة عددهم
 إلى الله - تعالى - .

والبشرى : اسم للتبشير والبشارة وهي الخبر السار ، فهي أخص من الخبر ،
 سميت بذلك لأن آثارها تظهر على بشرة الوجه أى : جلده .

وجاءت هذه الجملة الكريمة بصيغة التأكيـد للاهتمام بمضمونها ، وللرد على
 شركى قريش وغيرهم ممن كان ينسكـر هذه القصة وأمثالها .

والباء في قوله - سبحانه - «وَالْبَشْرِىَ» المصاحبة والملازمة ، أى :
 جاءوه مصاحبين وملتبسين بالبشرى .

وقوله : «قَالُوا سَلامًا» قال سلام ، حكاية لتحييتهم له ولرده عليهم .

«وَسَلامًا» منصوب بفعل محذوف . أى قالوا نسلم عليك سلاماً .

«وَسَلامًا» مرفوع على أنه خبر لمبتدأ محذوف . أى قال أمرى سلام .

وقرأ حمزة والكسائي : قال سلم وهو اسم للمسالمة .

ثم بين - سبحانه - ما فعل إبراهيم مع هؤلاء الرسل من مظاهر الحفاوة
 والتكريم فقال : «فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ» .

و«ما» في قوله «فَمَا لَبِثَ» نافية ، والفاء للتعقيب ، واللبث في المسكان
 معناه : عدم الانتقال عنه . والعجل : الصغير من البقر .

والحنيز : السمين المشوى على الحجارة المحماة في حفرة من الأرض . يقال :

حنز الشاة يحنذها حنذاً أى : شواها بهذه الطريقة

أى : فما أبطأ وما تأخر إبراهيم - عليه السلام - عن إكرامهم ، بل بمجرأ
أن انتهى من رد التحية عليهم ، أسرع إلى أهله فجاءهم بعجل حنيذ
وهذا الفعل منه - عليه السلام - يدل على سعة جوده ، وعظيم سخائه .
فإن من آداب الضيافة ، تعجيل القرى للضيف ..

قال أبو حيان : والأقرب في إعراب « فما لبث أن جاء ... » أن تكون « ما »
نافية ، « لبث » معناه تأخر وأبطأ ، « وأن جاء » فاعل لبث والتقدير : فما
تأخر مجيئه ...

ويحوز أن يكون فاعل لبث ضمير إبراهيم ، وأن جاء على إسقاط حرف
الجر ، أى فما تأخر في أن جاء بعجل حنيذ ... (١)

ثم بين - سبحانه - حال إبراهيم عندما رأى ضيوفه لا يأكلون من طعامه
فقال : « فلما رأى أيديهم لا تصل إليه فكرهم وأرجس منهم خيفة ... »
ومعنى « فكرهم » : نفر منهم ، وكره تصرفهم . نقول : فلان فكر حال
فلان - كعلم - وأنكره ففكرأ وفكورا ... إذا وجدته على غير ما يعمده فيه ،
ويتوقعه منه .

و « أوجس » من الوجس وهو الصوت الخفى ، والمراد به هنا : الإحساس
الخفى بالخوف والفرع الذى يقع فى النفس عند رؤية ما يقلقها ويخيفها .

أى : فلما رأى إبراهيم - عليه السلام - ضيوفه لا تمتد أيديهم إلى الطعام
الذى قدمه لهم ، نفر منهم ، وأحس فى نفسه من جهتهم خوفا ورعبا ؛ لأن
امتناع الضيف عن الأكل من طعام مضيفه - بدون سبب مقنع - يشعر بأن
هذا الضيف يغوى شرابه ... والتقاليد فى كثير من البلاد إلى الآن تؤيد ذلك .

ولذا قال الملائكة لإبراهيم عندما لاحظوا ما يساور نفسه من الخوف :
« لا تخف إنا أرسلنا إلى قوم لوط ،

(١) تفسير البحر المحيط لأبى حيان - ج ٥ ص ٢٤١ طبعة دار الفكر ...

أى : لا تخف يا إبراهيم فإننا لسنا ضيوفا من البشر ، وإنما نحن رسل من الله - تعالى - أرسلنا إلى قوم لوط لإهلاكهم .

وقد جاء في بعض الآيات أنه صار حرم بالخوف منهم ، ففي سورة الحجر قال - تعالى - : « وثبتهم عن ضيف إبراهيم . إذ دخلوا عليه فقالوا سلاما ، قال إنما ننسكم وجلون . قالوا لا تؤجل إنما نبشرك بغلام عليم . . . » .

ثم حكى - سبحانه - ما حدث بعد ذلك فقال : « وامرأته قائمة فضحكت فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب . » .

والمراد بامرأته - كما يقول القرطبي - « سارة بنت هاران بن ناحور ، ابن شاروع ، بن أرغو ، ابن فالغ ، وهى بنت عم إبراهيم ^(١) » .
وقيامها كان لأجل قضاء مصالحها ، أو لأجل خدمة الضيوف
أو لغير ذلك من الأمور التي تحتاجها المرأة في بيتها .

والمراد بالضحك هنا حقيقة . أى : فضحكت سرورا وابتهاجا بسبب زوال الخوف عن إبراهيم ، أو بسبب علمها بأن الضيوف قد أرسلهم الله لإهلاك قوم لوط ، أو بهما معا . . .

قال الشوكاني : والضحك هنا هو الضحك المعروف الذي يكون للتعجب والسرور كما قاله الجمهور .

وقال مجاهد وعكرمة : إنه الحيض ، ومنه قول الشاعر :
ولماني لآتي العرس عند طهورها وأهجرها يوما إذانك ضاحكا
وقد أنكر بعض اللغويين أن يكون في كلام العرب ضحكت بمعنى حاضنت ^(٢) .
أى : وفي أعقاب قول الملائكة لإبراهيم لا تخف ... كانت امرأته قائمة بقضاء بعض حاجاتها ، فلما سمعت ذلك ، ضحكت ، سرورا وفرحا لزوال خوفه

(١) تفسير القرطبي ج ٩ ص ٧٠

(٢) تفسير فتح القدير للشوكاني ج ٢ ص ٥١٠

« فبشرناها ، عقب ذلك بمولودها ، إسحاق ، كما بشرناها بأن إسحاق سيكون من نسله » يعقوب ، « فهي بشارة مضاعفة . إذ أنها تحمل في طياتها أنها ستعيش حتى ترى ابن ابنها ...

ولا شك أن المرأة عندما تكون قد بلغت سن اليأس . ولم يكن لها ولد ، ثم تأتيها مثل هذه البشارة بهتز كيانها ، ويزداد عجبها ، ولذا قالت على سبيل الدهشة والاستغراب : « يا وليتا ألد وأنا عجوز وهذا بعلي شيخا إن هذا لشيء عجيب » .

وكلمة : « يا وليتا » تستعمل في التحسر والتألم والتفجع عند نزول مكروه . والمراد بها هنا : التعجب لا الدعاء على نفسها بالويل والهلاك ، وهي كلمة كثيرة الدوران على أفواه النساء إذا طرأ عليهن ما يدهشن له ، ويتمعجن منه .

أى : قالت بدهشة وعجب عندما سمعت بشارة الملائكة لها بالولد وبولد الولد : يا للعجب ألد وأنا امرأة عجوز ، قد بلغت سن اليأس من الحمل منذ زمن طويل ، « وهذا بعلي ، أى : زوجى إبراهيم ، شيخا كبيرا متقدما فى السن .

قال الجمل : وهاتان الجملتان - وأنا عجوز وهذا بعلي شيخا - فى محل النصب على الحال من الضمير المستتر فى « ألد » ، وشيخا حال من بعلي ، والعامل فيه اسم الإشارة لما فيه من معنى الفعل ، (١) .

وقولها - كما حكى القرآن عنها - ، « إن هذا لشيء عجيب » ، أى : إن هذا الذى بشرتمونى به من حصول الولد لى فى تلك السن المتقدمة « لشيء عجيب » فى مجرى العادة عند النساء وقد رد عليها الملائكة بقولهم : « قالوا أتعجبين من أمر الله ، ١١٤

أى : أتعجبين على قدرة الله - تعالى - أن يرزقك الولد وأنت رزوك فى هذه السن المتقدمة ؟ لا لأنه لا ينبغى لك أن تستبعدى ذلك ، لأن قدرة الله

لا يعجزها شيء . فالاستفهام هنا المراد به إنكار تعجبها ، واستبعادها لبشارة ، وإزالة أثر ذلك من نفسها لإزالة تامة .

وقوله : «رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت» حكاية لما قاله الملائكة لها ، زيادة في سرورها وفي إدخال النظم أذينة على قلبها .

أي رحمة الله الواسعة ، وبركاته وخيراته تنامية عليكم أهل البيت الكريم وهو بيت إبراهيم - عليه السلام - .

قال صاحب الكشاف : وإنما أنكرت عليها الملائكة تعجبها ، لأنها كانت في بيت الآيات ، ومهبط المعجزات ، والأمور الخارقة للعادات ، فكان عليها أن تتوقر ، ولا يزددها ما يزدهي سائر النساء الغاشيات في غير بيت النبوة وأن تسبح الله وتمجده ، مكان التعجب .

وإلى ذلك أشارت الملائكة في قولهم «رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت» . أرادوا أن هذه أمثالها ، ما يسكرمكم به رب العزة ، ويخصكم بالإتمام به يا أهل بيت النبوة ، فليس بمكان عجب . والكلام مستأنف علم به إنكار التعجب . كأنه قيل : إياك والتعجب ، فإن أمثال هذه الرحمة والبركة متكررة من الله عليكم ، (١) .

وقوله «سبحانه» - إنه حميد مجيد ، تذييل بديع قصد به وجوب مداومتها على حمد الله وتمجيده على أن وهبها الولد بعد أن بلغت سن اليأس من الحمل .

أي إنه - سبحانه - «حميد ، أي : مستحق للحمد لكثرة نعمه على عباده» مجيد ، أي كريم واسع الإحسان ، فليس بعيدا منه أن يعطي الولد للآباء بعد الكبير .

قال صاحب المنار ما ملخصه . وأصل المجد في اللغة أن تقع الإبل في أرض

واسعة المرعى ، كثيرة الخصب ، يقال . مجدت الإبل تمجد من باب نصر -
مجدا ومجادة ، وأمجدها الواعى .

والجدة فى البيوت والأنسب ما يعده الرجل من سعة كرم آبائه وكثرة نوالهم .
ووصف الله كتابه بالمجيد ، كما وصف نفسه بذلك ، لسعة هداية كتابه ،
وسعة كرمه وفضله على عباده (١) .

ثم حكى - سبحانه - ما كان من إبراهيم بعد أن سكن خوفه ، واطمأن
إلى ضيوفه فقال : « فلما ذهب عن إبراهيم الروح ، أى : الخوف والفرع ،
بسبب اطمئنانه إلى ضيوفه ، وعلمه أنهم ليسوا من البشر .

« وجاءته البشرى ، منهم بالولد ، واتصال النسل ، فازداد سرورا بهم .
بعد كل ذلك ، أخذ إبراهيم يجادلنا فى قوم لوط ، أى : يجادل رسلنا
ويحاورهم فى شأن قوم لوط ، وفى كيفية عقابهم ، بعد أن أخبروه بانهم
ذاهبون لإهلاكهم .

وأضاف - سبحانه - المجادلة إلى نفسه مع أنها كانت مع الملائكة ، لأن
نزولهم لإهلاك قوم لوط إنما كان بأمره - تعالى - ، فمجادلة إبراهيم لهم هى
مجادلة فى تنفيذ أمره - تعالى - .

وقال - سبحانه - « يجادلنا ، مع أنها كانت فى الماضى ، لتصوير هذه الحالة
فى الذهن تصويرا حاضرا ، حتى تزداد منه العبرة والعظة .

وهذه المجادلة التى كانت بين إبراهيم وبين الملائكة الذين أرسلوا لإهلاك
قوم لوط ، قد حكاهما - سبحانه - فى سورة العنكبوت فى قوله : « ولما جاءت
رسلنا لإبراهيم بالبشرى قالوا إنا مهلكوا أهل هذه القرية - أى القرية التى
يسكنها قوم لوط - إن أهلها كانوا ظالمين . قال إن فيها لوطا ، قالوا نحن أعلم
بمن فيها لننجينه وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين ، الآياتان ٣١ - ٣٢ .

وهذا التفسير للمجادلة التي دارت بين إبراهيم والملائكة في عقاب قوم لوط هو الصحيح لأن خير تفسير للقرآن هو ما كان بالقرآن .

وما ورد من أقوال تخالف ذلك فلا يلتفت إليها ، لعدم استنادها إلى النقل الصحيح .

وقوله - سبحانه - : **لن إبراهيم لحليم أواه عظيم ، يمان للدواعي التي حملت إبراهيم - عليه السلام - على مجادلة الملائكة في شأن إهلاك قوم لوط . والحليم : هو الصبور على الأذى ، الصفوح عن الجناية ، المقابل لها بالإحسان .**

والأواه : هو الذي يكسر التأوه من خشية الله .

قال الألوسي : وأصل التأوه قوله آه ونحوه مما يقوله المتوجع الحزين . وهو عند جماعة كناية عن كمال الرأفة ورقة القلب . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وغيرهما عن عبد الله بن شداد قال رجل : يا رسول الله ما الآواه ؟ قال : الخاشع المتضرع الكثير الدعاء ، (١) .

والمنيب : السريع الرجوع إلى الله - تعالى - بالتوبة والاستغفار .

أي أن إبراهيم لصبور على الأذى ، صفوح عن الجناية ، كثير التضرع إلى الله ، سريع الرجوع إلى كل ما يحبه ويرضاه .

ولكن حلم إبراهيم وإصابته ... لم يرد قضاء الله العادل في شأن قوم لوط ولذا قال الملائكة له - كما حكى القرآن عنهم - : يا إبراهيم أعرض عن هذا ، إنه قد جاء أمر ربك ، وأنهم آتيهم عذاب غير مردود ،

أي : قال الملائكة لإبراهيم : يا إبراهيم أعرض عن هذا ، الجدل في أمر قوم لوط ، وفي طلب إهمال عقوبتهم ، إنه قد جاء أمر ربك ، يهلكهم ، لأنهم ، بسبب إصرارهم على ارتكاب الفواحش ، آتيهم ، من ربهم ، عذاب .

شديد ، غير مردود ، عنهم لا بسبب الجدال ولا بأى سبب سواه ، فإن قضاء الله لا يرد عن القوم المجرمين . هذا ، وقد ذكر الشيخ القاسمى بعض الفوائد والأحكام التى أخذها العلماء من هذه الآيات فقال : قال بعض المفسرين : لهذه الآيات ثمرات وفوائد .

منها : أن حصول الولد المخصص بالفضل نعمة ، وأن هلاك العاصى نعمة — أيضا — لأن المشرى قد فسرت بولادة إسحاق لقوله ، وبشرها بإسحاق وفسرت بهلاك قوم لوط ، لقوله : قالوا لا نخف إنما أرسلنا إلى قوم لوط ، ومنها : لاستحباب نزول المبشر — بالكسر — على المبشر — بالفتح — لأن الملائكة أرسلهم الله — تعالى — لذلك .

ومنها : أنه يستحب المبشر أن يتلقى البشارة بالشكر لله — تعالى — على ما بشر به . فقد حكى عن الأصم أنه قال : جاؤوه فى أرض يعمل فيها ، فلما فرغ غرز مسحاته ، وصلى ركعتين .

ومنها : أن السلام مشروع ، وأنه ينبغى أن يكون الرد أفضل لقول إبراهيم ، سلام ، بالرفع وهو أدل على الثبات والدوام .

ومنها : مشروعية الضيافة ، والمبادرة اليها ، واستحباب مبادرة الضيف بالاكل منها .

ومنها : استحباب خدمة الضيف ولو للمرأة ، لقول مجاهد : وامراته قائمة ؛ أى فى خدمته أضياف إبراهيم وخدمة الضيفان من مكارم الأخلاق :

ومنها : جواز مراجعة الأجانب فى القول ، وأن صوتها ليس بعورة .

ومنها . أن امرأة الرجل من أهل بيته ، فيكون أزواجه — صلى الله عليه وسلم — من أهل بيته (١) :

ومنها : - كما يقول الإمام ابن كثير - استدل على أن الذبيح هو اسماعيل لا إسحاق ، وأنه يمتنع أن يكون هو إسحاق ، لأنه وقعت البشارة به ، وأنه سيولد له يعقوب ، فكيف يؤمر إبراهيم بذبحه وهو طفل صغير ، ولم يولد له بعد يعقوب الموعود بوجوده ، ووعد الله حق لا خلف فيه ، فبمتنع أن يؤمر بذبح إسحاق والحالة هذه ، فتعين أن يكون الذبيح اسماعيل ، وهذا من أحسن الاستدلال وأصح : . (١)

« وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُ لُوطَ سَيِّئًا فِيهِمْ ذُرْعًا ، وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ (٧٧) وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُرْغَوْنَ إِلَيْهِ ، وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ ، قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تَخْزُونِ فِي ضَعِيفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ (٧٨) قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ ، وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ (٧٩) قَالَ لَوْ أَنِّي لِي بِكُمْ قُوَّةٌ أَوْ آوَى إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ (٨٠) قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنَ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَمْرَاتُكَ ، إِنَّهُ يُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ ، إِنْ مَوْعِدُهُمْ الصَّبْحُ ، أَلَيْسَ الصَّبْحُ بِقَرِيبٍ (٨١) فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَابًا مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ (٨٢) مُسَوِّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ (٨٣) » .

ثم انتقلت السورة الكريمة الى الحديث عما دار بين لوط وبين الملائكة وبينه وبين قومه من حوار وجدال فقال - تعالى - :

- تلك هي قصة لوط مع الرسل الذين جاءوا لإهلاك قومه المجرمين ، كما حكمتها سورة هود .

- وقد وردت هذه القصة في سور أخرى وبأساليب متنوعة ، ومنها سورة الأعراف ، والحجر ، والشعراء ، والنمل ، والعنكبوت : والصفات . والذاريات . والقمر

قال الإمام ابن كثير : ولوط هو ابن هاران بن آزر ، فهو ابن أخي إبراهيم ، وكان قد آذن مع عمه إبراهيم وهاجر معه إلى أرض الشام ، فبعثه الله إلى أهل بلدة سدوم وما حولها يدعوهم إلى وحدانية الله - تعالى - ، ويأمرهم بالمعروف وينهاهم عما كانوا يرتكبون من المآثم والمحارم والفواحش التي اخترعوها دون أن يسبقهم بها أحد من بني آدم ولا من غيرهم ، وهو إتيان الذكور دون الإناث ، وهذا شيء لم يكن أحد من بني آدم يعمده ولا يألفه ولا يخطر بباله ، حتى صنع ذلك أهل سدوم - وهم قرية بوادي الأردن عليهم لعائن الله (١)

- وقد بدأ - سبحانه - القصة هنا بتصوير ما اعتري لوطا - عليه السلام - من ضيق وغم عندما جاءته الرسل فقال : « ولما جاءت رسلنا لوطا مى بهم »

- أي : وحين جاء الملائكة إلى لوط - عليه السلام - بعد مفارقتهم لإبراهيم ، ساءه وأحزنه مجيئهم ، لأنه كان لا يعرفهم ، ويعرف أن قومه قوم سوء ، فخشى أن يعتدى قومه عليهم ، بعادتهم الشنيعة ، وهو عاجز عن الدفاع عنهم

قال ابن كثير ما ملخصه : « يخبر الله - تعالى - عن قدوم رسله من الملائكة إلى لوط - عليه السلام - بعد مفارقتهم لإبراهيم ... فاتوا لوطا

— عليه السلام — وهو على ما قيل في أرس له. وقيل في منزله ، ووردوا عليه
وهم في أجل صورة تكون ، على هيئة شبان حسان الوجوه ، ابتلاء من الله ،
وله الحكمة والحجة البالغة ، فساء شأنهم » (١)

— وقوله : « ضاق بهم ذرعا » تصوير بديع لتنفاذ حيلته ، واغتمام نفسه
وعجزه عن وجود حيلة للخروج من المكروه الذي حل بهم .

قال القرطبي : والذرع مصدر ذرع . وأصله : أن يذرع البعير يديه في
سيره ذرعا على قدر سعة خطوه . فإذا حمل عليه أكثر من طاقته ضاق عن ذلك
وضعف ومد عنقه . فضيق الذرع عبارة عن ضيق الوسع . وقيل هو من ذرعه
القيء أى غلبة .

أى : ضاق عن حبسه المكروه في نفسه .

وانما ضاق ذرعا بهم لما رأى من جسامهم ، وما يعمله من فسوق
قومه » (٢)

— و « ذرعا » تمييز محول عن الفاعل . أى : ضاق بأمرهم ذرعه .

« وقال هذا يوم عصيب » : أى وقال لوط . — عليه السلام — في حشر
والم : هذا اليوم الذى جاءني فيه هؤلاء الضيوف ، يوم « عصيب » أى : شديد
هوله وكرهه .

وأصل العصب . الشد والضغط ، فكان هذا اليوم لشدة وقعه على نفسه
قد عصب به الشر والبلاء ، أى : شد به .

قال صاحب تفسير التحرير والتنوير : ومن بديع ترتيب هذه الجمل أنها
جاءت على ترتيب حصولها في الوجود ، فإن أول ما يسبق الى نفس الكاره
للأمر أن يساء به ويتطلب التخلص منه ، فإذا علم أنه لا خلاص له من ضاق به
ذرعا . ثم يصدر تعبيراً عن المعاني يربح به نفسه ، (٣)

(١) تفسير ابن كثير ٤٠٤ - ٢٦٦ (٢) تفسير القرطبي ٦٥ - ٧٤

(٣) تفسير التحرير والتنوير للشيخ ابن عاشور ١٢ - ١٣٥

— ثم بين - سبحانه - ما كان من قوم لوط - عليه السلام - عندما علموا بوجود هؤلاء الضيوف عنده فقال : « وجاءه قومه يهرعون إليه . ومن قبل كانوا يعملون السيئات . . . »

- ويهرعون - بضم الياء - وفتح الراء على صيغة المبنى للمفعول - أى : يدفع بعضهم بعضا بشدة ، كأن سائقا يسوقهم الى المكان الذى فيه لوط وضيوفه .

يقال : هرع الرجل وأهرع - بالبناء للمفعول فهما - إذا أعجل وأسرع لدافع يدفعه إلى ذلك .

قال الألوسى : والعامية على قراءته مبنيا للمفعول ، وقرأ جماعة يهرعون - بفتح الياء مع البناء للفاعل - من هرع - بفتح الهاء والراء - وأصله من الهرع وهو الدم الشديد السيالان ، كأن بعضه يدفع بعضا (١) .

أى : وبعد أن علم قوم لوط بوجود هؤلاء الضيوف عند نبيهم ، جاءوا إليه مسرعين يسوق بعضهم بعضا إلى بيته من شدة الفرح ، ومن قبل هذا المجيء ، كان هؤلاء القوم الفجرة ، يرتكبون السيئات الكثيرة ، التى من أقبحها إتيانهم الرجال شهوة من دون النساء .

وقد طوى القرآن الكريم ذكر الفرض الذى جاءوا من أجله ، وأشار إليه بقوله : (ومن قبل كانوا يعملون السيئات) للإشعار بأن تلك الفاحشة صارت عادة من العادات المتأصلة فى نفوسهم الشاذة ، فلا يسمعون إلا من أجل فضائنها .

ثم حكى القرآن بعد ذلك ما بادرهم به نبيهم بعد أن رأى هياجهم وتدافعهم نحو داره فقال : (قال يا قوم هؤلاء بناتى هن أطهر لكم) . . .

والمراد بيناته هنا : زوجاتهم ونساؤهم اللائى يصلحن للزواج ، وأضافن إلى نفسه ؛ لأن كل نبي أب لامته من حيث الشفقة وحسن التربية والتوجيه .

قال ابن كثير : قوله - تعالى - « قال يا قوم هؤلاء بناتي هن أطهر لكم » يرشدكم إلى نسائهم ، فإن النبي للأمة بمنزلة الوالد ، فأرشدكم إلى ما هو أنفع لهم ، كما قال لهم في آية أخرى : « أقاتون الذكران من العالمين . وتذرون ما خلق لكم ربكم من أزواجكم بل أنتم قوم عادون ، »

قال مجاهد : لم يكن بناته ، ولكن كن من أمته ، وكل نبي أبو أمته ... وقال سعيد بن جبير : يعنى نسائهم ، هن بناته وهو أب لهم ... (١) . ومنهم من يرى أن المراد بيناته هنا : بناته من صلبه ، وأنه عرض عليهم الزواج بهن

ويصيف هذا الرأي أن لوطا - عليه السلام - كان له بنتان أو ثلاثة - كما جاء في بعض الروايات - ، وعدد المتدافعين من قومه إلى بيته كان كثيرا ، فكيف تسكفهم بنتان أو ثلاثة للزواج . - ؟

ويبدو لنا أن الرأي الأول أقرب إلى الصواب ، وقد رجحه الإمام الرازي بأن قال ماملاخصه : « وهذا القول عندي هو المختار ، وبطل عليه وجوه : منها : أنه قال « هؤلاء بناتي هن أطهر لكم » ، وبناته اللاتي من صلبه لا تسكني للجمع العظيم ، أما نساء أمته ففهي كفاية لكل ... »

ومنها : أنه صحت الرواية أنه كان له بنتان وهما : زنتا وزعورا ، وإطلاق لفظ البنات على البناتين لا يجوز ، لما ثبت أن أقل الجمع ثلاثة ... (٢) .

والمعنى : أن لوطا - عليه السلام - عندما رأى تدافعهم نحو بيته لارتكاب الفاحشة التي ما سبقهم بها من أحد من العالمين ، قال لهم : « رجاء ورفق » يا قوم ، هؤلاء نسائكم اللاتي بمنزلة بناتي أرجعن إليهن فافضوا شهواتكم معهن ، فهن أطهر لكم نفسيا وحسبا من التلوث برجس اللواط ، وأفضل التفضيل هنا وهو « أطهر » ، ليس على بابيه ، بل هو للمبالغة في الطهر .

(١) تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٢٦٨ .

(٢) تفسير الفخر الرازي ج ١٨ ص ٣٢ .

قال القرطبي : وليس ألف أظهر للتفضيل ، حتى يتوهم أن في نكاح الرجال طهارة ، بل هو كقولك الله أكبر - أى كبير - ولم يكابر الله - تعالى - أحد حتى يكون الله - تعالى - أكبر منه (١) .

ثم أضاف إلى هذا الإرشاد لهم إرشادا آخر فقال : « فاتقوا الله ولا تخزون في ضيقي »

قال الجمل : ولفظ الضيف في الأصل مصدر ، ثم أطلق على الطارق لبلا إلى المضيف ، ولذا يقع على المفرد والمذكر وضديهما الملفظ واحد ، وقد يتنى فيقال : ضيفان ، ويجمع فيقال : أضياف وضيوف (٢) .

وتخزون : من الخزي ودو الإهانة والمذلة . يقال : خزي الرجل يخزي خزيا . . . إذا وقع في بلية فذل بذلك .

أى : بعد أن أرشدكم إلى فسائهم ، أمرهم بتقوى الله ومراقبته ، فقال لهم : فاتقوا الله . ولا تجعلوني خزيا مفضوحا أمام ضيوفي بسبب اعتدائكم عليهم ، فإن الاعتداء على الضيف كأنه اعتداء على المضيف .

ويبدو أن لوطا - عليه السلام - قد قال هذه الجملة ليلبس بها نخوتهم إن كان قد بقي فيهم بقية من نخوة ، ولكنه لما رأى إصرارهم على فجورهم وبخهم بقوله :

« أليس منكم رجل رشيد ، يهدى إلى الرشد والفضيلة . وينهى عن الباطل والذيلة . فيقف إلى جانبي . ويصرفكم عن ضيوفي ؟ »

ولم يكن هذا النصيح الحكيم من لوط لهم لم يحرك قلوبهم الميتة الآسنة . ولا فطرهم الشاذة المنكوسة . بل ردوا عليه بقولهم :

« قالوا لقد علمت مالنا في بناتك من حق وإنك لتعلم ما نريد . . »

أى : قال قوم لوط له بسفاهة ووقاحة : لقد علمت يا لوط علما لاشك

(١) تفسير القرطبي ج ٩ ص ٨٦ .

(٢) حاشية الجمل على الجلالين ج ٢ ص ٤١٢ .

عه ، أننا لا رغبة لنا في النساء ، لا عن طريق الزواج ولا عن أى طريق
آخر ، فالمراد بالحق هنا : الرغبة والشهوة .

قال الشوكاني : قوله « مالنا في بناتك من حق » أى : مالنا فيهن من شهوة
ولا حاجة ، لأن من احتاج إلى شيء فكأنه حصل له فيه نوع حق ، ومعنى
أنسبوه إليه من العلم أنه قد علم منهم المكالبية على إتيان الذكور وشدة الشهوة
لهم ، فهم من هذه الحيثية كأنهم لا حاجة لهم إلى النساء . ويمكن أن يريدوا :
أنه لا حق لنا في فكاكهن (١) .

وقولهم : « وإنا لك لتعلم ما نريد » إشارة خبيثة منهم إلى العمل الخبيث
الذى ألفوه ، وهو إتيان الذكور دون النساء أى : وإنا لك لتعلم علما يقينيا
لشيء الذى نريده فلماذا ترجعنا ؟

وقولهم هذا الذى حكته الآية السكوية عنهم ، يدل دلالة واضحة على أنهم
قد بلغوا النهاية فى الخبث والوقاحة وتبلد الشعور ...

لذا رد عليهم لوط - عليه السلام - رد البائس من أروعائهم عن غيهم ،
لمعنى لوجود قوة إلى جانبه تردعهم وتمكف فجورهم فقال : « أن لى
كم قوة أو آوى إلى ركن شديد » .

والقوة : ما يتقوى به الإنسان على غيره .

وآوى : أى ألبأ وأنضوى تقول : أديت إلى فلان فآوا آوى إليه أو
أى : انضممت إليه .

والركن فى الأصل : القطعة من البيت أو الجبل ، والمراد به هنا الشخص
قوى الذى يلجأ إليه غيره لينتصر به ...

ولو شرطية وجوابها محذوف ، والتقدير : قال لوط - عليه السلام - بعد

أن رأى من قومه الاستمرار في غيهم ، ولم يقدر على دفعهم - على سبيل التفجع والتحسر : لو أن معى قوة أدفعكم بها لبطشت بكم .

ويجوز أن تكون لو للتمنى فلا تحتاج إلى جواب أى : ليت معى قوة أستطيع بمناصرتها لى دفع شركم .

وقوله : « أو آوى إلى ركن شديد ، معطوف على ما قبله ، أو ليتنى أستطيع أن أجد شخصا قويا من ذوى المنعة والسلطان أحتمى به منكم ومن تهديدكم لى ... »

قالوا : وإنما قال لوط - عليه السلام - ذلك ؛ لأنه كان غريبا عنهم ، ولم يكن له نسب أو عشيرة فيهم .

وهنا - وبعد أن بلغ الضيق بلوط ما بلغ - كشف له الملائكة عن حقيقةهم ، وبشروه بما يدخل الطمأنينة على قلبه فقالوا :

« يالوط إنا رسل ربك لن يصلوا إليك ، أى : إنا رسل ربك أرسلنا إليك لنخبرك بهلاكهم ، فاطمئن فإنهم لن يصلوا إليك يسوء فى نفسك أو فينا . »

روى أن الملائكة لما رأوا ما لقيه لوط - عليه السلام - من الهم والسكران بسببهم قالوا له : يالوط إن ركنك لشديد ... ثم ضربهم جبريل بجناحه فطمس أعينهم ، فارتدوا على أدبارهم يقولون النجاء ، وإليه الإشارة بقوله - تعالى - فى سورة القمر : « ولقد راودوه عن ضيفه فطمسنا أعينهم ، فذوقوا عذابي ونذر . »

وقوله : « فأسر بأهلك بقطع من الليل ، أى : فأخرج من هذه القرية مصحوبا بالمومنين من أهلك فى جزء من الليل - يكفى لا بتعادك عن هؤلاء المجرمين . »

قال القرطبي : قرىء « فأسر وفأسر بوحمل الهمزة وقطعها لغتان فصيحتان . »

قال - تعالى - « والليل إذا يسر » ، وقال - سبحانه - الذي أسرى بهبده
وقيل - فأسر - بالقطع يقال لمن سار من أول الليل .. وسرى لمن سار في
آخره ، ولا يقال في النهار إلا سار (١) .

وقوله : « ولا يلتفت منكم أحد إلا امرأتك إنه مصيبها ما أصابهم
معطوف على ما قبله وهو قوله : « فأسر بأهلك » .

أي : فأسر بأهلك في جزء من الليل ، ولا يلتفت منكم أحد إلى ما وراءه ،
اتقاء لرؤية العذاب ، « إلا امرأتك » ، بالنوط فاتركها ولا تأخذها معك لأنها
كافرة خائنة : ولأنها سيصيبها العذاب الذي سينزل بهؤلاء المجرمين
فيلسكها معهم .

قال الإمام الرازي ما ملخصه : قوله « إلا امرأتك » ، قرأ ابن كثير وأنعمرو
« إلا امرأتك » ، بالرفع ، وقرأ الباقر بن النصب .

قال الواحدى : من نصب فقد جعلها مستثناة من الأهل ، على معنى : فأسر
بأهلك إلا امرأتك أى فلا تأخذها معك ...

وأما الذين رفعوا فالتقدير : « ولا يلتفت منكم أحد لكن امرأتك تلتفت
فيصيبها ما أصابهم » .

وأما الذين رفعوا فالتقدير : « ولا يلتفت منكم أحد لكن امرأتك تلتفت
فيصيبها ما أصابهم » .

روى عن قتادة أنه قال : إنها كانت مع لوط حين خرج من القرية ،
فلما سمعت العذاب التفت وقالت واقوماه فأصابها حجر فأهلكها ، (٢) .

وقوله - سبحانه - « إن موعدهم الصبح أليس الصبح بقريب » ، بشارة
أخرى للوط - عليه السلام - الذى تمنى النصرة على قومه .

(١) تفسير القرطبي ج ٩ ص ٧٦ .

(٢) تفسير الفخر الرازي ج ١٨ ص ٣٦ .

أى : إذ موعد هلاك هؤلاء المجرمين يتبدى من طلوع الفجر وينتهى مع طلوع الشمس ، أليس الصبح بقريب من هذا الوقت الذى نحدثك فيه ؟

قال - تعالى - فى سورة الحجر : « فأخذتهم الصبحمة مشرقين » ، أى : وهم داخلون فى وقت الشروق . فكان ابتداء العذاب عند طلوع الصبح وانتهائه وقت الشروق .

والجثة الكريمة : « إن موعدهم الصبح » ... ، كالتعليل للأمر بالإسراء بأهله بسرعة ، أو جواب عما جاش بصدده من استعجاله العذاب هؤلاء المجرمين ، والاستفهام فى قوله سبحانه - « أليس الصبح بقريب » للتقرير أى : بلى إنه لقريب .

قال الآلوسى : روى أنه - عليه السلام - سأل الملائكة عن موعد هلاك قومه فقالوا له : « موعدهم الصبح » . فقال : أريد أسرع من ذلك . فقالوا له : أليس الصبح بقريب . ولعله إنما جعل ميعات هلاكهم الصبح لأنه وقت الدعة والراحة فيكون حلول العذاب حينئذ أفظع ، ولأنه أنسب بكون ذلك عبرة للناظرين (١) .

ثم حكى - سبحانه - فى نهاية القصة ما حل بهؤلاء المجرمين من عذاب فقال : « فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود . مسومة عند ربك وما هى من الظالمين ببعيد » .

أى : « فلما جاء أمرنا ، ياهلاك هؤلاء القوم المفسدين ، جعلنا عاليها سافلها ، أى : جعلنا أعلى بيوتهم أسفلها ، بأن قلبناها عليهم ، وهى عقوبة مناسبة لجريماتهم حيث قلبوا فطرتهم ، فأقوا الذكران من العالمين وتركوا ما خلق لهم ربهم من أزواجهم ... »

وقوله « وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود » ، زيادة فى عقوبتهم وانهم

أى : جعلنا أعلى قراهم أسفلها ، وأمطرنا عليهم حجارة د من سجيل ١ أى :
من حجر وطين مختلط ، قد تجبر وتصلب . منضود ، أى : متتابع فى النزول
بدون انقطاع موضوع بعض على بعض ، من المنضود وهو موضع الأشياء
بعضها إلى بعض .

د مسوفة عند ربك ، أى : معجلة بعلامات من عند ربك لا يعلمها إلا هو ،
ومعدة لإعدادا خاصا لإهلاك هؤلاء القوم .

د وما هى « أى تلك القرى المهلكة د من الظالمين ، وهم مشركو مكة ببعيد »
أى : بعيدة عنهم ، بل هى قريبة منهم ، ويمرون عليها فى أسفارهم إلى الشام .
قال تعالى — د وإنكم لتمررون عليهم مصبحين ، وبالليل أفلا تعقلون ، (١)
أى : وإنكم يا أهل مكة لتمررون على هؤلاء القوم المهلكين من قوم لوط
فى وقت الصباح أى النهار ، وتمررون عليهم بالليل أفلا تعقلون ذلك فتعتبروا
وتتعظوا ؟؟

ويجوز أن يكون الضمير فى قوله د وما هى ، يعود إلى الحجارة التى أهلك
الله بها هؤلاء القوم .

أى : وما هى تلك الحجارة الموصوفة بما ذكر من الظالمين بعيد ، بل هى
حاضرة مهيبة بقدرة الله — تعالى — لإهلاك الظالمين بها .

والمراد بالظالمين ما يشمل قوم لوط ، ويشمل كل من عصى الله وتجاوز
حدوده ، لم يتبع ما جاء به الرسول - صلى الله عليه وسلم - .

وهكذا كانت نهاية قوم لوط ، فقد انطوت صفحاتهم كما انطوت من قبلهم

صفحات قوم نوح وهود وصالح - عليهم الصلاة والسلام -

هذا ومن العبر والأحكام التى نأخذها من هذه الآيات الكريمة ، أنه لا بأس

على المسلم من أن يستعين بغيره لنصرة الحق الذى يدعو إليه ، ولخذلان الباطل

الذى ينهى عنه .

فلوط - عليه السلام - عندما رأى من قومه الإصرار على غوايتهم ومفسدهم
تمنى لو كانت معه قوة تزجرهم وتردعهم وتمنعهم عن فسادهم .

وقد علق الإمام ابن حزم على ما جاء في الحديث الشريف بشأن لوط -
عليه السلام - فقال ما ملخصه :

« ظن بعض الفرق أن ما جاء في الحديث الصحيح من قوله - صلى الله عليه
وسلم - « رحم الله لوطا ، لقد كان يأوى إلى ركن شديد » إنما هو من باب
الإنكار على لوط - عليه السلام - في قوله « لو أن لي بكم قوة أو آوى إلى
ركن شديد » .

والحق أنه لا تخالف بين القولين ، بل كلاهما حق ، لأن لوطا - عليه السلام -
إنما أراد منعة عاجلة يمنع بها قومه مما هم عليه من الفواحش . من قرابة أو
عقيرة أو أتباع مؤمنين ، وما جهل قط لوط - عليه السلام - أنه يأوى من ربه
- تعالى - إلى أمنع قوة ، وأشد ركن .

ولا جناح على لوط - عليه السلام - في طلب قوة من الناس - فقد قال الله
- تعالى - « ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض » .

وقد طلب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من الأنصار نصرته حتى يبلغ
كلام ربه ، فكيف ينكر على لوط أمرا هو فعله ١١٩

قاله ما أنكر ذلك رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ، وإنما أخبر أن
لوطا كان يأوى إلى ركن شديد ، يعنى من نصر الله له بالملائكة ، ولم يكن لوط
علم بأنهم ملائكة ... » (١)

ثم انتقلت السورة الكريمة بعد ذلك فقصت علينا ما كان بين شعيب -
عليه السلام - وقومه وكيف أنه دعاهم إلى عبادة الله - تعالى - وحده بأسلوب

بليغ حكم ، ولكنهم لم يستجيبوا له ، فكانت عاقبتهم الهلاك كالذين من قبلهم قال - تعالى - :

« وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ، قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ بِهِ إِلَهٌ غَيْرُهُ ، وَلَا تَتَّبِعُوا الْمَسْكِالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ (٨٤) وَيَا قَوْمِ اتَّقُوا الْمَسْكِالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ، وَلَا تَبْخُسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا فِي الْأَرْضِ مَفْسِدِينَ (٨٥) بَقِيتُ اللَّهُ خَيْرُ لَكُمْ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ (٨٦) قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصْلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ تَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا ، أَوْ أَنْ نَفْعَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ (٨٧) قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُ إِنْ كُنْتُ عَلَى يَدَيَّهِ مِنْ رَبِّي ، وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ، وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنهَآكُمْ عَنْهُ ، إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أَنِيبُ (٨٨) وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمَ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ (٨٩) وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيَّ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ (٩٠) قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفَقَةُ كَثِيرٍ أَمْ تَقُولُ وَإِلَٰهَكَ إِنَّا ضَعِيفٌ لَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَنَّاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِمُزِيرٍ (٩١) قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيَا إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (٩٢) وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَاتِكُمْ إِنِّي عَامٌّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ ، مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُجْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ (٩٣) وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَآ

برحمة منا، وأخذت الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا في ديارهم جائعين (٩٤)
كأن لم يفتنوا فيها ، ألا بُعِدْ أَلْمَدِينِ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ (٩٥) .

ذلك هي قصة شعيب - عليه السلام - كما حكيتها هذه السورة الكريمة . وقد
وردت هذه القصة في سورة أخرى منها : سورتي الأعراف والشعراء ...
ومدين ، لم يسم للقبيلة التي تنسب إلى مدين بن إبراهيم - عليه السلام - .
وكانوا يسكنون في المنطقة التي تسمى (معان) وتقع بين حدود الحجاز
والشام .

وأهل مدين يسمون أيضا بأصحاب الأيكة ،
والأيكة : منطقة مليئة بالشجر كانت مجاورة لقريه (معان) ، وكان
يسكنها بعض الناس فأرسل الله شعبيا إليهم جميعا .
وشعيب هو ابن ميكيل بن يشجر بن مدين بن إبراهيم ، فهو أخوهم في
النسب .

وكان النبي صلى الله عليه وسلم - لم - إذا ذكر شعيب قال : (ذلك خطيب
الأنبياء) لحسن مراجعته لقومه ، وقوة حجته .

وكان قومه يعبدون الأصنام . ويظفون في الكيل والميزان ... فدعاهم
إلى عبادة الله وحده ، ونهاهم عن الخيافة وسوء الأخلاق .

ويرى بعض العلماء أن شعبيا أرسل إلى أتين : أهل مدين الذين أهلكوا
بالصيحة ؛ وأصحاب الأيكة الذين أخذهم الله بعذاب يوم الظلة ، وأن الله تعالى
لم يبعث نبيًا مرتين سوى شعيب - عليه السلام - .

ولكن المحققين من العلماء اختاروا أنهما أمة واحدة ، فأهل مدين هم
أصحاب الأيكة ، أخذتهم الرجفة والصيحة وعذاب يوم الظلة - أي السحابة -
وأن كل عذاب كان كالمقدمة للآخر .

هذا ، وقوله - سبحانه - (وإلى مدين أخاهم شعيبا ...) معطوف على ما سببه من قصة صالح - عليه السلام - عطف القصة على القصة .

أى : وكما أرسلنا صالحا - عليه السلام - إلى ثمود ، فقد أرسلنا إلى أخاهم شعيبا - عليه السلام - فقال لهم مقالة كل نبى لقومه : يا قوم اعبدوا الله وحده ، فإنكم لا إله لكم على الحقيقة سواه ، فهو الذى خلقكم وهو الذى رزقكم ، وهو الذى لا إله إلا هو مرجعكم ...

ثم بعد أن أمرهم بإخلاص العبادة لله ، نهاهم عن التطفيف فى الكيل والميزان فقال : (ولا تنقصوا المكيال والميزان) .

والمكيال والميزان : إسمان للآلة التى يكال بها ويوزن .
ونقص الكيل والميزان يكون من وجهين : أحدهما أن يكون الاستنقاص من جهتهم إذا باعوا لغيرهم .

وثانيهما : أن يكون الاستنقاص من جهة غيرهم إذا اشتروا منه ، بأر ياخذوا منه أكثر من حقهم .

فكانه - عليه السلام - يقول لهم : لا تنقصوا المكيال والميزان لا عند الأخذ ولا عند الإعطاء ، فلا تعطوا غيركم أقل من حقه إذا بعتم ، ولا تأخذوا منه أكثر من حقه إذا اشتريتم .

وإلى هذين الأمرين أشار قوله - تعالى - (ويل للطففين الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون ، وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون ...)

ثم بين لهم الأسباب التى دعتهم إلى أمرهم ونهيهم فقال : (لئى أراكم بخير وإنى أخاف عليكم عذاب يوم محيط)

والخير : كلمة جامعة لكل ما يرضى الإنسان ويفنيه ويسره .
ومحيط : أى شامل بحيث لا يستطيع أحد الإفلات منه . كما يحيط الظرف بالمظروف ...

أى : أخلصوا لله عبادتكم ، والتزموا العدل فى معاملتكم ، فإنى أراكم تملكون الوفير من المال ، وتعيشون فى رعد من العيش ، وفى يسطة من الرزق ، ومن كان كذلك فمن الواجب عليه أن يقابل هذه النعم بالشكر لوابها وهو الله - تعالى - ، وأن يستعملها استعمالاً يرضيه ، وأن يعطى كل ذى حق حقه .

وإنى - أيضاً - أخاف عليكم إذا ما تماديتم فى مخالفة ما أمركم به وما أنهاكم عنه ، عذاب يوم أهواله وآلامه شاملة لكل ظالم ، بحيث لا يستطيع أن يهرب منها ...

قال الشوكانى : وصف - سبحانه - اليوم بالإحاطة ، والمراد العذاب لأن العذاب واقع فى اليوم . ومعنى إحاطة عذاب اليوم بهم ، أنهم لا يشذ منهم أحد عنه ، ولا يجدون منه ملجأ ولا مهرباً ، (١) .

فأنت ترى أن شعيباً - عليه السلام - بعد أن أمرهم بما يصلح عقيدتهم ونهاهم عما يفسد معاملاتهم وأخلاقهم ذكرهم بما هم فيه من نعمة وغنى قطعاً لعذرهم حتى لا يقولوا له نحن فى حاجة إلى تطفيف المكيال والميزان لفقرنا ، ثم أخبرهم بأنه ماحله على هذا النصيح لهم إلا خوفه عليهم .

ثم واصل شعيب - عليه السلام - نصحه لقومه ، فأمرهم بالوفاء بعد أن نهاهم عن النقص على سبيل التأكيد ، وزيادة الترغيب فى دعوته فقال : «ويا قوم أوفوا المكيال والميزان بالقسط ،»

أى : ويا قوم أوفوا عند معاملتكم أدوات كيلكم وأدوات وزنكم ، ملتزمين فى كل أحوالكم لعدل والقسط .

ولا تبخسوا الناس أشياءهم ، أى : ولا تنقصوهم شيئاً من حقوقهم .

يقال : بخس فلان فلانا حقه إذا ظلمه وانتقمه . وهو يشمل النقص والعيب في كل شيء . . .

والجملة الكريمة تعميم بعد تخصيص ، لكي تشمل غير المسكيل والموزون كالمرزوع والمعدود ، والجيد والردى . . .

قال الجمل داملخصه : وقد كرر - سبحانه - نهيم عن النقص والبخس وأمرهم بالوفاء . . لأن القوم لما كافوا مصرين على ذلك العمل القبيح ، وهو تطفيف السكيل والميزان ومنع الناس حقوقهم ، احتيج في المنع منه إلى المبالغة في التأكيد ، ولاشك أن التأكيد يفيد شدة الاهتمام والعناية بالمأمر به والمنهى عنه ، فلمذا كرر ذلك ليقوى الزجر والمنع من ذلك الفعل . . . (١)

وقوله : ولا تعثوا في الأرض مفسدين ، تحذير لهم من البطر والغرور واستعمال نعم الله في غير ما خلقت له .

قال ابن جرير : وأصل العثى شدة الإفساد ، بل هو أشد الإفساد . يقال عثى فلان في الأرض بمعنى - كرضى برضى - إذا تجاوز الحد في الإفساد . . . (٢) أي : ولا تسعوا في أرض الله بالفساد ، وتقابلوا نعمه بالمعاصي ، فتسلب عنكم ثم أرشدكم إلى أن ما عند الله خير وأبقى مما يجمعونه عن الطريق الحرام فقال : ببقية الله خير لكم إن كنتم مؤمنين وما أنا عليكم بحفيظ . .

ولفظ : بقية ، اسم مصدر من الفعل بقى ضد فنى . وإضافتها إلى الله - تعالى - إضافة تشریف وتيمن .

أي : ما يبقية الله لكم من رزق - حلال - ومن حال صالح ، ومن ذكر حسن ، ومن أمن وبركة في حياتكم . . . بسبب التزامكم بالتوسط في معاملتكم ، وهو خير لكم من المال الكثير الذي تجمعونه عن طريق بخس الناس أشياءهم .

(١) حاشية الجمل على الجلالين ج ٢ ص ٤١٣ .

(٢) تفسير ابن جرير ج ١ ص ٣٠٨ .

وجملة ، إن كنتم مؤمنين ، معترضة لبيان أن هذه الخيرية لا تتم إلا مع الإيمان .

أى : ما يقيه الله لكم من الحلال ... هو خير لكم ، إن كنتم مصدقين بما أرسلت به إليكم ، أما إذا لم تكونوا كذلك فإن تكون بقية الله خير لكم ، لأنها لا تكون إلا للمؤمنين ، فاستجبوا لنصيحتى لتسعدوا فى دنياكم وآخرتكم .
وجملة ، وما أنا عليكم بحفيظ ، تحذير لهم من مخالفته بعد أن أدى ما عليه من بلاغ .

أى : وما أنا عليكم بحفيظ أحفظ أفعالكم وأحاسبكم عليها ، وأجازيكم بها الجزاء الذى تستحقونه . وإنما أنا ناصح ومبلغ ما أمرنى ربه بتبليغه ، وهو وحده — سبحانه — الذى سيتولى مجازاتكم .

وللى هنا نجد شعيبا — عليه السلام — قد أرشد قومه إلى ما يصلحهم فى عقائدهم ، وفى معاملاتهم ، وفى صلاتهم بعضهم ببعض ، وفى سلوكهم الشخصى ، بأسلوب حكيم جامع لكل ما يسعد ويهدى للتي هى أقوم ..

فإذا كان رد قومه عليه ؟

لقد كان ردهم عليه — كما حكاه القرآن الكريم — طائفا بالاستهزاء به ، والسخرية منه ، فقد قالوا له : يا شعيب أصلاتك تأمرك أن تترك ما يعبد آباؤنا ، أو أن تفعل فى أمورنا ما نشاء : إنك لانت الحليم الرشيد ، .

أى : قال قوم شعيب له — على سبيل التهكم والاستهزاء — : يا شعيب أصلاتك — التى تزعم أن ربك كلفك بها والتى أنت تسكر منها — تأمرك أن تترك عبادة الأصنام التى وجدنا عليها آباءنا والاستفهام للإنكار والتعجب من شأنه .

وأسندوا الأمر إلى الصلاة من بين سائر العبادات التى كان يفعلها ، لأنه — عليه السلام — كان كثير الصلاة ، وكانوا إذا رأوه يصلى سخر وامنه .

وجملة « أو أن تفعل في أموالنا ما نشاء ، إنكار منهم لترك ما تعودوه من نقص السكيل وأنيزان بعد إنكارهم لترك عبادة الأصنام .

وهي معطوفة على « ما » في قوله « ما يعبد آباؤنا ، وه أو ، بمعنى الواو .
أي : أصلاتك تأمرك أن تترك عبادة الأصنام ، وتأمرك أن تترك ما تعودنا فعله في أموالنا من التطفيف في السكيل والميزان ...

إن كانت أصلاتك تأمرك بذلك ، فهي في نظرنا صلاة باطلة ، لا وزن لها عندنا ، بل نحن نراها لونا من ألوان جنونك ومذيانك ...

وجملة « إنك لآنت الحليم الرشيد ، زيادة منهم في السخرية منه - عليه السلام - وفي التهكم عليه ، فكأنهم - قبحهم الله - يقولون له : كيف تأمرنا بترك عبادة الأصنام ، وبترك النقص في السكيل والميزان ، مع علمك اليقيني بأن هذين الأمرين قد بنينا عليهما حياتنا ، ومع زعمك لنا بأنك أنت الحليم الذي يتأنى ويتروى في أحكامه ، الرشيد الذي يرشد غيره إلى ما ينفعه ؟
إن هذين الوصفين لا يليقان بك ، مادمت تأمرنا بذلك ، وإنما اللاتق بك أضدادهما ، أي الجهالة والسفه والعجلة في الأحكام .

قال صاحب الكشف : وأرادوا بقولهم : « إنك لآنت الحليم الرشيد » نسبته إلى غاية السفه والغنى ، فمكسوا ليهكموا به ، كما يتهكم بالشحيح الذي لا يضر حجره ، فيقال له : لو أبصرك حاتم لسجد لك . وقيل معناه : إنك للتواصف بالحلم والرشد في قومك . يعنون أن ما تأمر به لا يطابق حالك وما اشتهرت به ... (١)

هكذا رد قوم شعيب عليه ، وهو رد يحمل السخرية في كل مقطع من مقاطعه ، ولكنها سخرية الشخص الذي انطمست بصيرته ، وقبحت سريره !!

(١) تفسير الكشف ج ٢ ص ٢٨٧ .

ومع كل هذه السفاهة ؛ نرى شعبيا - عليه السلام - وهو خطيب الأنبياء - يتغاضى عن سفاهاتهم ، لأنه يحس بقصورهم وجمالهم ، كما يحس بقوة الحق الذى أتاهم به من عند ربه ، فيرد عليهم بقوله : « قال يا قوم أرايتم إن كنت على بينة من ربي . . . ، والبينة : ما يقين به الحق من الباطل ، ويتميز به الهدى من الضلال .

أى : قال شعيب لقومه بأسلوب مهذب حديم : يا قوم أخبروني إن كنت على حجة واضحة ، وبصيرة مستنيرة منحنى لإيادها ربي ومالك أمرى .
« ورزقنى منه ، - سبحانه - رزقا حسنا ، يتمثل فى النبوة التى كرمنى بها ، وفى المال الحلال الذى بين يدي ، وفى الحياة الطيبة التى أحياها .
وجواب الشرط محذوف والتقدير : أخبروني إن كنت كذلك . هل يليق بى بعد ذلك أن أخالف أمره مسaire لأهوائكم ؟ كلا إنه لا يليق بى ذلك ، وإنما اللائق بى أن أبلغ جميع ما أمرنى بتبليغه بدون خوف أو تقصير .

ثم يكشف لهم عن أخلاقه وسلوكه معهم فيقول : « وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه »

أى : ما أريد بأمرى لكم بعبادة الله وحده ، وبتهذيب إياكم عن التطييف والبخس ، مجرد مخالفتكم ومنازعتكم ومما كستكم ، أو أن آمركم بشئ . ثم لا أفعله ، أو أنهاكم عنه ثم أفعله ، من أجل تحقيق منفعة دنيوية ..

كلا ، كلا إني لا أريد شيئا من ذلك وإنما أنا إنسان يطابق قولى فعلى ، وأختار لكم ما أختاره لنفسى .

قال صاحب الكشاف ماملاخصه : قوله « وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه ، يقال : خالفنى فلان إلى كذا : إذا قصده وأنت مول عنه . وخالفنى عنه : إذا ولى عنه وأنت تقصده .

وبلفاك الرجل صادرا عن الماء فتسأله عن صاحبه فيقول : خالفنى إلى

الماء . يريد أنه ذهب إليه وارداً، وهو ذهب عنه سادراً ، ومنه قوله سبحانه :
 « وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه ، يعني : ما أريد أن أسبقيكم إلى
 شهواتكم التي نهيتمكم عنها لأستبد بها دونكم » (١) .

وقال الإمام ابن كثير . وعن مسروق أن امرأة جاءت إلى ابن مسعود
 - رضى الله عنه - فقالت له : أأنت الذي قنيت عن المواصلة - أى التى فصل
 شعرها بشعر آخر - ؟ قال : نعم . فقالت : فلهـله فى بعض نساءك . فقال :
 ما حفظت إذا وصية العبد الصالح ، وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه ، (٢) .

ثم بين لهم أنه ما يريد لهم إلا الإصلاح فيقول : « إن أريد إلا الإصلاح
 ما استطعت ... »

أى : ما أريد بما أنصحكم به إلا إصلاحكم وسعادتكم ، ومادمت أستطيع
 ذلك ، وأقدر عليه ، فلن أقصر فى إسداء الهداية لكم .

ثم يفوض الأمور إلى الله - تعالى - فيقول : وما توفيقى إلا بالله ، عليه
 توكلت واليه أفتب .

أى : وما توفيقى فيما أدعوكم إليه من خير أو أنهاكم عنه من شر إلا بتأييد
 الله وعونه ، فهو وحده الذى عليه أتوكل وأعتمد فى كل شئونى ، وهو وحده
 الذى إليه أرجع فى كل أمورى .

ثم يواصل شعيب - عليه السلام - نصحه لقومه ، فينتقل بهم إلى تذكيرهم
 بمصارع السابقين ، محذراً لإياهم من أن يكون مصيرهم كمصير الظالمين من قبلهم
 فيقول : ويا قوم لا يجر منكم شقاقى أن يصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح ، أو
 قوم هود ، أو قوم صالح ...

(١) تفسير الكشاف ج ٢ ص ٢٨٧ .

(٢) تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٢٧٥ .

ومعنى : لا يجر منكم ، لا يحملنكم ، مأخوذ من جرمه على كذا ، إذا حمل عليه
أو بمعنى لا يكسبكم من جرم بمعنى كسب ، غير أنه لا يكون إلا في كسب
مالا خير فيه . ومنه الجريمة ، وهي اقتراف الجرم والذنب .

وأصل الجرم : قطع الشجرة من الشجرة ، وأطلق على الكسب ، لأن الكاس
لشيء ينقطع له .

وقوله : شقاق ، من الشقاق بمعنى الخلاف والعداوة ، كان كل واحد
من المتعادين في شق غير الشق الذي يكون فيه الآخر . والشق : الجانب .
والمعنى ، ويقوم لا تحملنكم عداوتكم لى ، على افتراء الكذب على ، وم
التمادى في عصيانى ومحاربتى . فإن ذلك سيؤدى بهم إلى أن يصيبكم العذاب
الذى أصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح .

وقوله : وما قوم لوط منكم ببعيد ، تذكير لهم بأقرب المهلكين إليهم .
أى : إذا كنتم لم تفتظوا بما أصاب قوم نوح من غرق ، وبما أصاب قوم
هود من ريح درتهم ، وبما أصاب قوم صالح من صيحة أهلكتهم ، فانتظوا
بما أصاب قوم لوط من عذاب جعل أعلى مساكنهم أسفلها ، وهم ليسوا بعيد
عنكم لافى الزمان ولا فى المكان .

قال الشيخ الفاضل بن عاشر : والمراد بالبعد - فى قوله : وما قوم لوط
منكم بعيد - بعد الزمان والمكان والفسب .

فمن لوط - عليه السلام - غير بعيد من زمن شعيب - عليه السلام - .
وذيार قوم لوط قريبة من ذيार قوم شعيب ، إذ منازل مدين عند عقب
أبلة بجوار معان مما إلى الحجاز ، وذيार قوم لوط بناحية الأردن إلى
البحر الميت .

وكان مدين بن إبراهيم - عليهما السلام - وهو جد قبيلة شعيب ، المسمى

ياسمه ، متروجا بابنة لوط ، (١) .

ثم فتح لهم بعد ذلك باب الأمل في رحمة الله ، إن هم تابوا إليه - سبحانه -
وأتابوا فقال : « واستغفروا ربكم ثم توبوا إليه إن ربى رحيم ودود » .

أى : واستغفروا ربكم من كل ما فرط منكم من ذنوب ثم توبوا إليه
توبة صادقة نصوحا :

« إن ربى ، ومالك أمرى رحيم ، أى : واسع الرحمة لمن تاب إليه ، ودود ،
أى : كثير الود والمحبة لمن أطاعه .

وهكذا نجد شعيبا - عليه السلام - وهو خطيب الأنبياء - يلون لقومه
النصح ، وينوع لهم المراءىظ . ويطوف بهم في مجالات الترييب والترهيب . .
ولكن القوم كانوا قد بلغوا من الفساد نهايته ، ومن الجمل أقصاه . . .
فقد ردوا على هذه النصائح الغالية بقولهم : « قالوا يا شعيب ما نفقه كثيرا
ما تقول . . . »

أى : قال قوم شعيب له على سبيل التحدى والتكذيب : يا شعيب إنا
لا نفهم الكثير من قولك ، لأنه قول لم نألفه ولم نتقبله نفوسنا ، ولقد أطلت
فى دعوتنا إلى عبادة الله وترك النقص فى السكىل والميزان حتى مللنا دعوتك
وسئناها ، وصارت ثقيلة على مسامعنا ، وخافية على عقولنا . .

فرادم بهذه الجملة الاستهانة به ، والصدود عنه ، كما يقول الرجل لمن
لا يعبأ بحديثه : لا أدنى ما تقوله ، ولا أفهم ما تنفوه به من ألفاظ .

قال : أبو السعود ما ملخصه : والفقه : معرفة غرض المتكلم من كلامه ،
أى : ما نفهم مرادك وإنما قالوا ذلك بعد أن سمعوا منه دلائل الحق البين على
أحسب وجه وأبلغه ، وضائق عليهم الخيل ، فلم يجدوا إلى محاورته سبيلا . . .

(١) تفسير التحرير والتنوير ج ١٢ ص ١٤٧ للشيخ محمد الطاهر بن عاشور

كما هو ديدن المفجع المحجوج ، يقابل انصائح البينات بأسب والإبرار والإرعاد إذ جعلوا كلامه المشتمل على الحكم من قبيل مالا يفهم معناه (١)

ثم قالوا له - ثانيا - : وإنا انراك فينا ضميما ، أى : لا قوة لك إلى جان قوتنا ، ولا قدرة عندك على مقاومتنا إن أردنا قتلك أو طردك من قريتنا .

ثم قالوا له - ثالثا - : ولولا ردهلك لرجمناك ، ورهط الرجل : قو وعشيرته الأقربون . ومنه الرهط لبحر اليربوع ، لأنه يحتوى فيه . . .

ولفظ (الرهط) اسم جمع يطلق غالبا على العصاة دون العشرة .
«رجال ليس فيهم امرأة» .

أى : ولولا عشيرتك التى هى على ملتنا وشريعتنا لرجمناك بالحجارة ثموت ، ولكن مجاملتنا لعشيرتك التى كفرت بك هى التى جعلتنا نبقى عليك

ثم قالوا له - رابعا - (وما أنت علينا بعزير) أى : وما أنت علينا بمكرم أو محبوب أو قوى حتى نمتنع عن رجلك ، بل أنت فينا الضعيف المكره

وهنا نجد شعبيا - عليه السلام - ينتقل في أسلوب مخاطبته لهم من اللين الشدة ، ومن التلطف إلى الإنكار ، دفاعا عن جلال ربه - سبحانه - فيقول لهم : (قال يا قوم أرهطى أعز عليكم من الله ...)

أى : أرهطى وعشيرتى الأقربون ، الذين من أجلهم لم ترجمونى ، وأكرم عندكم من الله - تعالى - الذى هو خالقكم ورازقكم ومهيئكم ومحييكم (واتخذتموه وراءكم ظهريا) أى : وجعلتم أوامره ونواهيه التى جئت بها من لدنه - سبحانه - كالشيء المنبوذ المهمل الملقى من وراء الظهر بس كفركم وطفيا فكم (إن ربي بما تعملون محيط) أى : إن ربي قد أحاط بـ

بأقوالكم وأعمالكم السيئة ، وسيجازيكم عليها بما تستحقون من عذاب مهين .

ثم زاد في توبيخهم وتهديدهم فقال (ويا قوم اعملوا على مكانتكم إني عامل سوف تعلمون ، من يأتيه عذاب يخزيه ، ومن هو كاذب وارقبوا إني معكم رقيب) والمكافاة مصدر مكن ككرم ، يقال مكن فلان من الشيء مكافه ، اذا تمكن منه أبلغ تمكن . والأمر في قوله (اعملوا) للتهديد والوعيد .

أى : اعملوا كل ما في إمكانكم عمله معى ، وابذلوا في تهديدى ووعيدى ما شئتم ، فإن ذلك لن يضيرنى ، وكيف يضيرنى وأنا المتوكل على الله المعتمد على عونه ورعايته ... ؟

وإني سأقابل عملكم السوء هذا بعمل آخر حسن من جانبي . وهو الدعوة إلى وحدانية الله - تعالى - وإلى مكارم الأخلاق .

وقوله : سوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ومن هو كاذب ... ، ستغاف مؤكدة لتهديده لهم .

أى : اعملوا ما شئتم وأنا سأعمل ما شئت . فإنكم بعد ذلك سوف تعلمون من منا الذى سينزل به عذاب يخزيه ويفضحه ويهينه ، ومن منا الذى هو كاذب فى قوله وعمله .

« وارقبوا ، عاقبة تكذيبكم للحق » إني معكم رقيب ، أى : إني معكم منتظر ومراقب لما سيفعله الله - تعالى - بكم .

وبذلك نرى شعيبا - عليه السلام - فى هاتين الآيتين ، قد استعمل مع قومه أسلوبا آخر فى المخاطبة ، يمتاز بالشدة عليهم والتهديد لهم ، لا غضبا لنفسه ، وإنما لأجل حرمان الله - تعالى - ، والدفاع عن دينه .

ولم يطل انتظار شعيب - عليه السلام - ومراقبته لم يحدث لقومه ، بل جاء عقاب الله - تعالى - لهم بسرعة وحسم ، بعد أن لجوا فى طغيانهم ، وقد

حكى - سبحانه - ذلك فقال : ولما جاء أمرنا نجينا شعيبا والذين آمنوا معه برحمة مما ...

أى : وحين جاء أمرنا بعذابهم ، وحل أوان هذا العذاب ، نجينا نبينا شعيبا ونجينا الذين آمنوا به وصدقوه ، حالة كونهم مصحوبين برحمة عظيمة كائنة مثلا لا من غيرنا .

« وأخذت الذين ظلموا ، من قومهم ، الصيحة » التى زلزلتهم وأهلكتهم .
« فأصبحوا فى ديارهم » التى كانوا يسكنونها .

« جائمين » أى : هامين ميتين لا تحس لهم حركة ، ولا تسمع لهم ركزا ..
من الجثوم وهو للناس والطير بمنزلة البروك للإبل . يقال . جثم الطائر
يجم جثما وجثوما فهو جائم إذا وقع على صدره ولزم مكانه فلم يبرحه .

« كان لم يغنوا فيها » أى : كان هؤلاء الهلكى من قوم شعيب ، لم يعيشوا
فى ديارهم قبل ذلك عيشة ملاؤها الرغد والرخاء والأمان ...

يقال : غنى فلان بالمكان ، إذا أقام به وعاش فيه فى نعمة ورغد ...
« ألا بعدا لمدين كما بعدت نمود » أى : ألا هلا كما مصحوبا بالخزى واللعنة
والطرود من رحمة الله لقبيلة مدين ، كما هلك من قبلهم قبيلة نمود .

وهكذا طويت صفحة أخرى من صفحات الظالمين وهم قوم شعيب ..
عليه السلام — كما طويت من قبلهم صفحات قوم نوح وهود وصالح ولوط
— عليه السلام — .

هذا ، ومن أهم العبر والعظات التى تتجلى واضحة فى قصة شعيب مع قومهم
كما جاءت فى هذه السورة الكريمة :

أن الداعى إلى الله لىكى ينجح فى دعوته ، عليه أن ينوع خطابه للمدعوين ،
بحيث يشتمل توجيها على الترغيب والترهيب ، وعلى الأسباب وما تؤدى إليه
من نتائج ، وعلى ما يقنع العقل ويقنع العاطفة ...

ففي هذه القصة نجد شعبيا — عليه السلام — يبد أدعوته بأمر قومه بعبادة الله — تعالى — ، ثم ينههم عن أبرز الرذائل التي كانت منتشرة وهي نقص المكيال والميزان ، ثم يبين لهم الأسباب التي حملته على ذلك : « إني أراكم بخير وإني أخاف عليكم عذاب يوم محيط » .

ثم ينههم نهيا عاما عن الإفساد في الأرض ، ولا تعثوا في الأرض مفسدين ، ثم يرشدكم إلى أن الرزق الحلال مع الإيمان والاستقامة ، خير لهم من التشيع بزينة الحياة الدنيا بدون تمييز بين ما هو صالح وما هو طالح : « بقية الله خير لكم إن كنتم مؤمنين » .

ثم يذكركم بأنه لا يأمرهم إلا بما يأمر به نفسه ، ولا ينههم إلا عما ينهها عنه وأنه ليس ممن يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم ، وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه ، إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت

ثم يذكركم بمصارع السابقين ، ويحذرهم من أن يسلكوا مسلكهم ، لأنهم لو فعلوا ذلك لهلكوا كما هلك الذين قبلهم : « ويا قوم لا يجر منكم شقا في أن يصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح »

ثم يفتح لهم باب الأمل في عفو الله عنهم متى استغفروه وتابوا إليه : « واستغفروا ربكم ثم توبوا إليه إن ربي رحيم ودود » .

ثم نراه يشور عليهم عندما يراهم يتجاوزون حدودهم بالذنبية لله — تعالى — وللحق الذي جاءهم به من عنده : « سبحانه » : أرهطى أعز عليكم من الله ، واتخذتموه وراكم ظهريا ، إن ربي بما تعملون محيط . ويا قوم اعملوا على مكائتكم إني عامل سوف تعملون

وهكذا نجد شعبيا — عليه السلام — وهو خطيب الأنبياء كما وصفه الرسول — صلى الله عليه وسلم — يرشد قومه إلى ما يصلحهم ويسعدهم بأسلوب حكيم ، جامع لكل ألوان التأثير ، والتوجيه السديد .

وايت الدعاة إلى الله في كل زمان ومكان يتعلمون من قصة شعيب - عليه السلام - مع قومه أسلوب الدعوة إلى الله - تعالى - .

• • •

ثم ختمت السورة السكريمة حديثها عن قصص الأنبياء مع أقوامهم ، بالإشارة إلى قصة موسى - عليه السلام - مع فرعون وملئه ، فقال - تعالى :-

« وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (٩٦) إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبِعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ (٩٧) يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوَرْدُ الْمَوْرُودُ (٩٨) وَاتَّبِعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ (٩٩) » .

وموسى - عليه السلام - هو ابن عمران ، من نسل « لاوى » بن يعقوب . ويرى بعض المؤرخين أن ولادة موسى كانت في حوالى القرن الثالث عشر قبل الميلاد ، وأن بعثته كانت في عهد منفتاح بن رمسيس الثانى .

والمراد بالآيات : الآيات التسع المشار إليها في قوله - تعالى - « وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ » (١)

وهى : العصا ، واليد البيضاء ، والسنون العجاف ، ونقص الثمرات ، والطوفان ، والجراد ، والقمل ، والضفادع ، والدم .

والسلطان المبين : الحجة الواضحة ، والبرهان الظاهر على صدقه ، وسمى ذلك سلطانا لأن صاحب الحجة والبرهان على ما يدعى ، يقهر ويغلب من لاجبة ولا برهان معه ، كما يقهر السلطان غيره .

واللهي : ولقد أرسلنا نبينا موسى - عليه السلام - بمعجزاتنا الدالة على صدقه ، وبحجته القوية الواضحة ، ثم الشاهدة على أنه رسول من عندنا ، إلى فرعون وملئه الذين هم خاصته ، وسادات قومه وكبرائهم . . .

وخصهم بالذكر مع فرعون ، لأنهم هم الذين كانوا ينفذون أوامره ، ويعاونونه على فسادهم والضمير في قوله : فاتبعوا أمر فرعون ، يعود إلى الملائكة .
أي : فاتبعوا أمره في كل ما قرره من كفر ، وفي كل ما أشار به من فساد .
وفي هذه الجملة الكريمة - كما يقول الزخشرى - تجهيل لهم ، حيث شاعبه على أمره ، وهو ضلال مبين لا يخفى على من فيه أدنى مسكة من العقل ، وذلك أنه ادعى الألوهية وهو بشر مثلهم ، وجاهر بالعسف والظلم والشر الذي لا يأتي إلا من شيطان مارد ، فاتبعوه وعللوا له دعواه ، وتتابعوا على طاعته .

وقال - سبحانه - فاتبعوا ، ولم يقل فاتبعوا أمره ، للتفخيم به ، والإعلان عن دمه الذي صرح به في قوله - سبحانه - وما أمر فرعون برشيد .

والرشيد بزنة - فعيل - من الفعل رشد من باب نصر وفتح : هو الشخص المتصف بإصابة الرأي ، وجودة التفكير ، وأضيف الرشد إلى الأمر على سبيل المجاز ، مبالغة في اشتغال أمر فرعون على ما يناقض الرشد والهدى ، ويطلق الغي والفساد .

أي : ما شأن فرعون وأمره بنى رشد وهدى ، بل هو محض الغي والضلال ، فكان من الواجب على ملئه أن ينبذوه ويهلكوه ، بدل أن يطيعوه ويتبعوه

ثم بين - سبحانه - سوء مصيره ومصير أتباعه فقال : « يقدم قومه يوم القيامة فأوردهم النار وبئس الورد المورود » .

يرقدم - كنصر - بمعنى يتقدم مأخوذ من الفعل قدم - بفتح الدال -

نقول : قدم الرجل يقدم قدماً وقدوما بمعنى : تقدم ، ومنه قادمة الرجل بمعنى مقدمته .

وقوله ، فأوردتهم ، من الإيراد وهو جعل الشيء وارداً إلى المكان .
وداخلاً فيه .

والورد - بكسر الواو - يطابق على الماء الذي يرد إليه الإنسان والحيوان للشرب .

والمعنى : يتقدم فرعون قومه يوم القيامة إلى جهنم ، كما كان يتقدمهم في الكفر في الدنيا ، فأوردتهم النار ، أى : فدخلها وأدخلهم معه فيها .

وعبر بالماضى مع أن ذلك سيحدث يوم القيامة ، لتحقيق الوقوع وتأكده ، وقد صرح القرآن بأنهم سيدخلون النار بمجرد موتهم فقال - تعالى - :
« النار يعرضون عليها غدوا وعشيا ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب ، (١) » .

وقوله ، وبشئ الورد المورود ، أى : وبشئ الورد الذى يردونه النار .
لأن الورد - الذى هو النصيب المقدر للإنسان من الماء - إنما يذهب إليه قاصده لتسكين عطشه ، وإرواء ظمئه ، وهؤلاء إنما يذهبون إلى النار التى هى الضد من ذلك .

ثم صرح - سبحانه - بلعنهم فى الدارين فقال : « وأتبعوا فى هذه لعنة ويوم القيامة ، ... » .

أى : إن اللعنة والفضيحة لحقت بهم واتبعهم فى الدنيا وفى الآخرة ، كما قال - تعالى - فى آية أخرى : « واتبعناهم فى هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة هم من المقبوحين ، (٢) » .

(١) سورة غافر الآية ٤٤ .

(٢) سورة القصص الآية ٤٣ .

وجملة « بنس الرفد المرفود » ، مستأنفة لإنشاء ذم اللعنة ، والمخصوص بالذم محذوف دل عليه ذكر اللعنة . أى بنس الرفد هى .
الرفد العطاء المعطى لهم تلك اللعنة المضاعفة التى لا يستهم فى الدنيا والآخرة .

وسميت اللعنة رفدا على سبيل التهكم بهم ، كما فى قول القائل : تحية بينهم ضرب وجيع فكأنه - سبحانه - يقول : هذه اللعنة هى العطاء المعطى من فرعون لاتباعه الذين كانوا من خلفه كقطيع الأغنام الذى يسير خلف قائده بدون تفكير أو تدبر

وبنس العطاء عطاؤه لهم ...

وإلى هنا تكون هذه السورة الكريمة قد حدثنا عن قصة نوح مع قومه ، وعن قصة هود مع قومه ، وعن قصة صالح مع قومه ، وعن قصة إبراهيم مع الملائكة ، وعن قصة لوط مع قومه ومع الملائكة ، وعن قصة شعيب مع قومه ، وعن قصة موسى مع فرعون وملئه .

وبلاحظ أن السورة الكريمة قد ساق لنا تلك القصص حسب ترتيبها التاريخى والزمنى ، لأهداف من أهمها :

١ - إبراز وحدة العقيدة فى دعوة الأنبياء جميعا ، فكل نبي قد قال لقومه : أعبدوا الله ما لكم من إله غيره ... ثم يسوق لهم الأدلة على صدقه فيما يبلغه عن ربه .

٢ - إبراز أن الناس فى كل زمان ومكان فيهم الأخيار الذين يتبعون الرسل ، وفيهم الأشرار الذين يحاربون الحق

٣ - بيان العاقبة الحسنة التى انتهى إليها المؤمنون بسبب إيمانهم وصدقهم وعملهم الصالح والعاقبة السيئة التى انتهى إليها الكافرون بسبب كفرهم وإعراضهم عن الحق ...

قال - تعالى - « فكلما أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصباً ، ومنهم من أخذنا ذنبه الصبيحة ، ومنهم من خسفنا به الأرض . ومنهم من أغرقنا ، وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون » .

• • •

ثم ساقَت السورة بعد ذلك حتى نهايتها آيات كريمة ، اشتملت على تعليقات وتعقيبات متنوعة ، وهذه التعليقات والتعقيبات قوية الصلة بما سبقها من آيات

وكان التعقيب الأول يهدف إلى بيان أن هذه القرى المهلكة التي منها ما هو قائم ومنها ما هو حصيد ، ما ظلم الله - تعالى - أهلها ، واسكن هم الذين ظلموا أنفسهم بمصائبهم الرسل ، وإصرارهم على الكفر والعناد . قال - تعالى - :

« ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقِصُهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيبٌ (١٠٠) وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ (١٠١) وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ (١٠٢) » .

أي : ذلك الذي قصصناه عليك - أيها الرسول الكريم - في هذه السورة الكريمة ، هو جزء من أنباء القرى ، المهلكة .

ونحن نقصه عليك ، في هذا القرآن عن طريق وحيينا الصادق ، ليعتبر به الناس ، وليعلموا أن هذا القرآن المشتمل على هذا القصص الذي لا علم لهم به من عند الله .

وافتح - سبحانه - الكلام باسم الإشارة المفيد للبعد ، للتنويه بشأن هذه الأنباء التي سبق الحديث عنها ، والإشعار بأنها أنباء هامة فيها الكثير من العظات والعبر أقوم يحفلون .

والضمير في قوله « منها قائم وحصيد » يعود إلى تلك القرى المهلكة ، والجملة مستأنفة للتحريض على النظر والاعتبار ، فكان سائلا سأل ما حال هذه القرى أباقيّة آثارها أم غي عليها الزمن ؟ فكان الجواب منها قائم وحصيد .

أى : من هذه القرى المهلكة ما آثارها ما زالت قائمة يراها الناظر إليها ، كأثار قوم ثمود .

ومنها ما آثارها غيت وزالت وانقطعت وصارت كالزرع المحصود الذي استوصل بقطعه ، فلم يبق منه باقية ، كديار قوم نوح .

ففي هذه الجملة الكريمة تشبيه بليغ ، حيث [شبهه - سبحانه - القرى التي بعض آثارها مازال باقيا بالزرع القائم على ساقه ، وشبه مازال منها واندر بالزرع المحصود .

وحصيد مبتدأ محذوف الخبر لدلالة ما قبله عليه . أى منها قائم ومنها حصيد .

وقوله - سبحانه - وما ظلمناهم ولكن ظلوا أنفسهم :.. ، بيان لمظاهر عدله في قضائه وأحكامه .

والضمير المنصوب في « ظلمناهم » يعود إلى أهل هذه القرى ، لأنهم هم المقصودون بالحديث .

أى : وما ظلمنا أهل هذه القرى ياهلا كنا إياهم ، ولكنهم هم الذين ظلوا أنفسهم ، بسبب إصرارهم على الكفر ، وجحودهم للحق ، واستهزائهم بالرسول الذين جاءوا لهدايتهم :..

ثم بين - سبحانه - موقف آلهتهم انخزي منهم فقال : « فَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ ... »

أى : أن هؤلاء المبدكين عندما نزل بهم العذاب ، لم تنفعهم أصنامهم التي كانوا يعبدونها من دون الله شيئاً من النفع ... بل هي لم تنفع نفسها فقد اندثرت معهم كما اندثروا ،

والفاء في قوله - سبحانه - « فَا أَغْنَتْ ... » ، للتفريع على ظلمهم لأنفسهم ، لأن اعتمادهم على شفاعاة الأصنام ، وعلى دفاعها عنهم ... من مظاهر جهلهم وغبائهم وظلمهم لأنفسهم .

و من ، في قوله : « مِنْ شَيْءٍ » ، لتأكيد انتفاء النفع والإغناء : أى : لم تنفع عنهم شيئاً ولو قليلاً من الإغناء ؛ ولم تنفعهم لافى قليل ولا كثير ...
وجملة « وما زادوهم غير تنقيب » ، تأكيد لنتى النفع ، وإثبات للضر والخسران .

والتنقيب : مصدر تب بمعنى خسر . وتبب فلان فلانا إذا أوقعه فى الخسران .

ومن قوله - تعالى - « تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ » ، أى : هلكتا وخسرتا كما قد هلك وخسر هو .

أى : وما زادتهم أصنامهم التي كانوا يعتمدون عليها فى دفع الضر سوى الخسران والهلاك .

قال الإمام الرازى : والمعنى أن المكفار كانوا يعتقدون فى الأصنام أنها تعين على تحصيل المنافع ودفع المضار . ثم لأنه - تعالى - أخبر أنهم عند مساس الحاجة إلى المعين . ما وجدوا منها شيئاً لا جلب نفع ولا دفع ضر ، ثم كالم يجدوا ذلك فقد وجدوا ضده ، وهو أن ذلك الاعتقاد زالت عنهم به منافع الدنيا والآخرة ، وجلب لهم مضارهما ، فكان ذلك من أعظم موجبات

الخسران ، (١) .

ثم بين - سبحانه - أنه في عقاب الظالمين في كل زمان ومكان فقال :
« وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة ... »

والكاف في « وكذلك » ، بمعنى مثل . والمراد بالقرى : أهلها الظالمون .
والأخذ : هو العقاب المبالغ السريع : يقال أخذ فلان الموت ، إذا نزل
به بسرعة وقوة .

أى : ومثل ذلك الأخذ والهلاك للظالمين السابقين ، يكون أخذ ربك وعقابه
لكل ظالم يأتي بعدهم ويهيج نهجهم .

وجملة « وهي ظالمة » ، في موضع الحال من القرى ، وفائدة هذه الحال
الإشعار بأن عقابهم كان بسبب ظلمهم ، وفي ذلك ما فيه من التحذير لكل ظالم
لا يبادر بالإقلاع عن ظلمه قبل فوات الأوان .

والمراد بالظالم ما يشمل الكفر وغيره من الجرائم والمعاصي التي نهى عنها ،
كالكذب وشهادة الزور ، وأكل أموال الناس بالباطل .

وقوله : « إن أخذه أليم شديد » ، زيادة في التحذير من الوقوع في الظالم .
أى : إن أخذه - سبحانه - للظالمين عظيم إيلاؤه ، شديد وقعه ، لا هوادة
فيه ، ولا تخلف منه .

روى الشيخان عن أبي موسى الأشعري أن رسول الله - صلى الله عليه
وسلم - قال : إن الله ليملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته . ثم قرأ رسول الله
- صلى الله عليه وسلم - « وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن
أخذته أليم شديد » (٢) .

(١) تفسير الفخر الرازي ج ١٨ ص ٥٦

(٢) تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٢٧٩

ثم بين - سبحانه - أن ما ساقه في هذا القرآن عن أحوال السابقين فيه العبرة لمن اعتبر ، وفيه العظة لمن خاف عذاب الآخرة الذي ينقسم الناس فيه إلى شقي وسعيد ، فقال - تعالى - :

« إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّمَن خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ مُّجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ (١٠٣) وَمَا تُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مُّعَدودٍ (١٠٤) يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلِّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَنهَم شَقِيٌّ وَسعيدٌ (١٠٥) وَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ (١٠٥) خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَانَتْ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ ، إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ (١٠٦) وَأَمَّا الَّذِينَ سَعِدُوا فِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَانَتْ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرَ مَجْذُودٍ (١٠٧) » .

أى : إن في ذلك ، الفصص الذى قصصناه عليك - يا محمد - : والمشتغل على بيان سنة الله التى لا تتخلف فى إهلاك الظالمين .

« لآية ، أى : لعبرة عظيمة ، وعظة بليغة ، وحجة واضحة :

« لمن خاف عذاب الآخرة ، لأنه هو المستفيع بالعبر والعظات لصدق إيمانه ، وصفاء نفسه ، وإبقائه بأن هناك فى الآخرة ثوابا وعقابا ، وحسابا على الأعمال الدنيوية .. » .

أما الذى ينكر الآخرة وما فيها من ثواب وعقاب ، إيمانه لا يعتبر بما أصاب الظالمين من عذاب دنيوى دمرهم تدميرا ، بل ينسب ذلك إلى أسباب طبيعية أو فلسفية أو غيرها ، لا علاقة لها بكفرهم وظلمهم وطغيانهم

ولأن الخائف من عذاب الآخرة ، عندما يرى ما حل بالمجرمين فى الدنيا

من عقاب ، يزداد إيمانا على إيمانه ، وتصديقا على تصديقه ، بأن الله - تعالى -
تقادر على أن يعذبهم في الآخرة عذابا أشد وأبقى من عذاب الدنيا ...

ثم بين - سبحانه - أن يوم القيامة آت لا ريب فيه فقال : ذلك يوم
يجمع له الناس وذلك يوم مشهود :

واسم الإشارة في الموضعين ، يعود إلى يوم القيامة المدلول عليه بذكر
عذاب الآخرة قبل ذلك . واللام في قوله - سبحانه - « يجمع له » ، لام اللمة .

أى : ذلك اليوم وهو يوم القيامة ، يوم يجمع الناس فيه لأجل محاسبتهم
ونجازاتهم على أعمالهم ، ويشهده جميع الخلائق الذين يؤمرون بشهوده ، دون
أن يغيب منهم أحد قال صاحب الكشف : ود الناس ، رفع باسم المفعول
الذى هو (يجمع) كما يرفع بفعله إذا قلت يجمع له الناس .

فإن قلت : لآى فائدة أوتر لإسم المفعول على فعله ؟

قلت : لما فى إسم المفعول من دلالة على ثبات معنى الجمع لليوم ، وأنه يوم
لا بد من أن يكون ميّادا مضروبا بالجمع الناس له ، وأنه الموصوف بذلك
صفة لازمة . وهو أثبت - أيضا - لإسناد الجمع إلى الناس وأنهم
لا ينفكون منه .

ونظيره قول المتقدم : إنك لمنهوب مالك ، محروب قومك ، فيه من تمكن
الوصف وثباته ما ليس فى الفعل

والمراد بالمشهود : الذى كثر شاهده ، ومنه قولهم : لفلان مجلس ،
مشهود ، وطعام محضور ... والغرض من ذلك ، وصف هذا اليوم بالهول
والعظم وتميزه من بين الأيام ، بأنه اليوم الذى يشهد فيه الخلائق الموقف لا يغيب
عنه أحد ... (١)

ثم قال - تعالى - « وما تؤخره إلا لأجل معدود ،

والأجل في اللغة : الوقت المضروب لانتها مدة معينة ، فأجل الإنسان
هو الوقت المحدد لانقضاء عمره .

والمعدود : أصله المحسوب ، والمراد به هنا : المحدد بمدة معينة لا يزيد عليها
ولا يتأخر عنها .

أى : أننا لا تؤخر هذا اليوم إلا لوقت محدود معلوم لنا ، فإذا ما جاء موعد
هذا الوقت ، حل هذا اليوم الهائل الشديد وهو يوم القيامة ، الذى اقضت
حكمتنا عدم اطلاق أحد على مواعده .

ثم ذكر - سبحانه - جانباً من أهوال هذا اليوم ، ومن أحوال الناس
فيه فقال : « يوم يأت لاتكلم نفس إلا بإذنه فمنهم شقى سعيد ،

والشقى : صفة مشبهة من الفعل شقى ، وهو الشخص المتطلب بالشقاوة
والشقاء ، - أى : سوء الحال - بسبب إشارته الضلالة على الهداية ، والباطل
على الحق ...

والسعيد : هو الشخص المتطلب بالسعادة ، وبالأحوال الحسنة بسبب إيمانه
وعمله الصالح .

والمعنى : حين يأتى هذا اليوم ، وهو يوم القيامة ، لاتكلم فيه نفس بأى
كلام إلا بإذن الله - تعالى - ويكون الناس فيه منقسمين إلى قسمين : قسم
شقى معذب بسبب كفره ، وسوء عمله ، وتفريطه فى حقوق الله ...

وقسم سعيد منعم بسبب إيمانه ، وعمله الصالح ...

فإن قيل : كيف نجمع بين هذه الآية التى تنفى الكلام عن كل نفس إلا
 بإذن الله وبين قوله - تعالى - « يوم تأتى كل نفس تجادل عن نفسها ... ،

فالجواب : أن في يوم القيامة مواقف متعددة ، ففي بعضها يجادل الناس عن أنفسهم ، وفي بعضها يكفون عن الكلام إلا بإذن الله ، وفي بعضها يحتم على نفوسهم ، وتتكلم أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون ...

وفي هذه الآية الكريمة لإبطال لما زعمه المشركون من أن أصنامهم متدافع عنهم ، وستدفع لهم يوم القيامة .

قال الإمام ابن كثير : قوله - تعالى - يوم يأت لاتكلم نفس إلا بإذنه ... أي : يوم يأتي هذا اليوم وهو يوم القيامة ، لا يتكلم أحد إلا بإذن الله - تعالى - كما قال - سبحانه - : « يوم يقوم الروح والملائكة صفا لا يتسكعون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا » (١)

وقال - سبحانه - : « وخشعت الأصوات للرحمن فلا تسمع إلا همسا » (٢)

- في الصحيحين عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في حديث الشفاعة الطويل : « ولا يتكلم يومئذ إلا الرسل ، ودعوة الرسل يومئذ : اللهم سلم سلم » (٣)

ثم فصل - سبحانه - أحوال الأشقياء والسعداء فقال : « فأما الذين شقوا ففي النار لهم فيها زفير وشهيق »

قال الألوشي : قال الراغب : الزفير ترديد النفس حتى تنتفخ الضلوع منه مأخوذ من زفر فلان إذا حمل حملا بمشقة فتردد فيه نفسه . ومنه قيل للإماء الحاملات الماء زوافر .

والشهيق . رد النفس إلى الصدر بصعوبة وعناء .

(١) سورة النبأ الآية ٢٨

(٢) سورة طه الآية ١٠٨

(٣) تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٢٧٩

والمراد بهما : الدلالة على شدة كربهم وغمهم ، وتشبيه حالهم بحال من استولت على قلبه الحرارة ، واستبد به الضيق - حتى صار في كرب شديد (١)

والمعنى : فأما الذين كان نصيبهم الشقاء في الآخرة ، بسبب كفرهم واقترافهم للمعاصي في الدنيا . فصيرهم الإستقرار في النار ، لهم فيها ضيق الاتاس . وخرج الصدور . وشدة الكرب ما يجعلهم يفضلون الموت على ما هم فيه من هم وغم . ونخص - سبحانه - من بين أحوالهم الآلية حالة الزفير والشهيق ؛ تنفيذا من الأسباب التي توصل إلى النار . وتشبيها لتلك الحالة التي فيها ما فيها من سوء المنظر . وتعاसे الحال ...

ثم أكد - سبحانه - خلودهم في النار فقال : «خالدين فيها ما دامت السموات والأرض ...»

أي أن الأشقياء لهم في النار العذاب الأليم . وهم ما كثون فيها مكث بقاءه وخلود لا يبرحونها مدة دوام السموات التي تظلمهم . والأرض التي تقلهم فهو في معنى قوله - تعالى - (خالدين فيها أبدا)

قال الألوسي ما ملخصه : والمقصود من هذا التعبير : التأييد ونفي الانقطاع على منهاج قول العرب لا أفعل كذا ، ملاح كوكب ، وما أضياء الفجر ، وما اختلف الليل والنهار ... إلى غير ذلك من كلمات التأييد عندهم ...

وليس المقصود منه تعليق قرارهم فيها بدوام هذه السموات والأرض ، فإن النصوص القاطعة دالة على تأييد قرارهم فيها .

وجوز أن يحمل ذلك على التعليق ، وبراد بالسموات والأرض ، سماوات الآخرة وأرضها ، وهما دائمتان أبدا ... (٢)

(١) تفسير الألوسي ١٢ ص ١٢٦

(٢) تفسير الألوسي ١٢ ص ١٢٦

أما قوله - سبحانه - (إلا ما شاء بك) فقد ذكر العلماء في المقصود به أقوالاً متعددة أوصلها بعضهم إلى ثلاثة عشر قولاً من أشهرها :

أن هذا الاستثناء في معنى الشرط ، فكأنه - سبحانه - يقول :

١ - خالدين فيها مخلوداً أبدياً إن شاء ربك ذلك ، إذ كل شيء خاضع لمشيئة ربك وإرادته ..

وعليه يمكن المقصود من هذا الاستثناء وأمثاله ، إرشاد العباد إلى وجوب تفويض الأمور إليه - سبحانه - وإعلامهم بأن كل شيء خاضع لإرادته ومشئته ، فهو الفاعل المختار الذي لا يجب عليه شيء ، ولا حق لأحد عليه (إن ربك فعال لما يريد)

وليس المقصود من هذا الاستثناء وأمثاله ، نفي مخلودهم في النار ، لأنه لا يلزم من الاستثناء المعلق على المشيئة وقوع المشيئة ، ولأنه قد أخبرنا - سبحانه - في كتابه بمخلود الكافرين مخلوداً أبدياً في النار .

قال - تعالى - إن الذين كفروا وظلموا لم يكن الله ليغفر لهم ولا يهديهم طريقاً . إلا طريق جهنم خالدين فيها أبداً وكان ذلك على الله يسيراً (١)

وشبه بهذا الاستثناء ما حكاه - سبحانه - عن نبيه شعيب - عليه السلام - في قوله :

وقال الملأ الذين استكبروا من قومه لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودن في ملتنا قال أو لو كنا كارهين . قد أقرينا على الله كذباً أن عدنا في ملتكم بعد إذ نجانا الله منها ، وما يكون لنا أن نعود فيها إلا أن يشاء الله ربنا ، وسع ربنا كل شيء علماً (٢) .

(١) سورة النساء . الآيتان ١٦٧ ، ١٦٨

(٢) راجع تفسيرنا لسورة الأعراف ص ١٢٠ .

فشميع - عليه السلام - مع ثقته المطلقة في أنه لن يعود هو وأتباعه إلى ملة الكفر ، نراه يفوض الأمر إلى مشيئة الله فأدبا معه - سبحانه - ...

فيقول : وما يكون لنا أن نعود فيها - أي ملة الكفر - إلا أن يشاء ربنا شيئا غير ذلك وهذا من الأدب العالي في مخاطبة الأنبياء الخالقهم - عز وجل - .

وقد ذكر كثير من المفسرين هذا القول ضمن الأقوال في معنى الآية ، وبعضهم اقتصر عليه ولم يذكر سواه ، ومن هذا البعض صاحب المنار ، وصاحب محاسن التأويل ...

أما صاحب المنار فقد قال : قوله ، إلا ما شاء ربك ، أي : أن هذا الخلود الدائم هو المعد لهم في الآخرة إلا ما شاء ربك من تغيير في هذا النظام في طور آخر ، فمَرَّ إنما وضع بمشيئته ، وسيبقى في قبضة مشيئته ، وقد عهد مثل هذا الاستثناء في سياق الأحكام القطعية للدلالة على تقييد تأييدها بمشيئة الله - تعالى - ، فقط ، لا لإفادة عمومها (١) .

وأما صاحب محاسن التأويل فقد قال : فإن قلت : ما معنى الاستثناء بالمشيئة ، وقد ثبت خلود أهل الدارين فيهما من غير استثناء ؟

فالجواب : أن الاستثناء بالمشيئة قد استعمل في أسلوب القرآن ، للدلالة على الثبوت والاستمرار .

والنسكتة في الاستثناء بيان أن هذه الأمور الثابتة الدائمة ، إنما كانت كذلك بمشيئة الله - تعالى - لا بطبيعتها في نفسها ، ولو شاء - تعالى - أن يغيرها لفعل .

وابن كثير قد أشار إلى ذلك بقوله : ، يعني أن دوامهم فيها ليس أمر

واجبا بذاته ، بل هو موكل إلى مشيئته - تعالى - ، (١) .

٢ - أن الاستثناء هنا خاص بالعصاة من المؤمنين .

ومن العلماء الذين رجحوا هذا القول الإمامان : ابن جرير وابن كثير .

أما ابن جرير فقد قال مملخصه بعد أن سرد الأقوال في ذلك :

« وأرى الأقوال في تأويل هذه الآية بالصواب ، القول الذي ذكرناه عن الضحاك وقتادة من أن ذلك استثناء في أهل التوحيد من أهل الكبائر ، أنه يدخلهم النار خالدن فيها أبدا ، إلا ما شاء تركهم فيها أقل من ذلك ، ثم يخرجهم فيدخلهم الجنة - أي العصاة من المؤمنين - » (٢) .

وأما ابن كثير فقد وضع ما اختاره ابن جرير ورجحه فقال مملخصه :

« وقد اختلف المفسرون في المراد من هذا الاستثناء على أقوال كثيرة نقل كثيرا منها الإمام ابن جرير ، واختار : أن الاستثناء عائد على العصاة من أهل التوحيد ، ممن يخرجهم الله من النار بشفاعة الشافعين ، من الملائكة والنبين والمؤمنين ، حين يشفعون في أصحاب الكبائر ، ثم تأتي رحمة أرحم الراحمين ، فتخرج من النار من لم يعمل خيرا قط ، وقال يوما من الدهر : لا إله إلا الله ، كما وردت بذلك الأخبار الصحيحة المستفيضة عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ، ولا يبقى بعد ذلك في النار إلا من وجب عليه الخلود فيها ، ولا يحيد له عنها ، وهذا الذي عليه كثير من العلماء قديما وحديثا في تفسير هذه الآية الكريمة » (٣) .

وقد ذكر الشيخ الشوكاني هذا القول ضمن أحد عشر قولاً فقال

ما ملخصه :

(١) تفسير القاسمي ٩ ص ٣٤٨٦ .

(٢) تفسير ابن جرير ١٢ ص ٧٠ .

(٣) تفسير ابن كثير ٤ ص ٢٨١ .

وقوله ، إلا ما شاء ربك ، : قد اختلف أهل العلم في هذا الاستثناء على أقوال منها :

(أ) أنه من قوله « ففي النار » كأنه قال : إلا ما شاء ربك من تأخير قوم عن ذلك ...

(ب) أن الاستثناء إنما هو للعصاة من الموحدين ، فإنهم يخرجون بعد مدة من النار ، وعلى هذا يكون قوله « فأما الذين شقوا » عاما في المكفرة والعصاة ، ويكون الاستثناء من خالدين ، وتسكون « أما » بمعنى « من » ، وقد ثبت بالأحاديث المتواترة تواترا يفيد العلم الضروري بأنه يخرج من النار أهل التوحيد ، فكان ذلك مخصصا لكل عموم .

(ج) أن الاستثناء من الزفير والشهيق . أى لهم فيها زفير وشهيق ، إلا ما شاء ربك ، من أنواع العذاب غير الزفير والشهيق (١) .

ويبدو لنا أن الرأي الأول أرجح الآراء ، ويشهد لهذا قوله - تعالى - بعد ذلك :

« إن ربك فعال لما يريد ، أى فهو إن شاء غير ذلك فعله ، وإن شاء ذلك فعله ، ما شاء من الأفعال كان وما لم يشأه لم يكن .

وجاء - سبحانه - بصيغة المبالغة ، للإشارة إلى أنه - سبحانه - لا يتعاضى عليه فعل من الأفعال بأى وجه من الوجوه .

ثم بين - سبحانه - حسن عاقبة السعداء فقال : « وأما الذين سعدوا ، أى فى الآخرة بسبب إيمانهم وتقواهم فى الدنيا ، « ففي الجنة خالدين فيها إلا ما شاء ربك عطا . غير مجزوز ، .

أى : عطاء منه - سبحانه - لهم غير مقطوع عنهم . يقال : جذا الشيء - يجزمه

جذا ، أى : كسره وقطعه ، ومنه الجذاذ - بضم الجيم - لما تكسر من
كما فى قوله - تعالى - حكاية عما فعله إبراهيم - عليه السلام - بالأصنام - .
جذاذا إلا كبير اللهم ، ...

وبذلك نرى أن هذه الآيات قد فصلت أحوال السعداء ، والأش
تفصيلا يدعو العقلاء إلى أن يسلكوا طريق السعداء ، وأن يتجنبوا
الآشقياء .

• • •

ثم ساق - سبحانه - بعد ذلك من الآيات ما فيه تسلية للنبي - صلى الله
وسلم - عما أصابه من قومه من أذى ، وما فيه تثبيت لقلوب المؤمنين ، و
إرشاد لهم إلى ما يقربهم من الخير ، ويبعدهم عن الشر فقال - تعالى -

« فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ ، مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْْبُدُ
مِنْ قَبْلُ ، وَإِنَّا لَمُوفُونَ بِمَا نَعْبُدُهُمْ غَيْرَ مَنْقُوصٍ (١٠٩) وَلَقَدْ آتَيْنَاهُم
الْكِتَابَ فَاخْتَلَفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُ
وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٌ (١١٠) وَإِنْ كَلَّا لَمَا يُؤْفِقُهُمْ رَبُّكَ أَعِ
إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (١١١) فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ ،
تَطْمَئِنَّا ، إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (١١٢) وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ
فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءِ ثُمَّ لَا تُنصِرُونَ (١١٣)
وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَى النَّهَارِ وَزُلْفًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبُنَ السَّيِّئَاتِ
ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ (١١٤) وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ
الْمُحْسِنِينَ (١١٥) » .

قال الفخر الرازى : اعلم أنه - تعالى - لما شرح أقاصيص عبدة الآ

ثم أتبع، بأحوال الأشقياء وأحوال السعداء شرح الرسول صلى الله عليه وسلم -
أحوال الكفار من قومه فقال : ، فلا تك في مرية . . . ، والمعنى : فلا تكن ،
إلا أنه حذف النون لكثرة الاستعمال . ولأن حرف النون إذا وقع على
طرف الكلام ، لم يبق عند التلفظ ، إلا مجرد الفنة ، فلا جرم أسقطوه . (١)

والمرية - بكسر الميم - اشك المتفرع عن حاجة ومجادلة بين المتخاصمين .
والمعنى : لقد قصصنا عليك أيها الرسول الكريم الكثير من أخبار السابقين
وبينا لك مصير السعداء والأشقياء . . . وما دام الأمر كذلك ، فلا تك في شك
من أن عبادة هؤلاء المشركين لأصنامهم إنما هي تقليد لما كان يعبد آباؤهم
من قبل ، وهذه العبادة لغير الله - تعالى - ستؤدي بالجميع إلى سوء العاقبة . وإلى
العذاب الأليم .

والخطاب وإن كان للرسول - صلى الله عليه وسلم - على سبيل التسلية
والتثبيت ، إلا أن التحذير فيه يندرج تحت كل من يصلح للخطاب .

وهذا الأسلوب كثيرا ما يكون أوقع في النفس : وأشد تأثيرا في القلب ،
لأنه يشمر المخاطب بأن ما بينه الله - تعالى - لرسوله - صلى الله عليه وسلم - إنما
هو من قبيل القضايا الموضوعية التي لا تحتاج إلى جدال مع أحد ، ومن جادل
فيها فإنما يجادل في الحق الواضح بدافع الحسد والعناد ، لأن الواقع يشهد بصحة
ما بينه الله - تعالى - لرسوله - صلى الله عليه وسلم - .

وجملة ما يعبدون إلا كما يعبد آباؤهم من قبل ، مستأنفة ، لبيان أن الخلف
قد ساروا في الجمالة والجحود على طريقة السلف .

وعبر عن عبادة الآباء بالمضارع ، مع أنها كانت في الماضي بقرينة . من
قبل ، . للدلالة على استمرارهم على هذه العبادة الباطلة حتى موتهم ، وأن

أبناؤهم لم ينتطعوا عنها ، بل واصلوا السير على طريق آباءهم الضالين
تفكر أو تدبر .

والمضاف إليه في قوله « من قبل » ، محذوف ، والتقدير : من قبلهم .
وقوله « وإنا لموفوهم نصيبهم غير منقوص » ، تذييل قصد به تأكيد
الذي سيترتب لهم في الآخرة بسبب عبادتهم لغير الله .

وموفوهم من التوفية ، وهى إعطاء الشيء كاملا بدون نقص .

والمراد بالنصيب هنا : المقدار المعد لهم من العذاب ، وسماه نصيبا على
التحكم بهم .

أى : وإنا لمعطو هؤلاء الذين نهجوا منهج آباءهم في عبادة غير الله ، فله
وحظهم من عذاب الآخرة كاملا بدون إنقاص شىء منه ، كما ساروا
طريقة سلفهم فى الضلال دون أن يغيروا شيئا منها ...

ومنهم من جعل المراد بالنصيب هنا : ما يشمل الجزاء على الأعمال الد
والآخروية .

قال صاحب المنار : أى . وإنا لمعطوهم نصيبهم من جزاء أعمالهم فى
والآخرة وأغيا تماما لا ينقص منه شىء ، كما وفينا آباءهم الأولين من
فإنه ما من خير يعمل واحد منهم كبر الوالدين وصلة الأرحام ... إلأوى
الله جزاءهم عليه فى الدنيا بسعة الرزق ، وكشف الضر جزاء تاما ، لا
شئ يحزون عليه فى الآخرة (١)

ويبدو لنا أن رأى الأول أقرب إلى الصواب ، لأن سياق
الكرامة يؤيد إذ الكلام فيها فى شأن جزاء الذين ساروا على نهج آباء
الضلال ، وليس فى بيان الجزاء العام فى الدنيا والآخرة .

ثم بين - سبحانه - أن اختلاف الناس في الحق موجود قبل بعثة النبي صلى الله عليه وسلم - فقال : ولقد آتينا موسى الكتاب فاختلف فيه ...

أى : كما اختلف قَوْمك - أيها الرسول الكريم - في شأن القرآن الكريم فمنهم من وصفه بأنه أساطير الأولين ، فقد اختلف قوم موسى من قبلك في شأن التوراة التى أنزلها الله على نبيهم موسى لهدايتهم ، إذ منهم من آمن بها ومنهم من كفر ...

ومادام الأمر كذلك ، فلا تحزن - أيها الرسول الكريم - لاختلاف قَوْمك في شأن القرآن الكريم ، فإن هذا الاختلاف شأن الناس في كل زمان ومكان والمصيبة إذا عمت خفت .

فالجلة الكريمة تسلمية للرسول - صلى الله عليه وسلم - عما أصابه من مشركى قومه .

وجاء الفعل « اختلف » بصيغة المبني للمجهول ، لأن ذكر فاعل الاختلاف لا يتعلق به غرض ، وإنما الذى يتعلق به الغرض هو ما نجم عن هذا الاختلاف من كفر وضلال .

ثم بين - سبحانه - جانباً من مظاهر فضله ورحمته بخلقه فقال : ولولا كلمة سبقت من ربك لقضى بينهم ... ،

والمراد بالكلمة التى سبقت : تأخير العذاب عنهم إلى يوم القيامة ، وعدم إهلاكهم بعذاب الاستئصال فى الدنيا .

قال الشوكانى : قوله - سبحانه - « ولولا كلمة سبقت من ربك لقضى بينهم ... » أى : لولا أن الله - تعالى - قد حكم بتأخير عذابهم إلى يوم القيامة لما علم فى ذلك من الصلاح ، لقضى بينهم ، أى : بين قَوْمك ، أو بين قوم موسى ، فيما كانوا فيه مختلفين ، فأنيب الحق وعذب المبطل ، أو الكلمة : هى أن رحمته سبحانه سبقت غضبه ، فأمهلهم ولم يعاجلهم لذلك .

وقيل إن الكلمة هي أنهم لا يعذبون بعذاب الاستئصال . وهذا من ج
التسليّة له - صلى الله عليه وسلم - ، (١) .

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بقوله : « ولأنهم لنى شك منه مرىب
والمرىب اسم فاعل من أراب . يقال أربته فأنا أريبه إذا فعلت به فـ
يوجب لديه الريبة والحيرة .

أى : وإن هؤلاء المختلفين فى شأن الكتاب لنى شك منه ، وهذا الذى
قد أوقعهم فى الريبة والحيرة والتخبط والاضطراب .

وهذا شأن المعرضين عن الحق ، لا يجدون مجالا لنقده وإنكاره ، فيجد
عنادهم وجحودهم على التشكيك فيه ، وقاويله تأويلا سقيما بدعو
الريبة والقلق .

وبعض المفسرين يرى عودة الضمير فى قوله « ولأنهم » إلى قوم موسى
وفى قوله « منه » ، إلى كتابهم التوراة .

وبعضهم يرى عودة الضمير الأول إلى قوم النبي - صلى الله عليه وسلم -
والثانى إلى القرآن الكريم .

والذى يبدو لنا أن رأى الأول أظهر فى معنى الآية ، لأن الكلام
موسى - عليه السلام وقومه الذين اختلفوا فى شأن كتابهم التوراة اخـ
كبيراً ، وعود الضمير إلى المتكلم عنه أولى بالقبول .

وهذا لا يمنع أن بعض المكذبين للرسول - صلى الله عليه وسلم - كـ
فى شك من القرآن ، أوقعهم هذا الشك فى الريبة والحيرة .

فتكون الجملة الكريمة من باب التسليّة للرسول - صلى الله عليه وسلم -
عما قاله بعض المشركين فى شأن القرآن الكريم .

ثم بين - سبحانه - أن هؤلاء المختلفين في شأن الكتاب ، الشاكين في صدقه ، سوف يحممهم الله - تعالى - مع غيرهم يوم القيامة للجزاء والحساب على أعمالهم فقال - تعالى - « وإن كلاً لما ليوفيه ربك أعمالهم إنه بما يعملون خبير » .

وقد وردت في هذه الآية الكريمة عدة قراءات متواترة (١) منها : قراءة ابن عامر وحمزة وحفص عن عاصم بتشديد « إن ولما » ، وقد قيل في تخريجهم :

إن لفظ « كلاً » اسم إن ، والنون فيه عوض عن المضاف إليه ، واللام في « ولما » هي الداخلة في خبر « إن » ، وما بعد اللام هو حرف « من » الذي هو من حروف الجر ، و « ما » موصولة أو نكرة موصوفة والمراد بها من يعقل . فيكون تقدير الكلام : « وإن كلاً لمن ما » فقلبت النون فيما للإدغام فاجتمع ثلاث ميمات ، فحذفت واحدة منها للتخفيف ، فصارت « ولما » والجار والمجرور خبر « إن » ، واللام في « ليوفيه ربك » جواب قسم مضمرة ، والجملة صلة أو صفة « ولما » .

والتقدير : « وإن كلاً من أولئك المختلفين وغيرهم لمن خلق الله الذين هم بحق ربك ليوفيه ربك » سبحانه - جزاء أعمالهم دون أن يفلت منهم أحد ، إنه - سبحانه - لا يخفى عليه شيء منها .

وفي الآية الكريمة توكيدات متنوعة ، حتى لا يشك في نزول العذاب بالظالمين مهما تأجل ، وحتى لا يشك أحد - أيضاً - في أن ما عليه المشركون هو الباطل الذي لا يعرفه الحق ، وأنه الكافر الذي تلقاه الخلفاء عن السلف .

(١) لمعرفة هذه القراءات راجع حاشية الجمل على الجلالين ج ٢ ص ٤٢٦

وتفسير الألوسي ج ١٢ ص ١٣٣ .

وكان مقتضى حال الدعوة الإسلامية في تلك الفترة التي نزلت فيها هذه السورة - وهي فترة ما بعد حادث الإسراء والمعراج وقبل الهجرة - يستلزم هذه التأكيديات تثقيتاً لقلوب المؤمنين، وتوهيناً للشرك والمشركين .

قال الإمام الفخر الرازي عند تفسيره لهذه الآية ما ملخصه : سمعت بعض الأفاضل قال : إنه - تعالى - لما أخبر عن توفية الأجزية على المستحقين في هذه الآية ، ذكر فيها سبعة أنواع من التأكيديات :

أولاً : كلمة « إن » ، وهي للتأكيد ، وثانيها كلمة « كل » ، وهي أيضاً للتأكيد ، وثالثها : اللام الداخلة على خبر « إن » ، وهي تفيد التأكيد - أيضاً - ، ورابعاً : حرف « ما » ، إذا جعلناه على قول الفراء موصولاً ، وخامساً : القسم المضمحل فإن تقدير الكلام : وإن جميعهم والله ليوفينهم ؛ وسادساً : اللام الثانية الداخلة على جواب القسم ، وسابعها : النون المؤكدة في قوله « ليوفينهم » .

فجميع هذه المؤكدات السبعة تدل على أن أمر القيامة والحساب والجزاء حق (١)

ثم أمر الله - تعالى - رسوله - صلى الله عليه وسلم - وأتباعه بالتزام الصراط المستقيم فقال - سبحانه - : « واستقيم كما أمرت ومن تاب معك ولا تطغوا إنه بما تعملون بصير » .

والفاء للتفريع على ما تقدم من الأوامر والنواهي .

والاستقامة - كما يقول القرطبي - هي الاستمرار في جهة واحدة من غير أخذ في جهة اليمين والشمال ... (٢) .

والطغيان : مجاوزة الحد . ومنه طغا الماء . أي ارتفع وتجاوز الحدود المأمومة .

(١) تفسير الفخر الرازي > ١٨ ص ٧٠

(٢) تفسير القرطبي > ٩ ص ١٣٦ .

والمعنى: لقد علمت - أيها الرسول الكريم - حال السعداء وحال الأشقياء، وعرفت أن كل مكلف سيوفى جزاء أعماله

وما دام الأمر كذلك فالزم أنت ومن معك من المؤمنين طريق الاستقامة على الحق ، وداوموا على ذلك كما أمركم الله ، بدون إفراط أو تفريط، واحذروا أن تتجاوزوا حدود الاعتدال في كل أقوالكم وأعمالكم .

وروجه - سبحانه - الأمر بالاستقامة إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - تنويهاً بشأنه ، ولينبيه عليه قوله - « كما أمرت » ، فيشير بذلك إلى أنه - عليه الصلاة والسلام - هو وحده المتلقى للأوامر الشرعية من الله - تعالى - .

وغد جمع قوله - تعالى - « فاستقم كما أمرت » أصول الإصلاح الديني وفروعه ، كما جمع قوله - تعالى - « ولا تطغوا » أصول النهي عن المفاصد وفروعه ، فكافت الآية الكريمة بذلك جامعة لإقامة المصالح ولدرء المفاصد . قال الإمام ابن كثير ما ملخصه : يأمر الله - تعالى - رسوله وعباده المؤمنين في هذه الآية بالثبات والدوام على الاستقامة ، لأن ذلك من العون على النصر على الأعداء ، وينهاهم عن الطغيان وهو البغي ، لأنه مصرعته حتى ولو كان على مشرك .

وقال الألوسي : والاستقامة كلمة جامعة لكل ما يتعلق بالعلم والعمل وسائر الأخلاق

أخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن الحسن أنه قال ، لما نزلت هذه الآية قال - صلى الله عليه وسلم - « شمروا شمروا ، وما روى بعد ضاحكا » . وعن ابن عباس قال : ما نزلت على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - آية ألحد من هذه الآية ولا أشق ^(١) .

وفي صحيح مسلم عن سفيان بن عبد الله الثقفي قال : قلت يا رسول الله ،

قل لي في الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحداً بعدك . قال : « قل آمنت بالله ثم استقم » (١) .

وجملة « إنه بما تعملون بصير » ، تعليل للأمر بالإستقامة وللنهي عن الطغيان .
أى : الزموا المنهج القويم ، وابتعدوا عن الطغيان ، لأنه - سبحانه - مطلع على أعمالكم اطلاع المبصر ، العليم بظواهرها وبواطنها ، وسيجازيكم يوم القيامة عليها بما تستحقون من ثواب أو عقاب .

ثم نهى - سبحانه - بعد ذلك عن الميل إلى الظالمين فقال : « ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار وما لكم مزدون الله من أولياء ثم لا تنصرون » .
والركون إلى الشيء : الميل إليه . يقال ركن فلان إلى فلان ، إذا مال إليه بقلبه ، واعتمد عليه في قضاء مصالحه .

والمراد بالذين ظلموا هنا : ما يتناول المشركون وغيرهم من الظالمين الذين يعتدون على حقوق الغير ، ويستحلون من محارم الله ...

والمعنى : واحذروا - أيها المؤمنون - أن تميلوا إلى الظالمين ؛ أو تسكنوا إليهم ، لأن ذلك يؤدي إلى تقوية جانبهم . وإضعاف جانب الحق والعدل ..
قال بعض العلماء : ويستثنى من ذلك للضرورة صحة الظالم على التقية مع حرمة الميل القلبي إليه .

وقوله « فتمسكم النار » أى فتصيبكم النار بسبب ميلكم إليهم ، والاعتقاد طيهم ، والرضا بأفعالهم .

وقوله « وما لكم مزدون الله من أولياء » فى موضع الحال من ضمير « تمسكم » .

أى : « الحال أنه ليس لكم من غير الله من نصراء ينصرونكم من العذاب

النازل بكم ، بسبب ركوتكم إلى الذين ظلموا وبجالتهم وزيرهم
ومداهنتهم ...

وثم في قوله : « ثم لا تنصرون » ، للتراخي الرتبي . أى ثم لا تجدون بعد
ذلك من ينصركم بأى حال من الأحوال ، لأن الظالمين ما لهم من أنصار .

قال بعض العلماء : الآية أبلغ ما يتصور فى النهى عن الظلم ، والتهديد عليه ،
لأن هذا الوعيد الشديد إذا كان فيمن يركن إلى الذين ظلموا فكيف يكون
حال من ينغمس فى حمايته ١١٤

ثم قال : وقد وسع العلماء فى ذلك وشددوا ، والحق أن الحالات تختلف ،
والأعمال بالنيات . والتفصيل أولى .

فإن كانت المخالطة لدفع منكر ، أو للاستعاقة على إحقاق الحق ، أو
جلب الخير ...

فلا حرج فى ذلك . وإن كانت لإيئاسهم وإقرارهم على ظلمهم فلا . (١)
ثم أرشد - سبحانه - عباده المؤمنين إلى ما يعينهم على الاستقامة وعلى
هدم الركون إلى الظالمين ، فقال : « وأقم الصلاة طرفى النهار وزلفا من
الليل ، إن الحسنات يذهبن السيئات ، ذلك ذكرى للذاكرين ... »

والمراد بإقامتها . الإتيان بها فى أوقاتها كاملة الأركان والخشوع والإخلاص
لله رب العالمين .

والمراد بالصلاة هنا : الصلاة المفروضة .

قال القرطبي : لم يختلف أحد من أهل التأويل فى أن الصلاة فى هذه الآية ،
المراد بها الصلوات المفروضة . وخصها بالذكر لأنها ثمانية أركان الإسلام ،
وللإتيان بها فى النواصب ، وكان النبى - صلى الله عليه وسلم - إذا

نحزبه أمر فزع إلى الصلاة،^(١) .

وطرفى النهار: أى أول النهار وآخره ، لأن طرف الشيء منتهاه من أوله أو من آخره .

والنهار: يتناول ما بين مطلع الفجر إلى غروب الشمس . سمي بذلك لأن الضياء ينهر فيه أى يبرز النهر .

والصلاة التى تكون فى هذين الوقتين ، تشمل صلاة الغداة وهى صلاة الصبح ، وصلاة العشى وهى صلاة الظهر والعصر ، لأن لفظ العشى يكون من الزوال إلى الغروب .

وقيل الصلاة التى تكون فى هذين الوقتين هى صلاة الصبح والمغرب . وقوله ، وزلفا من الليل ، معطوف على طرف فى النهار .

والزلف جمع زلفة - كفوف وغرفة - والمراد بها الساعات القريبة من آخر النهار ، إذ الإزلاف معناه القرب ومنه قوله - تعالى - « وأزلفت الجنة للمتقين ... » ، أى : قربت منهم . وتقول أزلفتنى فلان منه : أى قربنى ...

فمعنى « وزلفا من الليل ، طائفة من أوله . وصلاة الزلف تطلق على صلاتى المغرب والعشاء قال ابن كثير ماملخصه : وقوله « وزلفا من الليل ، يعنى صلاة المغرب والعشاء . قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - « هما زلفتا الليل : المغرب والعشاء » .

ويحتمل أن تكون هذه الآية نزلت قبل فرض الصلوات الخمس ليلة الإسراء ، فإنه إنما كان يجب من الصلاة صلاتان : صلاة قبل طلوع الشمس وصلاة قبل غروبها ، وفى أثناء الليل قيام عليه وعلى الأمة ، ثم نسخ فى حق الأمة ، وثبت وجوبه عليه ، ثم نسخ عنه أيضا فى قول ،^(٢) .

(١) تفسير القرطبي ج ٩ ص ١٠٩ .

(٢) تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٢٨٤ .

وجملة ، إن الحسنات يذهبن السيئات ، مسوقة مساق التعليل للأمر بإقامة الصلاة ، وأكملت بحرف ، إن ، للاهتمام وتحقيق الخبر ، والحسنات صفة لموصوف محذوف ، وكذلك السيئات .

والمعنى : إن الأعمال الحسنة - كالصلاة والزكاة والصيام والحج ، والاستغفار ... - يذهبن الأعمال السيئات ، أى يذهبن المؤاخذه عليها ، ويذهبن الاتجاه إليها ببركة المواظبة على الأعمال الحسنة .

والمراد بالسيئات هنا صفات الذنوب ، لقوله - تعالى - : إن تجتنبوا كبار ما تنهون عنه فكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلا كريما ، (١) ولقوله - تعالى - : الذين يجتنبون كبار الإثم والفواحش إلا اللغو إن ربك واسع المغفرة ، (٢) ، ولأن كبار الذنوب لا تكفرها إلا التوبة الصادقة .

وقوله ، ذلك ذكرى للذاكرين ، أى : ذلك الذى أمرناك به من وجوب إقامة الصلاة ، ومن الاستقامة على أمر الله ... فيه التذكيرة النافعة ، بأن كان شأفه التذكر والاعتبار ، لا الإعراض والعناد .

وهذه الآية الكريمة من الآيات التى قال عنها بعض المفسرين بأنها مدنية ، وقد ذكرنا فى التمهيد بين يدى السورة ، أن سورة هود ترجع أنها كلها مكية ، وليس فيها آيات مدنية .

وعما يؤيد أن هذه الآية مكية أنها مسوقة مع ما سبقها من آيات لنسبة النبي - صلى الله عليه وسلم - ولإرشادة واتباعه إلى ما يعينهم على الاستقامة ، وعدم الركون إلى الظالمين .

(١) سورة النساء الآية ٣١ .

(٢) سورة النجم الآية ٣٢ .

ولأن بعض الروايات التي وردت في شأنها ، لم تذكر أنها نزلت في المدينة ، بل ذكرت أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - تلاها على السائل ، ومن هذه الروايات ما رواه الإمام أحمد ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وابن جرير - وهذا لفظه - عن ابن مسعود قال : جاء رجل إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - فقال : يا رسول الله إني وجدت امرأة في بيتان ، ففعلت بها كل شيء ، غير أني لم أجامعها ، فافعل بي ما شئت . فلم يقل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - شيئاً ، فذهب الرجل ، فقال عمر : لقد ستر الله عليه لوستر على نفسه . فأتبعه الرسول - صلى الله عليه وسلم - بصره ثم قال : ردوه على فردوه عليه فقرأ عليه : و أقم الصلاة طرقي النهار وزلفا من الليل ... الآية ، فقال معاذ - وفي رواية عمر - يا رسول الله ، أله وحده أم للناس كافة ؟ فقال : بل للناس كافة ، (١) .

والروايات التي ورد فيها فأنزل عليه هذه الآية ، في الإمكان أن تؤيد بأن المـ اذ أنزل عليه شمول عموم الحسنات والمسيئات لقضية السائل ، ولجميع ما يماثلها من إصـ ابة الذنوب سوى الكبائر .

هذا ، ثم ختم - سبحانه - هذه التوجيهات الحكيمة بقوله . . . واصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين . . .

أى : واصبر أيها الرسول الكريم أنت ومن معك من المؤمنين على مشاق التكاليف التي كلفكم الله - تعالى - بها ، فإنه - سبحانه - لا يضيع أجر من أحسن عملاً ، بل موفى الصابرين أجرهم بغير حساب .

قال الألوسي : ومن البلاغة القرآنية أن الأوامر بأفعال الخير أفردت للنبي - صلى الله عليه وسلم - وإن كانت عامة في المعنى ، والمناهي جمعت للأمة ، للدلالة على عظم منزلة الرسول - صلى الله عليه وسلم - عنده (٢) .

(١) راجع تفسير ابن كثير ج٤ ص ٢٨٦ .

(٢) تفسير الألوسي - ١٢ ص ١٤٣ .

ثم ختم — سبحانه — السورة الكريمة بهذه الآيات الدالة على سنن الله — تعالى — في خلقه ، وعلى الحكم التي من أجلها ساق الله — تعالى — تلك القصص في كتابه فقال — تعالى — :

« فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ ، وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ (١١٦) وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلِهَا مُصْلِحُونَ (١١٧) وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً ، وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلَفِينَ (١١٨) إِلَّا مِنْ رَحْمَةِ رَبِّكَ وَلِلَّذَلِكَ خَلْقَهُمْ ، وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (١١٩) وَكَلَّا نَقْصُصُ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نَقِصْتُ بِه فَوَآدِكْ ، وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ (١٢٠) وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلَى مَكَاتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ (١٢١) وَانْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ (١٢٢) وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ ، فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ، وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (١٢٣) . »

وقوله — تعالى — فلو كان من القرون من قبلكم أولوا بقية ينهون عن الفساد في الأرض إلا قليلاً ممن أنجينا منهم ، إرشاد إلى أن الأمم إذا خلت من الأمرين بالمعروف والنهي عن المنكر ، حلت بها المصائب والنكبات . .

ولولا : حرف تخصيص بمعنى هلا . والمقصود بالتحضيض هنا تحذير المعاصرين للنبي — صلى الله عليه وسلم — ومن سيأتي بعدهم من الوقوع فيما وقع فيه أهل القرون الماضية من ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، حتى لا يصيب اللاحقين ما أصاب السابقين .

والقرون : جمع قرن . والمراد به الأمة من الناس الذين يجمعهم زمان واحد ، والراجع أن القرن مائة عام .

وه أولوا بقية ، أى : أصحاب مناقب حميدة ، وخصال كريمة ، وعقول راجحة . . .

وأصل البقية : ما يصطفيه الإنسان لنفسه من أشياء نفيسة يدخرها لينتفع بها ، ومنه قولهم : فلان من بقية القوم . أى : من خيارهم وأهل الفضل فيهم . قال الشاعر :

إن تدفبوا ثم تأتيني بقيتكم فما على بذنب منكم فوت

وفي الأمثال : فى الزوايا خبايا ، وفى الرجال بقايا

والفساد فى الأرض : يشعل ما يكون فيها من المعاصى واختلال الأحوال وارتكاب المنكرات والبعد عن الصراط المستقيم .

والمعنى : فهلا وجد من أولئك الأقوام الذين كانوا من قبلكم ، رجال أصحاب خصال كريمة ، وعقول سليمة ، تجعلهم هذه الخصال وتلك العقول يهتدون أنفسهم وغيرهم عن الإفساد فى الأرض ، وعن انتهاك الحرمات ؟

كلا إنهم لم يكن فيهم هؤلاء الرجال الذين يهتدون عن الفساد فى الأرض ، إلا عددا قليلا منهم أنجيئناهم بسبب إيمانهم ونهيم عن الفساد فى الأرض .

وفى هذا من التوبيخ لأهل مكة ولسكل من تقاعس عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ما فيه ، لأن الله - تعالى - بين أن عذاب الاستئصال الذى حل بالظالمين السابقين ، كان من أسبابه عدم نهيمهم عن الفساد فى الأرض .

قال الشوكاني : والاستثناء فى قوله إلا قليلا .. منقطع . أى : لكن قليلا من أنجيئنا منهم كانوا يهتدون عن الفساد فى الأرض . وقيل : هو متصل ، لأن فى حرف التحضيض معنى النفي ، فكأنه قال : ما كان فى القرون أولوا بقية يهتدون عن الفساد فى الأرض ، إلا قليلا من أنجيئنا منهم . ومن فى قوله

« من أنجينا منهم ، بيا فيه ، لأنه لم ينج إلا الناهون ، (١) .

وقال ابن كثير : ولهذا أمر الله - تعالى - هذه الأمة الشريفة أن يكون فيها من يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر وأولئك هم المفلحون . وفي الحديث : « إن الناس إذا رأوا المنكر فلم يغيروه ، أوشك الله أن يعمهم بعقاب من عنده ، ولهذا قال : فلو لا كان من القرون من قبلكم أولوا بقية ينهون عن الفساد في الأرض ... » (٢)

وقوله : « واتبع الذين ظلموا ما أترفوا فيه » إشارة إلى أن هؤلاء القاعدين عن النهي عن الإفساد في الأرض ، قد استمروا على فجورهم وفسقهم دون أن يلتفتوا إلى خصال الخير ، وإلى سبيل الصلاح .
وأترفوا من الترف ومعناه التقلب في نعم الله - تعالى - مع ترك شكره - سبحانه - عليها .

والمترف : هو الشخص الذي أبطرته النعمة ، فانغمس في الشهوات والمعاصي ، وأعرض عن الأعمال الصالحة . .

والجملة السكرية : طوفة على كلام مقدر يقتضيه الكلام ، والمعنى : أن هؤلاء الذين لم يكن فيهم أولوا بقية ينهون عن الفساد في الأرض إلا من استثنى ، قد استمروا في طغيانهم ، واتبعوا ما أنعموا فيه من الثروة والعيش الهنيء والشهوات العاجلة ، فكفروا بالنعمة ، واستكبروا وفسقوا عن أمر ربهم ، وكانوا قوما مجرمين ، أي مصرين على ارتكاب الجرائم والمنكرات ، فحق عليهم العقاب الذي يستحقونه بسبب هذه السيئات .

ثم بين - سبحانه - أن رحمته بعباده تقتضي عدم ظلمه لهم فقال : « وما كان ربك ليهلك القرى بظالم وأهلها مصلحون ، » .

(١) تفسير فتح القدير للشوكاني ج ٢ ص ٥٢٤

(٢) تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٢٩٠

والمراد بالظلم هنا ما يشمل الإشرak بالله - تعالى - وغيره من الوقوع في المعاصي والمنكرات .

والباء في د بظلم ، للملابسة ، و تنوين فيه الإشعار بأن إهلاك المصلحين ظلم عظيم يتنزه الله - تعالى - عنه على أبلغ وجه ، وإن كانت أفعاله - عز وجل - لا ظلم فيها أيا كانت هذه الأفعال . والجار المجرور حال من ربك .

والمعنى : وما كان من شأن ربك - أي - الرسول الكريم - أن يهلك أهل قرية من القرى إهلاكاً متلبساً بظلم منه لها ، والحال أن أهلها قوم مصلحون ، لأن ذلك الإهلاك مع تلك الحال يتنافى مع ما كتبه على نفسه من الرحمة والعدل . قال - تعالى - « كتب ربكم على نفسه الرحمة ... » وقال - تعالى - « ولا يظلم ربك أحداً » .

وقال - تعالى - « وما كنا مهلكي القرى إلا وأهلها ظالمون » .

ومنهم من فسر : « ظلم هنا بالشرك » وجعل الباء للسببية ، فيكون المعنى : ليس من شأن ربك أن يهلك أهل قرية من القرى بسبب كفرهم وحده ، مع صلاحهم في تماطى الحقوق فيما بينهم ، وإنما يهلكهم عندما يضمون إلى الكفر الإفساد في الأرض كما أهلك قوم شعيب لشركهم وإنقاذهم المكابال والميزان .

وقد ساق ابن جرير - رحمه الله - القولين دون أن يرجح بينهما فقال : القول في تأويل قوله - تعالى - « وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون » .

يقول - تعالى - ذكره : « وما كان ربك ياحمد ليهلك القرى التي أهلكتها والتي قص عليك ذبأها ظلماً وأهلها مصلحون في أعمالهم غير مسيئين ، فيكون إهلاكهم إياهم مع إصلاحتهم في أعمالهم وطاعتهم ربهم ظلماً ، ولكنه أهلكتها بكفر أهلها بالله ، وتماذيتهم في غيرهم ... »

وقد قيل معنى ذلك : لم يكن ليهلكهم بشركهم بالله : وذلك قوله بظلم يعنى

بشرك ، وأهلها مصلحون فيما بينهم لا يظالمون ، ولكنهم يتعاطون الحق بينهم وإن كانوا مشركين ، وإنما يهلكهم إذا تظالموا ، (١) .

والذي نراه أن القول الأول أقرب إلى الصواب ، لأن حمل الظلم هنا على الشرك تخصيص بدون غرض ، حيث لم يرد عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حديث صحيح يخصه بذلك ، فوجب حمل الظلم على معناه الحقيقي الذي يتناول الشرك وغيره .

ثم أخبر - سبحانه - بأن قدرته لا يعجزها شيء . فقال : ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ، .

والأمة : القوم المجمعون على أمر واحد ؛ يقتدى فيه بعضهم ببعض ، وهذا اللفظ مأخوذ من « أم » بمعنى قصد ، لأن كل واحد من أفراد القوم يؤم المجموع ويقصده في مختلف شئونه .

ولو شرطية امتناعية ، ومفعول فعل المشيئة محذوف والتقدير :

ولو شاء ربك - أيها الرسول الكريم الحريص على إيمان قومه - أن يجعل الناس جميعاً أمة واحدة بجمعة على الدين الحق لجعلهم ، ولكنه - سبحانه - لم يشأ ذلك ، ليميز الخبيث من الطيب وشبهه بهذه الآية قوله - تعالى - « ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعاً ... » ،

وقوله - سبحانه - « ولو شاء ربك لجعلهم على الهدى ... » ،

وقوله « ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ، تأكيد لما اقتضته سنته من اختلاف الناس .

أي : ولا يزالون مابقيت الدنيا مختلفين في شأن الدين الحق ، فمنهم من دخل فيه وآمن به ، ومنهم من أعرض عنه ، إلا الذين رحمهم ربك منهم بهدايتهم إلى الصراط المستقيم من أول الأمر ، فإنهم لم يختلفوا ، بل اتفقوا على الإيمان بالدين الحق فدعاهم الله - تعالى - من الاختلاف المذموم .

قال الإمام ابن كثير : وقوله « إلی من رحم ربك » أى : إلی المرحومين من أتباع الرسل ، الذين تمسكوا بما أمروا به من الذى أخبرتهم به رسل الله إليهم ، ولم يزل ذلك دأبهم ، حتى كان النبي - صلى الله عليه وسلم - الأسمى خام الرسل والأنبياء ، فاتبعوه وصدقوه ونصروه ، ففازوا بسعادة الدنيا والآخرة ؛ لأنهم الفرقة الناجية ، كما جاء فى الحديث المروى فى المسانيد والسنن ، من طرق يشهد بعضها بعضا : إن اليهود اختلفت على إحدى وسبعين فرقة ، وإن النصارى اختلفوا على ثنتين وسبعين فرقة ، وستفترق أمتى على ثلاث وسبعين فرقة ، كلها فى النار إلا فرقة واحدة . قالوا : ومن هم يا رسول الله ، قال : ما أنا عليه وأصحابي ، (١) .

واسم الإشارة فى قوله « ولذلك خلقهم » يعود على المصدر المفهوم من مختلفين قال الألوسى : فكأنه قيل : وللإختلاف خلق الناس ، على معنى لثمة الاختلاف من كون فريق فى الجنة وفريق فى السعير خلقهم .

واللام لام العاقبة والصيرورة ، لأن حكمة خلقهم ليس هذا ، لقوله - سبحانه - « وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون » ، ولأنهم لو خلقهم له - أى للاختلاف - لم يعذبهم على ارتكاب الباطل ، (٢)

ومنهم من جعل الإشارة إلى الرحمة لأنها أقرب مذكور ، فيكون التقدير : إلی من رحم ربك ولرحمته - سبحانه - خلق الناس .

وصح تذكير اسم الإشارة مع عودته إلى الرحمة لكون قانيثها غير حقيق . ومنهم من جعل الإشارة إلى مجموع الاختلاف والرحمة ، لأنه لا مانع من الإشارة بها إلى شيئين كما فى قوله « عرآن بين ذلك » أى بين الفارض والبكر .

فيكون المعنى : وللإختلاف والرحمة خلقهم . أى أنه - سبحانه - خلق أهل الرحمة والرحمة وأهل الإختلاف للاختلاف .

(١) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٢٩١ .

(٢) تفسير الألوسى ج ١٢ ص ٤٧ :

وقد رجح الإمام القرطبي هذا الوجه فقال : قوله ، ولذلك خلقهم ، قال الحسن ومقاتل وعطاء :

الإشارة إلى الاختلاف ، أى : وللإختلاف خلقهم . وقال ابن عباس ومجاهد وقنادة والضحاك :

الإشارة إلى الرحمة : أى : ولرحمته خلقهم .

وقيل : الإشارة إلى الاختلاف والرحمة ، وقد يشار بذلك إلى شيئين متضادين ، كما فى قوله - تعالى - ، والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما ، ...

وهذا أحسن الأقوال - إن شاء الله - لأنه يعم . أى : ولما ذكر خلقهم .. أى : خلقهم ليكون فريق فى الجنة وفريق فى السعير . أى خلق أهل الاختلاف للاختلاف وأهل الرحمة للرحمة (١)

والمراد بكلمة ربك فى قوله - سبحانه - ، وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين ، قضاؤه النافذ ، وإرادته التى لا تتخلف ، وحكمه الأزلى .

أى : وتمت كلمه ربك ، ونفذ قضاؤه ، وثبت حكمه الذى أكده وأقسم عليه بقوله : لأملأن جهنم من عصاة الجن ، ومن عصاة الإنس أجمعين ، لأنه من المعروف أن الوعيد إنما هو للعصاة والمذنبين وليس للمؤمنين الصادقين .

قال الآلوسى : وفى معنى ذلك ما قيل من أن المراد بالجنة والناس أنبىاء إبليس لقوله - تعالى - فى سورة الأعراف وفى سورة ص ، لأملأن جهنم منك ومن تبعك منهم أجمعين ، فاللازم دخول جميع تابعيه فى جهنم ، والقرآن يفسر بعضه بعضا ... (٢)

ثم بين - سبحانه - أهم الفوائد التى تعود على الرسول - صلى الله عليه وسلم -

(١) تفسير القرطبي ج ٩ ص ١١٥ .

(٢) تفسير الآلوسى ج ١٢ ص ١٢٨ .

من وراء إخباره بأحوال الأنبياء السابقين مع أقوامهم فقال : « وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك . . . »

والتثمين في قوله « وكلا » للموضع عن المضاف إليه . والأنباء جمع نبأ وهو الخبر الهام :

أى : وكل نبأ من أنباء الرسل الكرام السابقين ، قصه عليك - أيها الرسول الكريم - ونخبرك عنه .

فالمقصود به تثبيت قلبك ، وتقوية يقينك ، ونساية نفسك ونفوس أصحابك عما لحقكم من أذى في سبيل تبليغ دعوة الحق إلى الناس .

وقوله - سبحانه - « وجاءك في هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين ، بيان لما اشتملت هذه السورة الكريمة من أخبار صادقة ، وعظات بليغة .

أى وجاءك - أيها الرسول الكريم - في هذه السورة الكريمة وغيرها من سور القرآن الكريم : الحق الثابت المطابق للواقع ، والعظات الحكيمة ، والذكرى النافعة للمؤمنين بما جئت به . . .

وأما الذين في قلوبهم مرض فقد زادتهم هذه السورة وأعمالها رجسا إلى رجسهم ، وماتوا وهم كافرون .

ثم أمر الله - تعالى - رسوله - صلى الله عليه وسلم - بالسير في طريق الحق بدون مبالاة بتهديد أعدائه فقال : « وقل الذين لا يؤمنون أعمالوا على مكانتكم إنما عاملون را انتظروا إنا منتظرون ، والأمر في هذه الآية الكريمة للتهديد .

ومكانتكم : مصدرومكن - بزنة كرم - مكانة ، إذا تمكن من الأمر أبلغ التمكن .

أى : وقل - أيها الرسول الكريم - لهؤلاء المشركين الذين يضعون العقبات في طريق دعوتك ، قل لهم أعمالوا ما تستطيعون عمله من الكيد لى ولدعوتى ، فإنى وأصحابى مستمررون على السير فى طريق الحق الذى هدانا الله

إليه ، بدون التفات إلى كفركم وقل لهم - أيضا - : انتظروا ما يأتى به الله من عقاب ، فإننا منتظرون معكم ذلك .

ثم ختم - سبحانه - السورة السكرية بهذه الآية الجامعة فقال : والله غيب السموات والأرض وإليه يرجع الأمر كله فاعبده وتوكل عليه وما ربك بغافل عما تعملون . .

أى : والله - تعالى - وحده علم جميع ما غاب عن الخواص فى السموات والأرض ، وإليه وحده يرجع الأمر كله من إحياء وإماتة ، وهداية وضلال ، وصحة ومريض ، ونصر وهزيمة .

وما دام الأمر كذلك فاعبده وتوكل عليه ، أى : فأخلص له العبادة ، واجعل توكلك عليه وحده .

وما ربك بغافل عما تعملون ، بل هو مطلع وبصير بأعمال عباده جميعا ، لا يعزب عنه مثقال ذرة منها ، وسيجازى الذين أساءوا بما عملوا ، ويجازى الذين أحسنوا بالحسنى .

أما بعد : فهذا تفسير لسورة هود - عليه السلام - أسأل الله - تعالى - أن يجعله خالصا لوجهه ونافعا لعباده . وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

المدينة المنورة - صباح الخميس ٥ من جمادى الثانية سنة ١٤٠١ هـ

الموافق ٩ من أبريل سنة ١٩٨١ م

محمد السيد طنطاوى

الفهرس

فهرس تفسير سورة هود - عليه السلام -

الصفحة	الآية المفسرة	رقم الآية
٣	المقدمة والتمهيد	
١٥	الر . كتاب أحكمت آياته	١
١٧	ألا تعبدوا إلا الله	٢
١٨	وأن استغفروا ربكم	٣
٢٠	إلى الله مرجعكم	٤
٢٠	ألا إنهم يثنون صدورهم	٥
٢٢	وما من دابة في الأرض	٦
٢٥	وهو الذي خلق السموات والأرض	٧
٢٨	ولئن أخرجنا عنهم العذاب	٨
٢٣	ولئن أذقنا الإنسان	٩
٢٣	ولئن أذقناه نعماء	١٠
٣٤	إلا الذين صبروا	١١
٣٤	فلعلك تارك بعض	١٢
٢٧	أم يقولون افتراه	١٣
٣٩	فإن لم يستجيبوا لكم	١٤
٤١	من كان يريد الحياة الدنيا	١٥
٤١	أولئك الذين ليس لهم	١٦
٤٤	أفمن كان على بينة من ربه	١٧
٤٩	ومن أظلم ممن افترى	١٨
٥١	الذين يصدون عن سبيل الله	١٩
٥٢	أولئك لم يكفوا معجزين	٢٠
٥٣	أولئك الذين خسروا أنفسهم	٢١
٥٣	لا جرم أنهم في الآخرة	٢٢

الصفحة	الآية المفسرة	رقم الآية
٥٤	إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات	٢٣
٥٥	مثل الفريقين كالأعمى	٢٤
٥٧	واقعد أرسلنا نوحا	٢٥
٥٨	ألا تعبدوا إلا الله	٢٦
٥٩	فقال الملأ الذين كفروا	٢٧
٦١	قال يا قوم أرأيتم	٢٨
٦٤	ويا قوم لا أسألكم	٢٩
٦٥	ويا قوم من ينصرني من الله	٣٠
٦٦	ولا أقول لكم عندي خزائن الله	٣١
٦٨	قالوا يا نوح قد جادلتنا	٣٢
٦٩	قال إنما يأتىكم به الله	٣٣
٦٩	ولا ينفعكم نصحي إن أردت	٣٤
٧٠	أم يقولون افتراه	٣٥
٧٢	وأوحى إلى نوح أنه لن يؤمن	٣٦
٧٣	واصنع الفلك بأعيننا	٣٧
٧٤	ويصنع الفلك	٣٨
٧٥	فسوف تعملون من ياتيه	٣٩
٧٥	حتى إذا جاء أمرنا وفار التنور	٤٠
٧٩	وقال اركبوا فيها	٤١
٨١	وهي تجري بهم في موج كالجبال	٤٢
٨١	قال سأوى إلى جبل	٤٣
٨٢	وقيل يا أرض ابلعي ماءك	٤٤
٨٦	وفادى نوح ربه	٤٥
٨٧	قال يا نوح إنه ليس	٤٦
٨٩	قال رب إنى أعوذ بك	٤٧
٩٠	قيل يا نوح اهبط	٤٨

الصفحة	الآية المفسرة	رقم الآية
٩١	تلك من أنباء الغيب	٤٩
٩٦	وإلى عاد أخاهم هودا	٥٠
٩٨	يا قوم لا أسألكم	٥١
٩٩	ويا قوم استغفروا ربكم	٥٢
١٠٠	قالوا يا هود ما جئتنا ببينة	٥٣
١٠١	إن نقول إلا اعتراك	٥٤
١٠٢	من دونه فكيدوني جميعا	٥٥
١٠٣	إنو توكلت على الله	٥٦
١٠٤	فإن تولوا فقد أبلغتكم	٥٧
١٠٥	ولما جاء أمرنا نجينا هودا	٥٨
١٠٦	وتلك عاد جحدوا	٥٩
١٠٧	وأتبعوا في هذه الدنيا لعنة	٦٠
١٠٩	وإلى ثمود أخاهم صالحا	٦١
١١٢	قالوا يا صالح قد كنت	٦٢
١١٢	قال يا قوم أرأيتم إن كنت	٦٣
١١٣	ويا قوم هذه ناقة الله	٦٤
١١٤	فمقروها فقال تمتعوا	٦٥
١١٥	فلما جاء أمرنا نجينا صالحا	٦٦
١١٦	وأخذ الذين ظلموا	٦٧
١١٦	كان لم يغفوا فيها	٦٨
١١٨	واقدم جاءت رسلنا	٦٩
١٢٠	فلما رأى أبديهم	٧٠
١٢١	وامراته قائمة فضحك	٧١
١٢٢	قالت يا ويلتى أألد	٨٢
١٢٢	قالوا أتعجبين من أمر الله	٧٢
١٢٤	فلما ذهب عن إبراهيم	٧٤

الصفحة	الآية المفسرة	رقم الآية
١٢٥	إن إبراهيم لحليم	٧٥
١٢٥	بإبراهيم أعرض عن هذا	٧٦
١٢٧	ولما جاءت رسلنا لوطا	٧٧
١٣٠	وجاءه قومه يهرعون إليه	٧٨
١٣٢	قالوا لقد علمت ما لنا	٧٩
١٣٣	قال لو أن لي بكم قوة	٨٠
١٣٤	قالوا يالوط إنا نرسل ربك	٨١
١٣٦	فلما جاء أمرنا	٨٢
١٣٧	مسرة عند ربك	٨٣
١٣٩	وإلى مدين أخاهم شعيبا	٨٤
١٤٢	وياقوم أوفوا المكيال	٨٥
١٤٣	بقية الله خير لكم إن كنتم	٨٦
١٤٤	قالوا يا شعيب أصلاتك	٨٧
١٤٦	قال ياقوم أرايتم	٨٨
١٤٧	وياقوم لا يجرمنكم	٨٩
١٤٩	واستغفروا ربكم	٩٠
١٤٩	قالوا يا شعيب ما نفقه	٩١
١٥٠	قال ياقوم أرمطى	٩٢
١٥١	وياقوم اعملوا على مكانتكم	٩٣
١٥٢	ولما جاء أمرنا نجينا	٩٤
١٥٢	كان لم يغنوا فيها	٩٥
١٥٤	ولقد أرسلنا موسى	٩٦
١٥٥	إلى فرعون وملائه	٩٧
١٥٥	يقدم قومه يوم القيامة	٩٨
١٥٦	وأتبعوا في هذه أمة	٩٩
١٥٨	ذلك من أنباء القرى	١٠٠

الصفحة	الآية المفسرة	رقم الآية
١٥٩	وما ظلمناهم ولكن ظلّموا	١٠١
١٦١	وكذلك أخذ ربك	١٠٢
١٦٢	إن في ذلك لآية	١٠٣
١٦٤	وما تؤخّره إلا لأجل	١٠٤
١٦٤	يوم يأت لاتكلم نفس	١٠٥
١٦٥	فأما الذين شقّوا	١٠٦
١٦٦	خالدين فيها ما دامت	١٠٧
١٧٠	وأما الذين سعدوا	١٠٨
١٧١	فلاتك في مرية	١٠٩
١٧٤	ولقد آتينا موسى	١١٠
١٧٦	وإن كلاما ليوفيهم	١١١
١٧٧	فاستقم كما أمرت	١١٢
١٧٩	ولا تركنوا إلى الذين	١١٣
١٨٠	وأقم الصلاة	١١٤
١٨٣	واصبر فإن الله	١١٥
١٨٤	فلولا كان من القرون	١١٦
١٨٧	وما كان ربك	١١٧
١٨٨	ولو شاء ربك	١١٨
١٨٨	إلا من رحم ربك	١١٩
١٩١	وكلا نقص عليك	١٢٠
١٩١	وقل للذين لا يؤمنون	١٢١
١٩٢	وانتظروا إنا منتظرون	١٢٢
١٩٢	وقه غيب السموات والأرض	١٢٣

رقم الایداع ۲۹۰۲ / ۱۹۸۴